البكَّاؤون

مكتبة ياسمين

عقيل الموسوي

مرايا | منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

شعرت به بغريزتها الأنثوية، يجيء ويروح بين المكتبة وقاعة الدرس، تلمح في نظراته هيامًا، نظرات جاتسبي نفسها التي وجهها إلى حبيبته ديزي في رواية «جاتسبي العظيم». عرفت أنه عربي، وتخيلته سليل سلاطين غابرين، والثلمة في ثنيته العُليا توحي بسوابق في الشقاوة. تعمدت الضحك قريبًا منه لإثارة اهتمامه، وكان يتحفز ليقول شيئًا، ثم يتراجع بالعًا لسانه. استمتعتْ بأمره كتسلية، ولما عجز أن يصرح بشيء، شعرت بالضيق، وأحيانًا بالمهانة، وتخبطت في هواجسها، بل حقدت عليه، حتى أنها فكرت في طريقة لإذلاله.

*****

ليست رواية تاريخيّة، بل ربما كانت ضدّ التاريخ، ومع هذا، فهي تنهض على التاريخ، على تاريخٍ تراجيديٍّ بعيدٍ صار حدثًا يوميًّا لفرط حضوره، روايةٌ تتعانق فيها تراجيديا الدم وفورانِ الدّمع في المآقي مع الحب الرومانسي الجارف، وتتناسل أحداثها من قلب المنامة القديمة، ومن ذاكرتها الغنيّة بكل شيء، ومن سيرة أهلها وأحلامهم وإحباطاتهم وصراعاتهم. إنها رواية مكتنزة بشخصيات عديدة تشعرُ أنك تعرفهم فردًا فردًا لفرط واقعيتهم المألوفة، غنيةٌ بالتفاصيل الاجتماعية والسياسية والطقوسية، ومهمومةٌ بسيرة مجتمع تقليدي جدًّا، لكنه ينفجر فجأةً على وقع ثورة دينية تندلع في الجوار. يتحرّك الزمن في الرواية جيئةً وذهابًا بين الماضي والحاضر، بين السياسة والمجتمع، بين الطقس الديني والحب، لينسج مصائر ثلاثة أجيال متنافرةِ الأفكار والأهواء والاتجاهات، أجيال تختلف في كل شيء، ولا يوحِّدها سوى البكاء والدمع سريع الجريان.

د. نادر كاظم

مكتبة ياسمين

عقيل الموسوي

البكّاؤون

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

9 789921 808469

www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com

عقيل الموسوي

البكّاؤون

رواية

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
مرايا

الكاتب: **عقيل الموسوي**
عنوان الكتاب: **البكّاؤون**

لوحة الغلاف: أماني الطواش
تصميم الغلاف: يوسف العبدالله
تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-808-46-9
الطبعة الأولى - مايو/ أيار - 2024
1000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

دموعي العابرة غبية جدًّا، لكنها صادقة جدًّا.

من أغنية متطابق، علاء غواص.

إهداء

إلى الشخصيات الحقيقية التي عاصرتها في أحياء المنامـة، أنتم الذين كنتم جـزءاً من حياتي، أنتم الذين ألهمتموني كتابة هـذه الرواية، أنتم الذين أروي بألسنتكم.

الفصل الأول

-١-

تثبت شهادة الميلاد أن أول حفيد للحاج عبدعلي آل كاظم ولد في الرابع والعشرين من تموز عام ١٩٨٤، لكن زوجته الملاية السيدة حسينية تحفظ في دفاترها أنه ولد في ليلة الخامس والعشرين من شوال عام ١٤٠٤، ليلة وفاة الإمام جعفر الصادق. فرح الجد بالمولود، اعتقد أنه أخيرًا جاء الزمن الذي يستطيع أن يمنح أحدًا من نسله الاسم الذي يسكن قلبه منذ سنين: جمال، حبًّا في جمال عبدالناصر، بعد أن ذهبت أسماء أولاده على هوى زوجته، البكر سمته جواد، والثاني عباس.

جمال جواد عبدعلي! يا له من اسم رائع! تخيل الجد الاسم مزهوًّا برنته، يحلم لو يفلت به هذه المرة من زوجته المتسلطة، ها هي ترفل في الأسود الصارم حدادًا على إمام رحل قبل ثلاثة عشر قرنًا، والرضيع الأسمر بين ذراعيها، تصبّ الأذان في أذنه، وأعلنت بنبرة لا جدال بعدها:

- سيكون اسمه صادق.

رغم علمها أن أمه اختارت له اسم حبيب قبل أن تلده، حتى أن صديقاتها سمينها أم حبيب مذ كانت فتاة، أما الأب الثوري على النهج الإيراني، فتمنى الاسم ثائرًا، لكن أحلام الوالدين تلاشت أمام صرامة الجدة، تصرّ على أسنانها:

-صادق، ولا اسم غيره! عسى الله أن يجعله له حرزًا يحميه من المعاصي.

وهكذا رأى الحاج عبدعلي اسم جمال يتبخر للمرة الثالثة، لكن آماله انتعشت بعد شهور لمَّا ولدت زوجة ابنه عباس حفيدًا ثانيًا، لم ييأس يحلم في سرّه: جمال عباس عبدعلي! غير اسم ذلك الصبي حُفر في ذاكرة العائلة حفرًا، ذاك أنه جاء في أيام المعجزة العظيمة، حدث خارق لن ينساه أهل الحي.

- معجزة!

هتفت عجوز في مأتم الملاية حسينية المقام في بيت آل كاظم:

- انظروا! الجدار يذرف الدموع!

عيناها ثابتتان على قطرات ماء تنضح من تحت قماش الحداد الأسود.

- يا علي!

أمسكت السيدة حسينية باب المأتم لكيلا تسقط مغمى عليها، وتدافعت النساء يتبركن بالماء، ويمسحنه على وجوههن:

- اللهم صلِّ على محمد وآل محمد.

- سلام الله على الحسين.

- لا تحدث المعجزات إلا في بيوت الصالحات!

انتشر خبر المعجزة في المنامة مثل طلقة مدفع رمضان تعلن عن العيد، ازدادت زخمًا في أفواه النساء، كل امرأة تطرزها على هواها، وظهر رواة عند دكة الحي أقسموا إنها معجزة حقيقية، رغم أنهم لم يروها بأعينهم، تجاوز صدى المعجزة حدود العاصمة، واكتظ المأتم بنسّاك ومتسكعين وفضوليين جاءوا من القرى، بسطاء يمكنهم أن يؤمنوا بسهولة أن حمرة السماء هي حزن كوني على الحسين، وأن المطر هو بكاء السماء عليه، وأن جذع شجرة شقه الأطفال ونضح صمغًا، يمكن أن يفهموه في يوم حزين، من أيام أحزانهم الكثيرة، أن الشجرة مبروكة، تبكي على إمام قُتل، أو سُمِّم غدرًا، منذ زمن بعيد.

وبكل ما يمكن من عزيمة اقترح الحاج عبدعلي الاسم جمال للمولود، السيدة حسينية المزهوة بحدث المعجزة، وبأحلام غريبة تداهمها، ابتسمت يسطع نابها الذهبي ويخفت:

- لا تستعجلوا اسم الصبي!

أذعن الأب لطلبها، وتوقع أن تفتح دفاترها القديمة، وتختار اسم حسين أو عاشور أو عبدالشهيد، لأن المولود خرج إلى الدنيا في شهر محرم. أما الحاج عبدعلي فاستعجل اختيار الاسم، يخشى أن

تنتصر عليه زوجته كالعادة، وصار ينفر من استعراضها الصاخب بالمعجزة، تستقبل النساء باسمة الثغر، تكفكف دموع الانبهار، وتدعو المتهافتات أن يتبركن بالماء، وأن يقرأن الأدعية عند الجدار الباكي في جوقات مهيبة، وفي لحظة هاجت فيها قريحتها، أشارت بأصبعها إلى صورة مقام الحسين المعلقة على جدار المأتم، وارتجلت:

- **على ضريح حسين أفادي طاير**
أريد أزور حسين شيخ العشاير.

وأعلنت للعائلة أن السيدة فاطمة الزهراء زارتها في الرؤيا، وأوصتها بزيارة ابنها الحسين في كربلاء.

رفض الحاج عبدعلي السفر معها إلى العراق، ليس مقتنعًا بالمعجزة، يخشى سخرية متعلمي الحي ورفاقه السابقين، القوميين العرب الذين ما عاد يفهمهم بعد أن قرأوا ماركس ولينين، لكنه أخفى ذلك وتذرع بالحرب في العراق:

- لن أسافر إلى بلد تسقط عليه صواريخ مجنونة؟

- لخاطر الله! ماذا قلت؟

صاحت زوجته في غضبة من غضباتها التاريخية، وهي في حقيقتها صرخة ضد تضامنه مع العراق في حربه مع إيران، لأنها والأولاد كلهم يناصرون الجمهورية الإسلامية، ويلعنون نظام البعث كل حين. عيّرته أنه ليس في روعة أبيها الراحل الذي حجّت معه إلى مكة المكرمة، وصلّت معه عند قبر الرسول في المدينة المنورة، وحَرَم الإمام

الرضا في مشهد، وحَرَم الحسين في كربلاء، وحَرَم السيدة زينب بنت علي في دمشق، والمسجد الأقصى في القدس.

- لخاطر الله! يقول صواريخ مجنونة!

ظلت تستنكر لأيام، والبيت مضطرب بشحنات غضبها، الحديث يدور همسًا على مائدة الطعام، والأكل في صمت وترقب، والسيدة اللجوجة لم تستسلم، عيناها تتقدان غضبًا:

- سأسافر إلى العراق وحدي لو لزم الأمر!

-٢-

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

- أمي، أنا سأسافر معك إلى العراق!

هتف جواد، لا يطيق ما يفعله أبوه الذي لا يصدق معجزة المأتم، ولا رؤيا أمّه، ويناصر صدام حسين من دون أن يراعي مشاعر أولاده، ما عاد يحتمل سماعه يردد: القومية العربية موجودة قبل أن نؤمن بها، وستبقى حتى لو كفرنا بها. يكره ما يسرده أبوه عن مظالم العرب التاريخية، وتأسّيه على الثورة العربية الكبرى التي لم يبقَ منها سوى ألوان تلطخ الأعلام، وقوافٍ قديمة ينشدها مفاخرًا: بيض صنائعنا سود وقائعنا، خضر مرابعنا حمر مواضينا. يكره تعلقه بالرئيس جمال عبدالناصر، يكره سيرة اعتقاله وسجنه، يكره تبرمه بنكسة العرب، وتحسره على حلم الوحدة العربية الذي ضاع، وفلسطين التي أُغتصبت، وأسفه على مشروع رفاقه القوميين الذين تحول معظمهم إلى اليسار، ويكره شتيمته الدارجة: يهودي، التي يقذفها في وجه كل خسيس. يكره كل شيء قومي في أبيه، يكره حتى تاريخه معه، حين ابتعثه قبل عقد من الزمان لكي يدرس

الطب في مصر، يريد أن يصنع منه طبيبًا، وقوميًّا على شاكلته، يعتقد جواد أن الدراسة في الخارج حرمته أن يعيش ربيع بلاده السياسي، لما كُتب أول دستور، وانتخب الشعب أول مجلس نيابي، حدث ذلك بينما عاش هو في لهو القاهرة، بجنيهات قليلة ملك الليل والكباريهات، وأدمن دور السينما، وتسكع في الأندية، لكن وقائع عظيمة انتشلته من تلك الحياة، في البلاد حُلّ المجلس النيابي، في مصر وقّع السادات على سلام مع إسرائيل، وفي إيران قامت ثورة إسلامية اقتلعت النظام الشاهنشاهي.

جذبت جوادًا أفكارُ الثورة الإسلامية، ما عاد الغرب يحدد له ماهية الحداثة والتمدن، الموسيقى والأفلام والملاهي والأندية لم تعُد حياة راقية، بدا له عالمه مزيفًا، بلا معنى، بلا قيم إنسانية، ترك الدراسة في الجامعة، ورجع إلى الوطن مغمورًا بصحوة إسلامية اجتاحته مع شباب بحارنة، يصلون في المساجد بلا هوادة، لا تشغلهم الحياة عن راديو طهران الذي ينقل إليهم الفكر الشيعي من كلام منسي في بطون الكتب إلى مشروع ثوري، وهبُّوا يحيون سيَر الأئمة المعصومين بحماسة الثورة، وليس بفتور العادة، واسترجعوا ثورية الحسين في المآتم، وحولوا مواكب العزاء في محرم إلى احتجاجات غاضبة، صرخوا فيها ملء حناجرهم بأناشيد الثورة المظفرة: **النصر للإسلام والموت لأمريكا** مؤمنين أن الإمام المهدي المنتظر يسدد خطاهم.

ناصر الحاج عبدعلي الخميني لأنه عادى إسرائيل وأمريكا،

وسماها قوى الاستكبار والشيطان الأكبر، القوى نفسها التي حاربها القوميون العرب، لكنه سرعان ما أخذ ينتقد الجمهورية الإسلامية:

- لم تخلق العمامة للحكم!

وحاجَّه جواد:

- وهل خلقت قبعة جمال عبدالناصر العسكرية للحكم؟

انجذب جواد إلى كاريزما الخميني، ليس كمرجع ديني فحسب، وإنما كثائر معاصر، قرأ محاضراته عن **الحكومة الإسلامية**، وفتاواه في كتاب **تحرير الوسيلة**، وكتب أخرى وضعته في صميم تيار سياسي يؤمن بنظرية ولاية الفقيه، اقتنع بأنها فكرة ثورية، بديهية، لا تحتاج إلى إثبات، وما جعلها غريبة على أذهان المسلمين سوى قوى الاستعمار. أصبحت الثورة هي الحقيقة الساطعة في حياة جواد، حتى أنه صنّف كل شيء إلى ثوري وغير ثوري، أصدقاؤه الملتزمون ثوريون، غير الملتزمين تافهون، الكتب الدينية ثورية، الروايات والمجلات منحطة، الصحف التي تهاجم أمريكا ثورية، الأخرى عميلة، العمائم التي تناصر إيران ثورية، المتحفظة رجعية، التقشف هو أسلوب حياة ثوري، الترف هو إسراف الطواغيت، الوعي ثورة، والرياضة إلهاء للجماهير، سيارته القديمة ثورية، يغسلها له كل أسبوع شاب فقير، يقول جواد إنه ثوري رائع.

وللتكفير عن ذنوب ماضيه سافر جواد لدراسة الشريعة في قم، أغرته مكانة الشيخ جواد أكثر من الدكتور جواد، لكن الجمهورية

الإسلامية الفتية احتاجت إلى حملة البنادق لا الكتب، واقتنع الرجل بسهولة أن الثورة تعني الجهاد، فحمل السلاح، وقاتل في صفوف جيش إيران.

ورجع إلى السجن مباشرة، ثم خرج لينشر الدين في شكله الثوري، تبادل الأدوار مع أبيه، وبدل أن يحثه على الالتزام بالدين كما يفعل الآباء في العادة، يدعوه جواد أن يُظهر مظاهر التقوى، وينصحه بأن يكف عن الاستماع إلى الموسيقى، وحين رفض أن يرافق أمه إلى العراق، أعلن:

- أمي، سنطير إلى عمّان، ومنها إلى العراق، ولا خوف علينا.

السيدة حسينية جفلت:

- جواد، لخاطر الله، أنت لا! لو عرف زلم صدام أنك حاربت ضدهم، فلن تخرج من العراق أبدًا.

-٣-

- أمي، أنا سأسافر معك.

تدخل عباس لينقذ الجميع، أمه لكي لا تفقد ماء وجهها، أبوه لكي يعفيه من تعنته لمبادئه، وأخوه جواد من تهور سيأخذه إلى السجن، في العراق هذه المرة.

- أنت يا عباس؟ لا، ابقَ مع زوجتك وولدك!

قالت أمه، لكنه أقنعها وطار بها إلى عمّان، عبرا الحدود الأردنية في سيارة أجرة، وتوجها إلى كربلاء حيث تعلّقت السيدة حسينية بضريح الحسين، وغرقت في دموعها مثل طفلة، تأثرت الزائرات لمنظرها، ولما عرفن بمعجزة الماء انتشر خبرها في الحضرة الحسينية. قرويات من أهوار العراق تبركن بعباءتها، وكربلائيات لهن أصل علوي شريف دعونها إلى قراءة مصرع الحسين في مأتمهن، الأمر الذي أعاد إلى السيدة حسينية ذكرى الأمجاد الحسينية لعائلتها في المحمّرة. رجعا بعد أسبوع، ومشت السيدة حسينية في البيت يشع وجهها بنور الإيمان، وفي طرف عينيها نظرات معاتبة لزوجها:

- حرستنا عين الله، وبركة الإمام.

ملأت البيت بالحب الحسيني، وفي لحظة إلهام أنشدت:

من دون كل الأسامي

اسم أبو الزهرة للنبي العدناني

من دون كل الأسامي

يا محلا عبدالزهرة للولدان

أبيات ركيكة طبعت بها اسم عبدالزهراء للمولود.

واعترض الجد:

- اسم قديم! مثل اسمي عبدعلي الذي يعتقد أصدقائي السنة أنه يغالي في حب الإمام علي.

وصرخت الجدة في وجهه:

- لخاطر الله! لماذا لم تشرح لهم أن اسمك يعني أنك عبدًا للإمام علي، وليس عابدًا له؟

هز الجد رأسه موافقًا، ومستسلمًا. فرضت الجدة الاسم الذي تشتهيه، لكن أم المولود رباب، امتعضت همسًا أن اسم حسين أولى لابنها من عبدالزهراء، لأنها ولدته في السادس من محرم، غير أن الجدة استولى عليها الخدر اللذيذ الذي خلفته رؤيا فاطمة الزهراء، استغنت عن دفاترها القديمة، السجل الدقيق لتواريخ مواليد الأنبياء والأئمة ووفياتهم، والذي استعانت به في تسمية أبنائها. لم يتجاسر

عباس لإعلان تذمره، وصارت كنيته أبا عبدالزهراء، واستقر السلام في البيت، ولعل الأهل خافوا من حوبة تصيب الرضيع، لو خالفوا أوامر غيبية جاءت من السماء، فلم يجرؤ أحد أن يعلّق بشيء، حتى عندما تبين أن الجدار الدامع ليس سوى رطوبة تسربت من خزان الماء فوق سطح البيت.

حبا عبدالزهراء على أربع وتولع بلعب الكرة، ولما استوى على اثنتين أجاد ركلها، وذات ليلة صافية توهجت عيناه فرحًا لما رأى في السماء بدرًا، وأشار إليه بيده البضة، وهتف واللعاب يسيل من فمه: **كووة!** لم يسعفه لسانه أن يقول كرة. كانت أول كلمة خرجت من فمه، نطق بها قبل أن يلفظ ماما أو بابا، وكبر وركل كل هيئة دائرية صادفها، ركل مؤخرة أمه، وقدور جدته، وركل زينب ابنة عمته الرضيعة الملفوفة في قماط، ولما يبس عوده، صار يحمل كرته أينما ذهب، ويركلها كلما جاز له، حتى أن جدته عانت لكي تبعده عن مأتمها. ولما صار صبيًا، تناسى سنة المعجزة التي ولد فيها، يقول أصحابه إنه وُلد في زمن الدورة السادسة لكأس الخليج التي انسحب منها المنتخب العراقي بقرار من صدام.

-٤-

لن تنسى زهراء فظاظة أخيها جواد حين دفعها لكي ترتدي الحجاب، وإصراره على تزويجها برجال من معارفه، من دون أن يهتم ليفهم روحها كامرأة، وعارض بشدة الحرية التي تمتعت بها، تمشي في الحي بكعب عالٍ، وتنورات ميني جوب قصيرة، وشعر ممشط قسرًا إلى الخلف، يشبه تسريحة الممثلة سعاد حسني.

لم تصمد زهراء أمام موجة التدين العارمة، ولا الحجاب الذي انتشر في الحي، وصار سمة العصر ودليل صحوة، ويحمل ليس معاني الحشمة فقط، وإنما عزيمة الثورة التي تغلي في القلوب.

- تليق بك هيئة المرأة الثورية.

هنأها جواد لما تحجبت.

أبوها أدار وجهه عنها:

- لباس العجائز!

وعلّقت أمها:

- لخاطر الله!

وجدت الحجاب غريبًا، لأنها تلبس المشمر في البيت، والدراعة حين يزورهم الضيوف، والعباءة السوداء حين تذهب إلى السوق، وطبقتين من النقاب على وجهها، شفافة وقاتمة.

احتارت زهراء بين نماذج مختلفة من النساء حولها، لم تتأثر بأمها التقليدية، ولا أمل الشعبية زوجة أخيها جواد، ولا رباب المنقبة القروية، زوجة أخيها عباس، بل انبهرت بنموذج المرأة الإيرانية، التي تخرج في التظاهرات بين الرجال، ترفع قبضتها في الهواء غاضبة، واثقة بنفسها، تندد بالشاه، وتشتم أمريكا، فارتدت الحجاب على الطريقة الإيرانية، وغطت أسفل ذقنها.

تتذكر كيف طار أبوها فرحًا حين ارتفع علم فلسطين في قلب طهران، ونصيحته لهم في يوم لم تنسَه:

- أولادي، لا ينبغي عليكم بالضرورة أن تسيروا على دربي.

جواد الذي جرفه الغضب الثوري، لم يقدِّر نصيحة أبيه، ووجّه إليه اتهامًا خطيرًا:

- دربك؟ درب القوميين؟ إنه درب فاشل، جيلكم كله فاشل، بسببكم خسرنا فلسطين!

امتلأت عيناها بالدموع، لم تصدق أن ذلك الحكم الغاشم صدر عن أخيها، وتكررت النقاشات الحادة، والأحكام السافرة التي يطلقها جواد جزافًا، والأب يلوذ بالصمت، يفتش في زوايا عقله

عن رد يدافع به عن نفسه، وعن جيله. تراقب اللقاءات العائلية التي تنتهي بالمشادات الكلامية، ليس بين الابن وأبيه فقط، إنما بين الأخوين كذلك. عباس لم تباغته الصحوة الدينية، كان ملتزمًا، يعرف مذهبه جيدًا، يتبع الفقه الأخباري الذي لا يعترف بأية دولة تقوم في عهد الغيبة الكبرى للإمام المهدي، ولم يجد للجمهورية الإسلامية في إيران مسوغًا شرعيًا، على العكس من جواد الذي يؤمن بأن مستقبل المسلمين شيعي، وأن الثورة الإسلامية هي المخلص من الأمريكان الإمبرياليين، ومن السوفيت الملحدين، وانبهر بالخميني إلى حدود خرافية، حتى أنه صدّق قصصًا ادعت ظهور وجهه على صفحة القمر. بل اتهم أخاه عباس وشيوخه الأخباريين بالرجعية.

فأجابه عباس:

- لا أحد يملك عقلًا معصومًا، ولهذا أُمرنا بانتظار دولة الإمام المعصوم في آخر الزمان، ودولتكم يديرها رجال بعقول غير معصومة، لا حجة لها!

- هذا منطق العملاء وأعداء الجمهورية الإسلامية.

تلك الفكرة المنسية في بطون الكتب انفجرت مع اندلاع الثورة الإسلامية، وجعلت من الأخوين أعداء، الحاج عبدعلي اشمئز من ابنيه المتنازعين وأشار نحوهما بنزق:

- لا أدري أيهما سبّب لي قرفًا أكثر، أنتما أم الثورة؟

بينما نظرت السيدة حسينية إلى جواد:

- لخاطر الله، لا تفترِ على أخيك! اخزِ الشيطان يا ولدي!

وجدت زهراء نفسها بين أخوين متنافرين، بين تيارين مختلفين، لكنها انجذبت إلى جواد، رغم تشدده أقنعها بضرورة أن يجد الشيعة لأنفسهم مخرجًا شرعيًا لإقامة دولتهم الإسلامية، بهرها حين صرخ بكل ما أوتي من ثورة:

- إلى متى سيبقى الشيعة في طريق مسدود؟ إلى متى سنبقى متفرجين على أحداث التاريخ؟

اعتبرت زهراء تلك الأفكار عبقرية ثورية، في البداية صعب عليها أن تتخلى عن حياة منفتحة تعودت عليها، غير أنها سرعان ما نسيت سعاد حسني وصاحبت متدينات، لا يلفظن اسمها زهرة، كما يحلو للسان البحراني، إنما زهراء، تبجيلًا لصاحبة الاسم السيدة فاطمة الزهراء. وللتعويض عن تاريخها السابق بالغت في الصلوات بالمساجد، وقراءة الأدعية في المآتم، ترى عدم الرضا في عيني أبيها، وإعراضه عن حجابها، وعن الكتب التي تقرؤها للمفكرين الإيرانيين.

وضمن رجال عديدين جاء بهم جواد، وافقت على الزواج بعبدالأمير، بحراني من المنامة، سكنت معه في شقة، تبعد مئة متر عن بيت أبيها، كلما اقترح انتقالهما إلى بيت واسع ذي حديقة خارج المنامة القديمة، نثرت له دموعها:

- لا أستطيع أن أرحل عن الحي! روحي في المنامة!

***

لا تختلف سيرة خديجة عن سيرة أختها زهراء، فقد لبست الميني جوب مثلها، وعلقت صور سعاد حسني في غرفتها، لكن موجة التدين جرفت كل ذلك، ارتدت الحجاب وتزوجت بابن جارهم الأحسائي، زميل سابق لأبيها في شركة النفط، هدم بيته القديم في الحي، وبنى عمارة حديثة بشقق فسيحة لأبنائه الثلاثة.

أما صغرى الأخوات، فاطمة، فعملت ممرضة في المستشفى الحكومي، اشتهرت بابتسامة دائمة على وجهها، في روحها خفة جميلة، لكن نساء الحي يعتقدن أن في كثرة ضحكها شيئًا من بَلَه، كانت أكثر أخواتها جمالًا ورشاقةً، خطبها شاب من المنامة، أحبته من أعماق قلبها، لكن أخاها جواد رفضه، ليس لأنه غير ثوري فحسب، إنما لسوابق أهله في الشيوعية، ما يزال أهل الحي يتذكرون أخاه الذي يسخر من الشعائر الحسينية، أخاه الذي صافح في موكب الكفَّ النحاسية التي ترمز إلى كفي العباس بن علي المقطوعتين في كربلاء.

حطم جواد قلب أخته، وأعجب بنفسه في صورة الملتزم الذي لا تأخذه في الحق لومة لائم. تلك القصة هي الأمر الوحيد الذي يفسر به آل كاظم رفض فاطمة للشباب الذين يتقدمون إلى خطبتها، في البداية تعذرت بقلبها المكسور ورفضت رجل دين، ثم رفضت طيّارًا، ولما شارفت على الثلاثين رفضت عددًا لا بأس به من متزوجين، ثم تقدم إلى خطبتها أعزب ميسور من قرية بعيدة، وتوقعت العائلة أنها أخيرًا ستوافق، لأنه آخر قطار يمر بمحطتها،

إذا فاتها فإنها ستعيش عانسًا إلى الأبد، لكنها استنكرت بجملة اشتهرت بها:

- قروي! حلايلي! هذا الذي ناقص!

وعاشت في بيت أبيها، في غرفتها المقابلة للنخلتين، ترضي غرورها برفض رجال يتقدمون إلى خطبتها، وتدون أسماءهم في قائمة شرف خاصة بها.

الفصل الثاني

-١-

لم ترَ أمل في منظرها ما يعيب حتى دخلت بيت آل كاظم، وجوههم ناصعة البياض ورثوها عن حماتها المحمرية، أما هي فسمراء، وجنتاها عريضتان، قال الطبيب إنهما انتفختا جراء خلل وراثي في كرات دمها الحمراء، يصيبها منه نوبات، يرميها خرقة في الفراش، وبعينين صفراوين، مرض حرمها من الزواج بابن عم كانت مكتوبةً له، لأن الاثنين مصابان به، ما جعل والديهما يلغيان عقدًا شفهيًّا أبرماه منذ زمن بعيد، مذعنين لنصيحة العلم، وما ظهر في نتيجة فحص الدم لِما قبل الزواج.

انتقلت من بيت أبيها إلى بيت آل كاظم في الحي نفسه، والذي يقع عند التقاء شارعي عمار ابن ياسر مع موسى بن نصير، أو تقاطع خميس، وخميس هذا بائع متجول عجوز، يهزج بأغانٍ شعبية، ويبيع حلويات رخيصة، رحل إلى ربه منذ زمن وما تزل الزاوية تعرف باسمه. بيت آل كاظم واسع، به غرف كثيرة، وهو نفسه مأتم، تحيي فيه الملاية حسينية المناسبات الدينية، تفرش الفناء بالسجاجيد،

وتغطي الجدران بقماش أسود، وتعلق أعلامًا مطرزة بأسماء الأئمة الاثني عشر المعصومين تحيط باسمي الرسول وابنته فاطمة الزهراء، وصورًا كبيرة الحجم لأضرحة الأئمة التي تتحرق دومًا إلى زيارتها.

لم تنَل أمل أي احتفاء في بيت حميها، تشعر بأنها أقل قدرًا من الجميع، ثمة تفضيل سافر لأنصاف السادة من أهل زوجها، أكلتها الغيرة لأنها لم تأتِ إلى الحياة برصيد عظيم مثلهم، ليست سليلة أنبياء، ولا حفيدة تجار لؤلؤ. ورغم أن زوجها ليس علويًّا أعلى مراتب الشيعة قاطبة، ولد من أب سيد وأم سيدة، وليس سيدًا ولد من أب سيد وأم عامّية، إلا أن أهل الحي ينادونه ميرزا، لأن أمّه سيدة وأبوه عامي، هي مرتبة أعلى من العامة، مقام لا بأس به، وليس من بحراني يشكك في نسبه اللامع، ويمكن للعارفين أن يجدوا اسمه في **شجرة النسب العلوية والأسرة العلوانية البحرانية**، الكتاب الذي ألفه السيد علوان والد حسينية، وسافر من أجله لجمع نثار العائلة في المحمرة والكويت والبحرين.

أولاد المحمرية، أحفاد الرسول هؤلاء، يتقدمون الدخول من الأبواب، وتفاخر حسينية أمام أمل أن زوجها لا يمر أبدًا من ناحية رأسها عندما تكون نائمة، كرامة لها كسيدة، وذلك وصية من أبيه الحاج كاظم الذي يحفظ لبني هاشم مقامًا عاليًا. ثمة إجلال مبالغ فيه لكل ما تقوم به السيدة حسينية، وما قام به أبوها الملا السيد علوان، وأجدادها لأمها في المحمرة، قوم يأتيهم الرزق من إحياء أمر الحسين، كتابةً وخطابةً، بينما تعيش أمل في داخلها مرارة

الشعور بأنها من عالم أقل شأنًا من آل كاظم، ليست سوى بحرانية، عامية، سمراء، ابنة قصّاب، وبعاهة مرض وراثي قاتل. ورغم حذر الجميع، تلمحُ أمل الاستصغار المخفي بين الكلمات، والذي لا بد أن حماها عانى منه كذلك، ليس لأنه عامي النسب فحسب، وإنما لأنه حين كتب الشعر، وكانت أبياتًا قليلة نظمها في رثاء جمال عبد الناصر، لامته السيدة حسينية:

- الحسين أولى به!

وكأن الشعر لم يخلق إلا للحسين.

أهل الحي معتدون بأصلهم البحراني، ينظرون بدونية إلى العجم والأحسائيين والمحمريين، لكنها وجدت الأمور معكوسة في بيت آل كاظم، فحماتها تعيب كل ما هو بحراني، تسخر من لسانها، لأنها تلفظ الثاء فاءً، وتقول للأظفر عضفور، وللحبر إحبر، وللعنب إعنب. وعلى العكس؛ تمتدح السيدة حسينية لهجة المحمريين، وقراءتهم الحسينية، وقصائدهم، وأطوارهم، وتعتقد أن مربى الترنج لا يجيد صنعه إلا المحمريون، وتدعي أن نهر كارون الذي يشق المحمرة ورد في الكتب القديمة، وأنه أحد أنهار جنات عدن.

رأت أمل كيف أن للسيدة حسينية ألقابًا كثيرة، يدعوها أهل الحي: السيدة، والملاية، وأم جواد، وأم ميرزا، ولما نطق الأحفاد صاروا ينادونها بيبي، مفردة لا أحد يعرف من أين جاءت، يقال إنها فارسية، ولعلها هندية تعني ربة البيت المحترمة، غير أن أكثر ما

تباهي به السيدة حسينية هو لقب المحمّرية، لأنها وُلدت في المحمرة، في مأتم أمها على وجه التحديد، وختمت القرآن على يد والدها الملا، وعاشت الحزن الشيعي منذ بداية وعيها، كتبت الشعر، وألّفت القصص الكربلائية.

هي سيدة رقيقة، يمكن أن تبكي مثل طفلة تائهة، لكنها قادرة في الوقت نفسه على ملء البيت مرحًا، أو نكدًا، تقدمت في العمر ولم تزَل في كامل ألقها، نصبت في بيتها مدرسة لتعليم القرآن، ومأتمًا للحسين تقرأ فيه روايات من ذاكرة المذهب المترسخة في مخيلتها. الحزن على الحسين أسلوب حياتها، تسير فيه بكل ما أوتيت من عزم، حتى أنه لم يترك لها سوى قليل من سرور. في محرم، تفصح عن روح لها مهابة عظيمة، تربط جبهتها بعصابة سوداء، ويظلم البيت حدادًا على الحسين، بنظرات التأنيب القاسية تحظر على الجميع أن يبتسموا، أو يمضغوا علكة، أو يشاهدوا التلفزيون، أو يتسلوا بأي مرح، حتى زوجها توبخه إذا ما استمع إلى الراديو.

بارعة في استعادة ملحمة كربلاء، تحمل دفاترها وتجوب بها مآتم النساء في المنامة، تنشد قصائد من تأليفها، تقرأ روايات متخيلة لحوادث جرت في ساعات المعركة القليلة، من دون أن تهتم بمصداقية التاريخ، لا تكترث بحقيقة كم من الرجال قتل العباس بن علي، عشرة، مئة، أو ألف، ما يشغل بالها هو رفعة الهاشميين، وإظهار أخلاقهم في أعلى منزلة. تسرد قصص نساء كربلاء بألفة بالغة، وباهتمام دقيق لمشاعرهن، كما لو أنها عاشت معهن عمرًا. لا

تذكر ما قاله والي الكوفة إلى رسول الحسين، أو ما كتبه الحسين إلى الخليفة في دمشق، إنما تصف المعركة بعين أم عطوف، يسيل دمعها غزيرًا لأن الرباب زوجة الحسين جف حليب صدرها بسبب العطش، ولأن سُكينة بنت الحسين جرّها جندي بخمارها وانكشف شعرها، ولأن القاسم رجعوا به من المعركة بلا روح، وبفردة نعل واحدة في قدمه. تنتحب بلوعة في أداء يجعل من المذبحة حدثًا طازجًا، وطالما كررت في أشعارها: بدأت معركة كربلاء قبل أربعة عشر قرنًا، لكننا سنبقى نحارب فيها طوال حياتنا.

اشتهرت في المنامة بلهجة عراقية مميزة، لا سيما عبارتها العذبة: لخاطر الله، دعاء تقوله للتوسّل والتذمّر والاستنكار، وحتى للفرح، وربما لتفصح عن هويتها المحمرية. من يستمع إلى قراءتها الحسينية لا يستطيع كبح دموعه، حتى أنها في قمة مجدها حسبت نفسها ابنة دجلة، وما من شك أن لسانها أقرب إلى نطق العربية بمخارج صوتية سليمة، وأن لمفرداتها أصل فصيح، لكن سحرها يكمن في لهجتها العراقية المحببة، لأنها لهجة أوفى للحزن.

لكل ملاية أسلوبها الخاص في الخطابة، واشتهرت السيدة حسينية بحنجرة فولاذية، وبحة استقرت في صوتها من كثرة النواح، تبكي بطريقة متفردة، تنتحب وتهز رأسها يمنة ويسرة مولولة، ويقلدنها نساء الحي معتقدات أنها طريقة الحزن المثلى، نهج العراقيات محترفات البكاء. تؤمن السيدة حسينية بأنه من العبث أن تهدر دموعها على توافه الحياة، فالأجدر بها أن تذرفها على الحسين،

حين تضحك وتطفر من عينيها دموع الفرح رغمًا عنها، سرعان ما تستغفر، وتردد: كثرة الضحك تميت القلب، وتكبح ضحكها ليبقى قلبها حيًّا، منتعشًا بالحزن.

ما أكثر ما أخبرت بأن السيدة فاطمة الزهراء ظهرت لها في الرؤيا، حتى أن أمل ظنت أن حفيدة الرسول تقيم بينهم في البيت، وتستغرب أن هذه القصص تبهج الأولاد، وتملأ أرواحهم بحماسة دينية متوقدة، رغم أنها قصص تتكرر.

ليست أمل جاحدة، تعترف بأن حماتها دعتها إلى عالم الملايات الناشئات، شابات يتعلمن منها قراءة الحديث، والقصيد، والرواية، بعضهن أجدن النعي، أصعب فنون الخطابة الحسينية، واستطعن أن يواجهن جمهور الباكيات، لكنها تعرف أنها لم تخلق لتكون ملاية، ليست من ذوي النسب العلوي العالي، الذين يحفظون الشعر بالسهولة التي يتنفسون بها، لا تحفظ من القرآن سوى سور قصيرة تتلوها في صلواتها، لذا تكتفي بالانشغال بالعمل في البيت، تكنس وتطبخ من دون أن تشتكي، تعتني بزوجها، تقص أظافره، وتشذب لحيته، بدافع حبها الأنثوي، وواجب الدين. في محرم، تزداد أعباؤها، تطبخ عيش الحسين، تصنع الشاي والقهوة، وتحضّر التبغ، مهام تتفاني للقيام بها، وتمتلئ حين تناديها حماتها بخادمة الحسين، لكن التعب ينال منها أحيانًا، وتتذمر في سرّها حين يتحول البيت إلى ملجأ للعجائز، اللاتي يأتين من كل حي للبكاء على الحسين.

-٢-

يخبط الحاج عبدعلي بعكازه على أسفلت الأزقّة، في يده الأخرى يتأرجح صادق فرحًا في متاهة الأسواق، وهو يسمع منه تاريخ المنامة، يفهم أو لا يفهم تحسُّره على عز آبائه التجار، يلعن اليابانيين لأنهم زرعوا اللؤلؤ في بطون المحار، وقضوا على تجارته. يقول الجد إن العجم هم أعداء العهد القديم، أنصار شاه إيران، الخصم اللدود لجمال عبدالناصر، أما اليهود فيدير وجهه عنهم، لا يستطيع أن يبتسم في وجوههم!

- لماذا؟

يسأل صادق:

- لأني أخجل من فلسطين.

- مَن فلسطين؟

- بلاد عربية اغتصبها الصهاينة.

- الصهاينة؟

- الكيان المغتصب!

- ......!

- لا يهم، ستفهم لاحقًا.

كلما كبر صادق علّمه الجد أنه عربي، من العيب أن يستخدم كلمات أجنبية، إذا قال روبية، وبّخه:

- قل مئة فلس!

ويشرح له أن الروبية هي العملة في أزمنة الإنجليز، لَمَّا كانت البلاد محمية بريطانية، تستخدم نقودًا تصدرها حكومة الهند البريطانية.

كلما كبر صادق علمه الجد ما هو الوطن، يشير إلى النقش على عملة البلاد:

- انظر إلى نخلتنا الخالدة! رمز بلادنا.

والرمز فكرة صعبة الفهم على إدراكه.

كلما كبر صادق زاد الجد في مصروفه، بعد عملة المئة فلس التي يطير بها، يشتري حلوى من دكّانة الحلواچي، أو سمبوسة من دكّانة الهنود، صار يحصل على نوط الدينار ويدخل به دكّانة الحي كما لو كان سلطانًا. كلما كبر صادق حاجاه الجد بألغاز يثير بها عقله الغض. في أول أحاجيه أخفى شيئًا في كفه، ورقّص حاجبيه:

- أخضر في السوق، أحمر في يد أمك؟

احتار صادق يفكر، نظر حوله إلى بضائع مكومة بعضها فوق بعض. حتى فتح الجد أصابعه مفرجًا عن حفنة مسحوق أخضر:

- حنّة!

أجابه وضربه على رقبته بحنان وتوالت الأحاجي والضربات، وعلمه أسماء بضائع الدكانة ومصادرها، الليمون الأسود من عُمان، واللبان من اليمن، والزعفران من إيران، والدارسين من الهند، والتمر من الأحساء، والبخور من كمبوديا، والتين المجفف من لبنان، وماء الورد من قرى البلاد.

كلما كبر صادق امتدح الجد نباهته، وأغراه ليتعلم الكتابة قبل أن يدخل المدرسة.

- خمسة أحياء يجرون ميتًا، وميتهم يحكي وهن سكوت؟

وانفلتت أجوبة صادق بلا ضابط، ولما وضع الجد القلم في يده، توسّعت عيناه دهشةً، وبدا له قلم الرصاص أداة سحرية، أكثر الأشياء فتنة في العالم. وتعلم أن يرسم أشكال الأرقام، وأن يقيّد مبالغ المدفوعات في دفتر المحاسبة الكبير، رسمها بأصابع تنتفض، وخط غير متقن، لكن القلم سرعان ما أخذ مكانه الصحيح، ثم تعلم رسم الحروف، ملأ العشرات منها في الدفاتر، في البداية بخطوط مستهترة، ومع الوقت اصطفَّت حروفه في كلمات مرتبة.

كلما كبر صادق، قرأ عليه الجد قصص سندباد وعلاء الدين،

وعلمه ركوب الدراجة، ولعبة الدامنة، والشطرنج، وعلمه اصطياد السمك، بجانب المرفأ القديم، سأله عند غروب:

- ما لون البحر؟

انشرحت أسارير صادق:

- أبيض! لا، لا، ... أزرق! لا، ... برتقالي؟

كمم الجد فمه بيده كيلا تنفلت منه ضحكة، ثم غرف من ماء البحر في كفه:

- الماء عديم اللون.

وضرب صادق على رقبته الضربة الودودة المعهودة.

-٣-

تقول أمل إن زوجها جواد لا يهتم بابنه صادق كما ينبغي، لكن جدّه يبالغ في تدليله، يشتري له دراجات هوائية تناسبه، يأخذه إلى إستديو التصوير، ويعلق صوره في غرفته في إطار دائري، في شهر رمضان يصطحبه عند الغروب إلى المدفع عند المرفأ القديم، وتبقى دهشة الانفجار في عينيه حتى ينام، وفي الأعياد يصطحبه إلى السيرك، ويرجع ليحكي لأمه عن المهرج الذي يُخرج الأرانب من جيبه. صار صادق يقلد الكبار، يرش على ثيابه من عطر جده، ويطلب أن يكحل له عينيه، ويتناول معه خبز العجم طازجًا مع الحليب الدافئ، ويأكل معه الأرز بأصابع يده، يرتدي غترته ويقلد كيف يستر بها شواغر بين أسنانه الأمامية حين يضحك. يثيره عكازه من خشب الساج المنحوت على هيئة رأس أسد، ويشرح له الجد أنه رمز لأسد الله، الإمام علي الذي يستعين به ويقرأ أدعيته الباهرة عند الشدائد. بصفته أول حفيد في العائلة، نال صادق حب خمس نساء، أمه أمل وجدته حسينية وعماته، لكن جدته حسينية

كانت الوحيدة التي تشرق بريقها إذا ذكرت اسمه، ولا تنطقه إلا بدعاء يحرسه: شر عنه صادق.

يحدث ذلك بينما أبو صادق غائب، وإذا حضر فبجسده فقط، وبابتسامة متوترة، يبقي نفسه على مسافة من الجميع، بعد أن كثرت أسراره، حين يكلم زوجته يبدي انزعاجًا، واستعجالًا، إيماءاته تمنحها الانطباع أنه يضيع وقته الثمين. لم تسمعه قط يتحدث عن أصدقاء، لا صحبة عنده سوى رفقاء العمل السياسي، ولا يبالي بعمره يصرفه في السجن أو خارجه.

- أن يكون المرء عادلًا هو أهم شيء في الحياة.

يردد على مائدة الطعام، وتقول أمل:

- تزوّج أبو صادق القضية.

الزواج الذي بدأ متقدًا صار فاترًا، اشتكت أمل أن زوجها لا يسمعها لأنه غير موجود، تحتج على غيابه المتكرر، وأن أحدًا لا يعيرها أي اهتمام، يسمعها صادق تنفِّس عن روحها، لكنها لا تجروء على ذلك أمام حماتها. بينما قلبها يقرصها أن أمرأة تشغل باله، قلبها لايخطئ في هكذا أمور، هجست تغيرًا في طبعه، خاصةً حين تمرض ولا يلحظ شحوب وجهها، أو اصفرار عينيها. قررت مواجهته، قالت إن له زوجة في السر فأنكر، رغم أنها تشم في ثيابه رائحة امرأة، ثم رأت على قميصه شعرة طويلة، فبكت، ولم تحتَجْ بعدها إلى اعترافه. لم تجد من يتعاطف معها في أسرة لا هم لها إلا

التباهي بتراث الحسين. وفي ليلة شتوية قارسة البرد، انتظرته في السرير بملابس فاتنة، وحين جاء مع نجمة الصباح، توضأ وانبرى يصلي، تألمت وسمعتها حماتها تتذمر بصوت مسموع، وتوقعت أن ينسحب جواد إلى فراشه، لكنه خرج من البيت غاضبًا.

-٤-

عاد جواد إلى البيت بعد أيام، لم يجد زوجته في غرفتها، كانت في المستشفى الحكومي، ممددة على سرير طبي، صفراء مثل ورقة شجر لوز في الخريف. قال الطبيب إنها تعاني إحدى نوبات مرضها المزمن بسبب الطقس البارد، لكن زهراء جاهرت:

- بل بسبب الغضب الذي يغلي في داخلها.

حين يزداد وجعها، يهرع صادق الذي اعتاد الجلوس بجوار سريرها، إلى الممرضة فتأتي لتحقنها بإبرة مدببة، تنام بعدها لمدة طويلة، وذات يوم طال نومها، هز صادق كتفها:

- ماما، استيقظي، استيقظي!

لكنها لم تتحرك، ركض إلى الممرضة التي فحصتها ثم غطت وجهها باللحاف. وحضر نساء آل كاظم على عجل، وحطمن جدران المستشفى بالصياح:

- ماتت صغيرة!

- رحلت قبل الأوان!

- من لهذا الصغير؟

حدّق صادق إلى وجوههن مذهولًا، لا يفهم ماذا يعني أن تموت أمه، ما زال يعتقد أنها ستصحو من نومها، ولم يبكِ إلا لأن جده احتضنه وبكى.

صلى على أمل قليلٌ من رجال الحي، حفروا قبرًا ووضعوها داخله، وعندها عرف صادق معنى الموت، أن ينام الإنسان تحت التراب إلى الأبد. أقامت جدته في مأتمها عزاءً فاجعًا، استعادت مَقَاتل شهداء كربلاء، وجرّت معشر النساء إلى النحيب والعويل، ولم يعرف صادق إذا ما كن يبكين على الحسين أم على أمه.

واظب جواد على اصطحاب صادق إلى المقبرة كل خميس، يسقيان القبر بالدموع وماء الورد، حتى انقطعت دموع جواد واستمر ماء الورد، ثم انقطع ماء الورد، ثم انقطعت الزيارات، وشاع في الحي أن جوادًا تزوج بعجمية، وأنه دخل بها قبل أن يتوفى اللهُ أمل. سمع صادق عماته يلمحن أن جواد عجّل بموتها وخاصمنه، وحين أنجبت فرشته بكرها، أسمته عمار، واصطلح الإخوة حول سماط طويل بسطوا عليه خروفًا مشويًا. كانت زوجة أبيه جميلة بالفعل، ربما أجمل من أمه بكثير، لكن صادق عرف ما سيحدث عند قبرها عندما تموت قبل أبيه.

- بابا، أريد محفظة.

- لماذا؟ لتحفظ فيها عيدية العيد؟

تجاهل مطلبه، لكن جده اشترى له محفظة فاخرة من جلد النعام، فوضع صادق داخلها صورة لأمه.

حلت زوجة أبيه محل أمه في غرفتها، ورأى أباه يلبي رغباتها صاغرًا، العمة زهراء استكبرت على أخيها وداعته تلك، الأخ الأكبر الذي وقف على حياتها كجبار مخيف، صار منصاعًا لفرشته، متغاضيًّا عن صرامته في حشمتها، يسمح لها أن تترك شعرها يتدلى من تحت حجابها.

أمسى صادق ينام وحده في غرفة، وعرف الخوف من الظلمة، والليل الزاخر بالأصوات الموحشة، والأشباح المتطايرة، والقطط الخرافية التي تهبط من سطح البيت، تقول الجدة إن السوداء منها مسكونة بالجن، فصار صادق يفزع لرؤيتها، يخيفه مواؤها، ومشيها مختالة في الظلام، تبرق الأنوار في أعينها.

في ليالي الشتاء الباردة، حين يغيب القمر عن السماء، ويحل ظلام دامس في أرجاء البيت، وتهب الريح في الفناء، وتعبث بسعف النخلتين، يتخيل صادق كربلاء التي يشعر بأنها تسكن البيت معهم، ها هي أرواحها تُبعث من دفاتر جدته القديمة، يتخيل هيئاتها من لوحات هائلة تعرض في الشوارع، ومن تمثيليات يشاهدها في محرم، الحسين في هالة من نور، سكينة تمسك بالقماش الأسود على جدار المأتم، وعلى عتبة المأتم تجلس زوجة الحسين، تحمل على كتفها ابنها الرضيع في يأس بعد أن جفّ حليب صدرها جرّاء العطش، وزينب

ترفع يديها إلى السماء تتضرع، وقد ربطت -مثل جدته- جبهتها بعصابة سوداء. وتلك أرواح وديعة، ويتخيل شبح شمر ابن ذي الجوشن، قاسي القلب الذي قطع رأس الحسين، يتخيله ينهض من سباته لينتقم من النائمين، يبحث عنهم في أنحاء البيت، يدور حول النخلتين، يصعد عتبات الدرج وابتسامة إبليس تملأ وجهه، والقطط في مواء ملتاع، يدخل غرفة صادق المنكمش في فراشه مثل قريدس، يغمض عينيه بقوة كيلا يراه، لكنه يشعر بهسيسه يحوم حول سريره، يملأ الغرفة بأنفاسه الكريهة، ويحرك الهواء، وحين يختلس نظرة خاطفة من تحت لحافه يرى الستارة ترجف. وفي الصباح تتزاحم الصور المشوشة في عقله، ويخبر جده عن كوابيسه.

-٥-

لن يستوعب صادق درس كربلاء في مأتم النساء، قال الحاج عبدعلي واصطحبه إلى مأتم الرجال، أجلسه بجانبه على يمين المنبر، ولما بدأ الخطيب خطبته طأطأ المستمعون رؤوسهم واهتزت أجسادهم.

- لماذا يضحكون؟

سأله صادق مبهوتًا، بينما همس جده في أذنه أنهم لا يضحكون، أراد أن يعلمه الدرس مبكرًا، وأن الحسين يسبق كل شيء في الحياة.

- هل تعرف من هو الحسين؟ اسمه موجود في كل بيت شيعي.

تمتم صادق بأسماء أفراد العائلة، ثم وشوش:

- لا يوجد اسم الحسين في عائلتنا!

- جدتك بيبي اسمها حسينية، اسم اخترعناه للنساء من فرط حبنا للحسين.

توغل الخطيب في كربلاء، نعى شهداء سقطوا مضرجين بدمائهم،

تاركين الحسين وحده في ساحة المعركة، وبكى المستمعون ثم تجاوزوا البكاء إلى النحيب والنشيج والعويل شفيعهم يوم الدين. وحين ناح الخطيب منشدًا:

يا نازلين بكربلاء هل عندكم،

خبرٌ بقتلانا وما أعلامها؟

أصابتهم هستيريا البكاء، أصواتهم ترتجف بالسلام على الحسين، حلوقهم غصت بالدموع.

راقب صادق بفضوله الطفولي نحيبهم، حتى بعد أن نزل الخطيب عن المنبر، التفت نحو جده بعينين مغرورقتين:

- جدي، تصيح؟

- نعم أصيح، أبكي على الحسين.

أجابه، ليس ينكر أنه بكّاء راسخ مثل قومه الذين يتمتعون بسهولة الدمعة وسرعتها.

أشار صادق إلى عجوز أخذه البكاء في تنهدات طويلة:

- إنه يبكي مثل طفل!

- لأن البكاء يجعل من البشر أطفالًا.

التفت صادق إلى بكّاء آخر أعمى ذهب لون عينيه:

- ذاك الرجل أعمى!

- لكنه يستطيع أن يذرف الدموع مثل المبصرين.

ولم يملك سوى أن يصيح، أصابته عدوى البكاء في ذلك المحضر من المناحة العظيمة.

- إذا بكيت رأينا رقة قلبك.

قال جدّه يعلمه فن البكاء:

- وحدهم ذوو القلوب المتحجرة لا يبكون.

فهم صادق الدرس، وما عاد يراقب البكائين في المأتم، إنما سواهم، يشير إلى اليتيم جعفر، ابن جارتهم مربية القطط، لأنه لا يستطيع ذرف الدموع، يشد ثوب جدّه:

- انظر إليه! إنه لا يصيح، يتصنعه فقط، يعصر عينيه من دون أن تسقط منها دمعة واحدة!

وجعفر بالفعل لا يبكي، لا دموع على وجهه، يجاهد ليقلد الكبار، ليصرف عن نفسه عار أنه لا يبكي في ليلة العاشر من محرم، ليلة الحزن الكبير، التي يصيح فيها الجميع وينتحبون.

منذ تفتح وعيه، أدرك صادق الحزن الذي يعيشونه، حزن لم تروضه أربعة عشر قرنًا مرّت، البكاء الذي يتوارثونه، هنا في عائلته حيث لم يسمع قط: كن رجلًا، لا تبكِ! هنا البكاء ليس من شيم النساء، لا يزدرونه ولا يسخرون منه، إنه شأن مألوف، وعادي، بل هو ذو قيمة روحية مرتبطة بالدين.

تعلم صادق البكاء على الحسين قبل أن يتعلم القراءة، وتعلم أن الدموع ولاء يعبر الأزمنة، وأن الشهادة ليست موتًا بل انتصارًا، مسألة قبِلها مع العادات التي تشرَّبها من حياة المأتم، وجدته الملاية التي تذكره كل حين بأنه عضو في حزب الحسين.

نشأ صادق في كنف الحاج عبدعلي، الوحيد في بيت آل كاظم الذي يجرؤ على معارضة الأفكار القادمة من إيران، الأفكار التي حرّمت الموسيقى والشطرنج وأمورًا كان يمارسها دون شعور بالإثم، إذ ظل يستمع إلى ما يبثه الراديو من أغانٍ، ويتابع برنامجه أخبار جهينة في إذاعة الكويت، يتحرّى أخبار العالم من إذاعة البي بي سي، وقبل نومه يقلّب في كتاب «ألف ليلة» بمزاج مراهق ذكي الغريزة. بينما تردد جدته وأبوه أن الموسيقى رجس من الشيطان، حتى عماته لا يفتحن جهاز المسجل إلا للاستماع إلى الدعاة أو المقرئين العراقيين يسردون ملحمة كربلاء ولا يبدلن إذاعة الراديو عن طهران، التي صارت طريقهن إلى ثقافة العصر، بما تبثه من أناشيد ثورية حماسية، وأهازيج فارسية مطعمة بالعربية حفظها أهل المنامة عن ظهر قلب، يهتفون بها في المواكب الحسينية في محرم: **لا شرقية لا غربية، جمهورية إسلامية**، ينشدها في مكبرات الصوت رواديد بحارنة، عرب أقحاح يلوون ألسنتهم من أجل عجمة فارسية رائجة، بعدما صار مزاج الزمن إيرانيًّا! يستلب نفوس الشباب، والأطفال، حفيدتا الحاج عبدعلي الصغيرتان، زينب وفضيلة، حفظتا تلك الأناشيد ورددتها كالببغاوات من دون أن تفهما معانيها، فضيلة التي ظل لسانها مختلًّا

حتى سن متقدمة، تنشدها على طريقتها: **لا شلقية لا غلبية جمهولية سلامية.**

الفصل الثالث

-١-

انتقل جواد مع زوجته فرشته وطفله عمار إلى شقة في المنامة، وبقي صادق في عهدة جده، لكنه حاصره في حياة متدينة صارمة، وحظر عليه كل ما يشغله عن واجباته الدينية، ويقول لائمًا أباه:

- يا حاج، لن يحقق هذا الولد شيئًا ما دمت تربيه على أخلاق غير إسلامية.

عاب عليه أنه يسمعه موسيقى مذياعه، ولعبة الدامنة، بدلًا من تعليمه الصلاة، وقراءة قصص السندباد بدلًا من القرآن. بينما لم يكلف الجد نفسه عناء الرد.

قرر الجد تسجيل حفيده في المدرسة الحكومية، حين بلغ السادسة بحسب شهادة ميلاد مدموغة بأختام وزارة الصحة، ومن جديد شَجَرَ بينه وبين حسينية الإشكال القديم الذي شغلهما قبل عهد بعيد، حين أصرّتْ زوجته أن الدين ليس مسألة يتعلمها الأولاد في مدارس حكومية، بل في كتاتيب القرآن والحوزات ليأخذوا علوم الدين حسب الفقه الجعفري. ساومته أن يذهب جواد وعباس

إلى مدارس حكومية ليحصلا على وظائف معتبرة، بينما تقوم هي بتعليم البنات، زهراء وخديجة وفاطمة. لكن الأولى افتتنت بمريول المدرسة الرصاصي للمدرسة الذي اشتراه أبوها، فتركت كراسات أمها إلى كتب المدرسة الحكومية. ولحقت بها أختاها خديجة وفاطمة، وصرن يذهبن إلى المدرسة بلا حجاب ولا عباءة، مثل معظم بنات المنامة، حتى عندما ظهرت على أجسادهن علامات الأنوثة تاليًا، لبسن تنانير الميني جوب القصيرة.

لم يمر الأمر يسيرًا على السيدة حسينية ابنة الملالي، لكن زوجها المؤمن بمُثل جيله ملأ البيت بصوته العالي، فاستخدم سلطته كرجل شرقي من أجل قيم تقدمية. حتى تغيرت الأمور بعد الموجة الإسلامية التي اجتاحت البلاد، ونالت من أولاده أنفسهم.

رضخ الجد لفكرة تعليم حفيديه صادق وعبدالزهراء على يد زوجته، وكان من الذكاء أن أبدى حماسة للأمر:

- لا بد من دور أكبر للبيت في تعليم الأولاد.

وتابع بالحماسة نفسها:

- اختلاط الفتيان والفتيات في دروس الملايات أكثر حداثة من التعليم الحكومي غير المختلط.

انتفضت السيدة حسينية حين سمعت الملاحظة التي لم تخطر ببالها، وسمعتها العائلة لاحقًا تكررها لسيدات الحي كما لو أنها من صميم أفكارها، وأضافت إليها من نبوغها:

- نحن الملايات نعلّم الأخلاق قبل العلم.

في أول يوم مدرسي، أمسك الجد بيد صادق كعادته، وسار به إلى مدرسة أبو بكر الصديق الابتدائية للبنين، على شارع عيسى الكبير، الشارع نفسه الذي تقع عليه مقبرة السُنّة، ومدرسة الإمام علي، وكنيسة سانت كريستوفر الإنجيليكية، وكنيسة القلب المقدس الكاثوليكية، والكنيسة الإنجيلية الوطنية، ومستشفى الإرسالية الأمريكية، ومقبرة الحورة للشيعة.

أشار الجد إلى حفر بارز على بوابة المدرسة، يقول إنها افتتحت عام ١٩٣٢:

- هنا جلس البحارنة إلى جانب العرب في صف واحد، وبدأت سيرة الأمة، هنا تعلم جدك، وأبوك، وهنا ستتعلم.

وسيدرك صادق بعد سنوات أن ما قصده جده هو تلك المحطة الرائعة التي تحوّل فيها التعليم الأهلي، حيث يدرس أبناء السنة والشيعة في مدارس منفصلة، إلى حكومي موحد للجميع.

فرح صادق بكتب المدرسة، ووضعها بجانب سريره، بينما نبش الجد في صفحاتها بحثًا عن خريطة الوطن العربي، ولم يهنأ إلا حين وجد البحر مكتوبًا باسم الخليج العربي، وليس الفارسي، وعلّم صادق الفرق بين الاسمين. وحين علم جواد مصادفةً جادل أباه بأن العرب الأوائل ذكروا الخليج في كتبهم باسمه الفارسي، لكن شيئًا لم يغير قناعات أبيه.

-٢-

سحرت المدرسة صادقًا، عيناه مدهوشتان بالطبشورة، تملأ السبورة بالحروف والأرقام والخرائط، وما أسرع ما تكنسها الممحاة، لكنها تعود لرسم صور أخرى في درس جديد، في حصة تالية. أما الحروف فأصابه منها مس من جنون، يخربش اسمه على السبورة والجدران والأوراق، وتولع بالدفاتر وتجليدها ورائحة ورقها، وأعجبه الأستاذ جهاد، مدرس اللغة العربية، الفلسطيني ذو الشارب الكثيف، والقومي الآخر الذي يلعن اليهود كل حين مثل جده. في المدرسة يردد صادق وراءه:

- أنا عامر، أختي أمل، أبي حمد، أمي مريم، ...

وفي البيت يردد وراء جدته حسينية مع صبيان الحي وصباياه:

- أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ،...

يصرخون بأعلى أصواتهم ويسمعون الجيران:

- الألف لا شيلة، الباء نقطة من تحت، التاء نقطتين من فوق،...

يتهجى له جده عناوين الصحف، يشرح له رسومات الكاريكتير، يقرأ أخبار النزاعات في العراق وفلسطين ولبنان، ويكرر تعابير شائعة لا يفهمها صادق، البوابة الشرقية للوطن العربي، الاجتياح الصهيوني، مخيمات اللاجئين، قنابل النابالم، دبابات الميركافا. ذات يوم، مازحه بضربته المعتادة على رقبته:

- شيء يوجد في نهاية صادق، ما هو؟

استشاط صادق حماسةً كعادته كلما سمع لغزًا، تحسّس مكان الضربة:

- رقبتي؟ لا، ... لا، ... ظهري؟

ابتسم في خجل:

- مؤخرتي؟

ضحك جده حتى ظهر نابه الطويل:

- حرف القاف.

وصفق صادق جبهته، لم يصدق كيف فاته أن يعرف الجواب.

***

تعج المدرسة بصبية الحي الذين يتشاجر معهم عبدالزهراء على الدوام، العجم يسخرون من اسمه، ويعيّرونه: زهري، والبحارنة ينادونه: نايم أفندي، لأن عينه اليسرى تبدو ناعسة بسبب كسل في حاجبها العلوي، والسُنّة يسمونه: ولد الأنجليز، لأن بشرته بيضاء.

ولكي يتجنبهم اختار أقرب المقاعد إلى طاولة المدرس، وأجلس صادق بجانبه، لم يعرف أنها مقاعد مخصصة للمتفوقين.

لكنه سرعان ما وعى فداحة اختياره، وأطلق من تحت لسانه صفير استنكار:

- لن أجلس في الصف الأول!

وأخذ يزحف إلى الخلف صفًّا في كل عام، أما صادق فأغرم بدراسته، وبعد درس الإنجليزية الأول، سمعه الأهل يترنم:

- ماي نيم إز صادق.

جده الذي تظاهر ضد الإنجليز في شركة النفط، ويترصد كلام من حوله، اعتبر أن تعليم حفيده الإنجليزية في ذلك العمر المبكر أمر لا ينبغي السكوت عنه، وذكَّر أنه ما درس الإنجليزية إلا في مدرسة شركة النفط، فقط لكي يتعلم مبادئ المحاسبة، حتى أصبح محاسبًا في الشركة لمدة تجاوزت ثلاثين عامًا، لكن الإنجليزية لم تمسخ لسانه العربي.

اختلف معه أبو صادق، وتجادل الاثنان طويلًا دون فائدة، تقدم صادق في سنوات الابتدائية، وظل هاجس اللغة يؤرق جده، يقرأ عليه **كليلة ودمنة**، ويمده بقصص عن عظماء العرب وشعرائهم، يلتهمها صادق التهامًا، رغم أنها لم تكتب لمن في عمره، لكنها كانت بداية إصابته بشغف القراءة.

بينما تردد جدته:

- لخاطر الله، اقرأ كلام الله!

وأجبرته على حفظ المزيد من آيات القرآن، وقراءة الأدعية، دعاء كميل والندبة والجوشن، والروايات الحسينية، في محاولة لإيقاف زحف الإنجليزية.

قرأت عليه من قصائدها في الدفاتر القديمة، وأحب صادق شعرها لأنه فهمه بسهولة، ولأنه ينقله إلى زمن كربلاء.

- بيبي، لماذا لا يعلمنا الأستاذ جهاد مثل هذا الشعر؟

- يا ولدي، المدرسة تعلمك الشعر الفصيح الذي كُتب للمتعلمين فقط، أما شعرنا فهو للناس كلها.

سأله جده:

- بيت بلا أبواب ولا نوافذ؟

انتفض متأهبًا، يطمح أن يصيب ولو أحجية واحدة، فقد كبر كفاية ليدرك أن للأحجية عقدة، ينبغي أن يفكر فيها بعمق أكبر.

- بيت العنكبوت!

أجابه متأكدًا من صحة إجابته، فقد رأى صورًا لبيوت الحشرات في الموسوعة العلمية في المدرسة.

ودُهشت الجدة لفطنته، لكن الجد صفق رقبته:

- كلا، بيت الشعر.

وضحكوا جميعًا.

لم يعد ينجذب إلى عالم جده، لا أحاجيه ولا صحفه، إنما استلبه عالم جدته. وبخط غير متقن كتب على أوراق منزوعة من أحد دفاتره المدرسية قصة استشهاد القاسم بن الحسن في كربلاء، لاقت القصة استحسان أستاذه جهاد الذي قرأها على التلاميذ، ومادت الفرحة بصادق حين رأى كلماته مكتوبة بخط أستاذه نفسه، ومنشورة في مجلة الحائط.

وهتفت الجدة في سعادة:

- لخاطر الله! إنها دماء أجداده تجري في عروقه.

تلقفته بعنايتها كي يكون لها دور أكبر في تعليمه، قرأت عليه روايات حسينية حزينة، تثير جوارحه وتشعل في نفسه رغبة الكتابة، تبرر له أن البكاء هو اللحظة السابقة للإلهام، فيتخيل ضحايا كربلاء، يستنطق مشاعرهم ويتساءل: ما هي الكوابيس التي داهمت أطفال الحسين في تلك الليلة من محرم؟ هل تمكنوا من نسيان دماء آبائهم التي فارت أمام أعينهم؟

جده كان يصطياد أخطائه النحوية، يضيف اللام الشمسية التي يغفل عن كتابتها، لكنه لم يستطِع أن يعالج عاهة خطه المائل الذي لا يلتزم بالخطوط المسطورة.

سطّر صادق سير الشخصيات الكربلائية، سكينة والرباب والحر بن يزيد الرياحي وحبيب بن مظاهر الأسدي، وآخرين كتب سيرهم كما سمعها في المآتم، حريصًا أن تصطبغ بالحزن والأسى.

فاجأته جدته حين نسخت قصصه في دفاترها، وقرأتها على النساء في المآتم، وأذاعت اسمه وهي تحلم بأن تراه يومًا خطيبًا حسينيًّا مفوهًا، تتطلع إليه أعين الباكين بالدموع، وكثيرًا ما كانت تردد:

- لا دخل لي بموهبة صادق، لخاطر الله، الحسين هو الذي اختاره للكتابة.

وتتابع:

- ما خاب فيه اسم الإمام! حبيبي ملا صادق.

وحين سمع جدته تقول باكية بين النساء إن عليًّا هو أعظم الرجال، سأل جده محتارا:

- الحسين أعظم من النبي محمد؟

- الحسين هو أعظم شهيد في التاريخ.

ولمح في عيني جده تلك اللمعة التي يراها حين يلقي عليه الأحاجي، وشعر أنه ليس ما قصدته الجدة!

-٣-

بقيت السيدة حسينية مشدوهة في مكانها عندما شاهدت فلم الرسالة للمرة الأولى، ثم شاهدته عشرات المرات، كأنها تؤدي شعيرة دينية، وصار فلمها الأول والأخير، يشرق وجهها حين يظهر سيف ذو الفقار على الشاشة، وتتمتم من دون شعور:

- سلام الله على أمير المؤمنين!

وفي نهاية الفلم تنهار باكية حين تأتي وفاة الرسول ثم تتساءل من خلف دموعها:

- لخاطر الله، لماذا لم تمتد الأحداث إلى معركة كربلاء؟

تزور السيدة حسينية أضرحة رجال دين وملالي أفنوا أعمارهم على المنابر الحسينية، تقرأ الفاتحة على أرواحهم، وتتبرك بهم، تنذر لهم وتوجب على نفسها الصدقات، وفي إجازات الصيف تنظم زيارات إلى مقاماتهم في ربوع البلاد، تسبق نساء الحي وهن يصعدن الحافلة يحملن قدور الطعام، وقناني ماء الورد، ودلال الشاي، وما

تيسّر من نذور، ينشدن أغاني شعبية ويصفقن بينما صادق وعبد الزهرة يربطان نبلاتهما، متوعدين أعشاش العصافير.

وحين تدخل السيدة حسينية المقام، يتعلق قلبها بالولي صاحب المقام، تتبعها صاحبات الحاجات، عانس تنتظر الزواج، وزوجة تأخر حملها، حُبلى ترغب في صبي، أو أم تتوق إلى شفاء طفلها. يملأن جنبات المقام بالصلاة والبكاء على أهل البيت، بينما تقوم السيدة حسينية بقراءة سيرة أحد الأئمة الاثني عشر، لتستدر دموع النساء.

صادق وعبدالزهراء يركضان نحو البساتين، وخلفهما عصابة أطفال، يتسلقون سدرة نبق تتخذها العصافير أعشاشًا، يقفزون بثيابهم في عيون الماء، أو يقفون أمام أحد شلالات المياه المندفع من قصبة الآبار الإرتوازية، وحين يجوعون يلتقطون ما يتساقط على الأرض من ثمار النبق والتين واللوز. لا تخلو متعتهم من جرائم شنيعة، يلاحقون البلابل بالنبال، ويصطادون الضفادع ويعذبونها، ويحبسون الجنادب في علب بلاستيكية. في حين يراقبهم القرويون من بعيد، رجالهم سمر، سحناتهم قديمة، كأنهم نبتوا مع نخيل الجزيرة، أما النساء فيمشين في حرية مشامر ملونة، كأنهن في بيوتهن، يعبرن من غرفة إلى أخرى.

في طريق العودة، تربط السيدة حسينية على معصمي حفيديها خيوطًا خضراء من قماش المقام الذي شهد على آلاف الصلوات والأدعية، تقول في مزاج رائق:

- حروز تمنع عنكما الشرور.

ثم تنشد، وتهزج النساء وراءها:

أدينا نذرنا يا ربي يا جبار

نجنا من النار إبجاه أحمد المختار

وأبو الحسن ذخرنا

والزهرة الزكية في الحشر تشفع إلينا.

وهكذا ينال الحفيدان بركات التمائم من أضرحة البلاد ومقاماتها، العلّامة الموسوي في قرية بلاد القديم، والشيخ عزيز في قرية السهلة، والشيخ ميثم البحراني في الماحوز، وإبراهيم بن مالك الأشتر في قرية عسكر، ومقامات أخرى كثيرة.

في عيدي الفطر والأضحي، تعطر السيدة حسينية البيت بالأطايب، وتجمع أولادها وأحفادها ومصاهريها حول ولائم شهية، لكن عيدها الكبير يبقى في الثامن عشر من ذي الحجة، عيد الغدير حيث الخطبة التي ولى فيها الرسول الإمام علي من بعده. ولأن السيدة حسينية هي الوحيدة في بيت آل كاظم خالصة النسب الهاشمي، فأولادها أنصاف سادة، وأحفادها أرباع سادة، يصبح الغدير هو عيدها، تستعد له كما لو كان عيد ميلادها، تحف شعر وجهها، تصبغ شعرها بالحناء، وتكتحل وترتدي دراعتها المطرزة، وذهبها كله، وتستقبل نساء الحي.

- الحمد لله الذي جعلنا من المتمسكين بولاية علي أمير المؤمنين.

تقول لكل من دخل عليها المأتم، وتقرأ قصائد في مدح الإمام، تسقي الحاضرين حليبًا باردًا بنكهة ماء الورد في أكواب زجاجية ملونة تستخدمها خصوصًا لذلك اليوم. تسميه العيد الأخير، لأنها بعده تلبس الأسود استعدادًا لموسم الحزن المقدس.

***

- لن تستطيع إن تُبكي الناس من دون أن تعيش في صميم معركة كربلاء.

قالت لحفيدها وأخذته إلى الغرف الخلفية لمأتم بن كاظم، دخلت على شبان يتوسطهم صبي أبيض، كأنه دمية في أيديهم، يعدونه لتمثيلية. دفعت صادق أمامهم:

- لخاطر الله، خذوا حفيدي ليكون شبيه القاسم.

كان ينبغي لها أن تبتسم، لكنها في محرم، الشهر الذي تتجمد فيه مشاعرها.

لاحظوا بشرته السمراء وشعره الأجعد، وتبادلوا نظرات استفهام، إذ ينبغي على شبيه القاسم بن الحسن أن يكون جميلًا، فاتح البشرة، لكنهم اضطروا للموافقة، لأن جدته تملك تلك السلطة.

في المساء، كان مكبر الصوت في المأتم، يسرد قصة القاسم بن الحسن الذي زوّجه عمه الحسين بابنته سكينة عشية المعركة، وفاءً منه لأمنية كانت في قلب أخيه الحسن، لكن العريس استشهد قبل أن يدخل بزوجته. رغم البرد، تصبب صادق بالعرق، بينما الشبان

يعدونه خلف الكواليس لدور البطل الهاشمي، ألبسوه ثوبًا عربيًّا، ولفوا رأسه بعمامة خضراء، ثم رفعوه على فرس بيضاء كالحليب، يسترها مخمل أسود، وسرعان ما وجد صادق نفسه في الشارع، عند تقاطع خميس، يحمل سيفًا ثقيلًا، ومن خلفه شباب الحي يلطمون صدورهم. عبدالزهراء وضع يديه على رأسه، ولم يشاركه صادق اللطم على القاسم، لأنه صار القاسم نفسه.

غصت الشوارع بحشود المعزين، ومن فوق صهوة فرسه رأى بيارق ضخمة يحملها رجال أشداء، رأى رايات ترفرف بشعارات كربلاء، وخيول حرب ملطخة بالدم في تمثيليات مؤلمة، رأى جمالًا تتمايل بهوادجها، ومواكب تلطم تحسرًا على فقدان الإمام، رأى مواكب تضرب الظهور بالسلاسل، وفرقًا موسيقية تبث ألحانًا حزينة، رأى أعلامًا سوداء تخفق، لا عد لها ولا حصر.

هنالك خُيل إليه أنه هاشمي، وبجسارة، رفع السيف عاليًا، وأبدى صلابة وهو يتحمل الألم في ذراعه، بذل جهدًا خارقًا لكيلا يبتسم طوال المسيرة، فرسه من تحته تسير بين الحشود، تدق الأرض متهادية، والناس مخدرون بالمشهد، مأسورون بالحزن.

بالسيف المسلول في يده، أبكى صادق النساء في أطراف الشوارع، وناله الغرور جراء قدرته الباهرة، واكتشف ليلتها أن التمثيل يبكي الناس أفضل من القصص التي يكتبها. ترجّل القاسم عن الفرس، وتلقفته جدته:

- نحن ننصر الحسين بدموعنا.

وبمثل ذلك الضمير عاش صادق طفولته، واحتفظ بهذه الواقعة مثل حلم جميل، وتاليًا لم يسِر في مواكب عزاء إلا وشعر في داخله بأنه أمير هاشمي في لحظة استراحة. وظل شعور يساوره بأن بحارنة المنامة لا يزالون يحفظون له أنه ذاك الولد الأسمر، شبيه القاسم، الذي أبكى النساء في ليلة الثامن من محرم الباردة.

لزمت السيدة حسينية المأتم ولزمها، لم ينتبه أحد إلى أنها بلغت أيام شيخوختها إلا حين سقطت في سرير المرض، لكنها تجاوزت آلامها بصبر، تتأسى بمرارات نساء بيت النبوة، فتصبر على الألم بابتسامة وادعة على محياها:

- لخاطر الله! أريد أتوضأ، وأصلي، وأقرأ القرآن.

ملايات ناشئات أعلنّ أن ما جرى للسيدة حسينية في أيام مرضها كان كرامة لا تُمنح إلا للصالحات وخادمات أهل البيت، وأنها: لخاطر الله، جعلت الموت ينتظر أيامًا، عكفت فيها على ختام القران، وفي صباح اليوم التالي كانت إلى جوار ربها.

-٤-

صعدت روحها إلى السماء، وبقي جسدها ممددًا في غرفتها بسلام، شعرها الأصفر بلون الحناء منثور على الوسادة، عيناها شاخصتان إلى دفاترها التي خرجت منها الأشعار والقصص الحسينية الحزينة. هنالك وقف صادق جامدًا في فناء البيت، يقلب ناظريه بين غرفتها في الطابق الأول، وجده، يتعذب وهو يراه ينتحب من أعماق روحه، ويناجي نفسه مشدوهًا:

- ماتت السيدة في بلاد الغربة!

لام نفسه، لأنه جاء بها من المحمرة، وحب المحمرة يجري فيها مجرى النفس.

حفظ لها أهل الحي نصف دزينة من الألقاب، السيدة، أم ميرزا، أم جواد، المحمرية، بيبي، وخادمة الحسين، غير أنهم لم يهتموا ليعرفوا كم عمرها، إنها من أولئك البشر الذين يعيشون على نحو أسطوري، وحين يرحلون لا يهتم الناس بمعرفة أعمارهم.

صارت حياة الحاج عبدعلي خالية، لا أنيس فيها، وظل قلبه متوقدًا بحبها لا سيما حين يتأمل أولاده وأحفاده، ويكتشف أنهم جميعًا خرجوا من روحها المحمرية. صادق يقضي جل وقته وحيدًا في غرفته، لا يلعب مع جده الشطرنج أو الدامنة كما اعتادا، كانت روحه فارغة، وبينما انقطع عن الجميع في غرفته، ظلت عمته فاطمة تجسّر المسافة بينهما، وشيئًا فشيئًا انتقل إلى دفء حضنها. كان يشعر بها تخفي تعاسة فقدها، وشقاء عنوستها، وراء دموع سخية من أجله، وتتظاهر بحياة لا عذاب فيها، يشعر بمعاناتها، يراقبها بأسى تتفانى في رعايته كما لو أنه خرج من أحشائها، في محرم تجلب له ثياب الحداد، والأعلام الصغيرة، وتربط على جبهته عصابة تحمل شعار: **هيهات منا الذلّة**. ورغم ذلك شعر أن حماسته لعالم الحسين قد خمدت حين رحلت روح جدته، نسى الملا الذي خلقته فيه الراحلة، تجاوز تلك التجربة بالسرعة التي تطور فيها وعيه بنفسه، ساعده على ذلك القرار جده الذي لم يتخيله خطيبًا حسينيا، وأعلن عن أمنيته:

- سيرتدي صادق رداء الأطباء الأبيض.

الفصل الرابع

-١-

يدعوه الناس الحاج جواد، لأنه حج بيت الله في مكة، واكتسب النضج السياسي، ولم يعد ثوريًّا متعصبًا، بلحية شعثاء وبنطلون جينز. ذهبت أفكار التغيير في ذهنه إلى إسلام سياسي أكثر اعتدالًا، فقد رحل الخميني، وانتهت الحرب الإيرانية العراقية، ثم حلّت كارثة غزو الكويت، وتطلع الجميع إلى شيء من الديمقراطية في الخليج. في الكويت عادت الحياة الديمقراطية، وكان الحاج جواد مع نخبة سياسيين ممن طالبوا برجوعها، وانخرطوا في حركة شعبية كتبت عريضة. شباب ثوريون كتبوا على الجدران: البرلمان هو الحل، مقولة أمست شعارًا للمرحلة، وتأزمت الأوضاع، وانفلت العنف في الشوارع، وطالت الاعتقالات مناضلين، ووقف الحاج جواد يطالب بإطلاق سراحهم في مسجد مؤمن، وحينها اكتشف قدراته كخطيب مفوّه، واشتهر بين الناس معارضًا عتيدًا. رأى صادق جده يبكي وعرف أن أباه نُفي إلى لندن، لم يفتقده، لكنه بكى لبكاء جده، ولحالة الحزن التي اكتنفت بيت آل كاظم. انتهى ذلك

الزمن الذي يجتمع فيه أفراد العائلة حول المائدة، الجدة بأطباقها الساخنة، والحاج عبدعلي بتعليقاته الساخرة، وجواد بانتقاداته، والعمات يُجشِّئن الرضع على أكتافهن، بينما يثرثر عبدالزهراء عن كأس الخليج ونتائج المنتخبات، والطفلتان زينب وخديجة تقلدان سمت النساء في أحجبة صغيرة. ما عاد أحد يسرد قصة، أو يحكي نكتة، تبدلت الأمزجة وانكسرت النفوس.

- لا أخشى على نفسي الغربة، بل أخشى على صادق في وطنه.

يردد الحاج جواد في سماعة التليفون، عبارات الشعارات في خطبه السياسية، وقد قرّر أن تتكفل فرشته بأولادها، وترك صادق في رعاية جده الأرمل وعمته العانس، وصار أكثر قسوة في معاملته، كأنه يعوض غيابه عنه بالشدة في مكالمته الأسبوعية كل يوم جمعة، ويوبخه لأتفه الأسباب. يصرخ عليه وهو يعلم أنه لا يستطيع السيطرة على حياته عبر الأثير، فأوصى أخته فاطمة لمنعه من الخروج، وشغله بكتب دينية. في البداية شعر صادق بمتعة التجول داخل الكتب، لا سيما لّما رأى خط أبيه على الأغلفة، غير أن الأعمال صعبة الفهم على مدارك مراهق، لم يعِ تمامًا ما قرأه في **العدل الإلهي** لآية الله مطهري، لكنه وعى حقيقة أنه في طريقه ليصبح نسخة من أبيه.

تحذره العمة فاطمة من متع الدنيا ومغرياتها، رغم أنه فورًا بلغ الثانية عشر، تحاصره بعد كل أذان، ليسارع إلى الصلاة بعد أن بلغ سن التكليف، تذكره بنصائح دستيغيب في **الأخلاق الإسلامية**، وأن حب الله وحب الدنيا لا يجتمعان في قلب واحد، كأنها تعدّه

ليصبح جنديًّا في الثورة الإسلامية، رغم أنها لا تعرف متى ستندلع، لا أحد يعرف، إنه حلم مؤجل، يشبه عقيدة انتظار ظهور الإمام المهدي في آخر الزمان.

تفاجأ صادق في كتاب **الملحمة الحسينية** بأن آية الله مطهري ينتقد بعض شعائر محرم، قال إنها غريبة على الإسلام، وإن الشيعة شوهوا ملحمة كربلاء، وارتكبوا جناية في حق الحسين. اكتشف صادق أن كثيرًا من قصص كربلاء التي أبكته لم يكن لها سند تاريخي، أثبت الفقيه المفوّه أنها أوهام شبيهة بالخرافات، وأن قصة القاسم وزواجه بسكينة قبل استشهاده في كربلاء فاقدة للاعتبار، فالقاسم مات ولم يبلغ الحلم.

تعذّب صادق بما علم، ولم يتقبل ما قرأه، بعدما انغمس في تلك الشعائر بكامل روحه، عاش كربلاء، وبكى تفاصيل الفاجعة مستمعًا إلى القراءات الحسينية في المآتم، شارك في مواكب اللطم وحمل البيارق والرايات والأعلام، سار مع الخيول ذات السهام، والجمال ذات الهوادج، ومثّل دور القاسم على فرس هاشمية، هكذا رفض في أعماقه أن يصدق مطهري، رغم منطقه السليم، لم يقتنع، لا يريد أن يقتنع، وظلّ يلطم صدره دون أن يشعر بالإثم، ثم يرجع إلى مطهري بحذر، ويقرأ انتقاداته من جديد، وحين راوده هاجس بأنه يهين روح جدته في قبرها، أرجع الكتاب إلى عمته.

-٢-

لم يدخل صادق غرفة نوم جدته قط، إنها محرمة على الجميع، لكن جده أبدى تراخيًا في المسألة بعد رحيلها، وبابتسامة التواطؤ على وجهه، كشف لصادق عن الأثاث الأقدم في البيت كله، كانت أغراض الجدة مرتبة، كأنها لم تغِب سوى أيام، بجانب السرير منضدة خشبية صغيرة، كتبت عليها الجدة ما كتبت في دفاترها.

شاهد صادق صورًا معلقة على الجدار، أعزاء محنطون في أزمنتهم، علي بن أبي طالب بعينين سوداوين وجبهة عريضة تلتف عليها عمامة خضراء، وجمال عبدالناصر بابتسامته الواثقة، وبجانبه خريطة لفلسطين، وجدته حسينية في صورة بالأبيض والأسود، تسند ذقنها بيدها، وفي عينيها ابتسامة حزينة، وأبوها الملا علوان يقف بصرامة الإيمان، ويعتمر عقاله المرعز مربع الشكل، وأبوه جواد بلحية ثوار غير مكتملة، وعمه عباس في أناقة غربية لطالب جامعي، وعماته زهراء وخديجة في مرايل الثانوية الزرقاء، وفاطمة في مريول الإعدادية البني، شعورهن الشقراء طليقة لم يكتشفها

الحجاب بعد. أما الأحفاد فصورهم طازجة، معلقة في إطارات دائرية، بينها صورة له نفسه بعينين مدهوشتين من بارق الفلاش، عبدالزهراء بدا غريبًا بلا حراك، النعاس في عينه اليسرى أكثر وضوحًا، فضيلة ابنة عمته خديجة تحتضن دمية من بلاستيك، أما زينب ابنة عمته زهراء فجلست على كرسي صغير تمص إبهامها، وعلى خديها دموع، لعلها خائفة من المصور الذي يندس تحت قماش أسود، وراء الكاميرا الكبيرة.

في تلك الأثناء تعرّف صادق على مكتبة جده، وعاد يتلصص على كتب بعينها، التهم جزءًا كبيرًا من **ألف ليلة وليلة**، يختبئ في غرفته ويقرأ بالعناد الذي يوقظه الممنوع في نفسه، وبمتعة مطالعة مشاهد خليعة، رغم ملاحظة أنها نسخة مهذبة. أثارته قصص الجن والعفاريت والمسوخ والملاعين والشياطين، أكثرهم رعبًا جني خرافي اختلطت هيئته في ذهنه بهيئة شمر بن ذي الجوشن، قاتل الحسين، فتخيله بعينين جاحظتين، وأنف أفطس، ولحية شعثاء. ولما عرض التلفزيون المحلي **مغامرات سندباد**، كان قد فارق الطفولة، مع ذلك انجذب إلى المسلسل، وشاهد ذلك الجني الخرافي المرعب، ووجده بشعًا بالفعل، لكن من دون أن يرقى إلى بشاعة شمر قاتل الحسين في مخيلته.

رفعت العمة فاطمة تقارير إلى أخيها تفيد أن صادقًا قرأ روايات جده، **أولاد حارتنا**، و**أغنية الماء والنار**. اتصل الحاج جواد ما إن سمع من أخته، وصاح وكأنه خرج إلى ابنه من سماعة التليفون:

- الله يلعن هذه الراويات! كتب تافهة كتبت لتفسد المراهقين.

ثم قال لأبيه:

- الروايتان غير مناسبتين لعمر صادق اليافع يا أبي.

وتحداه عبدعلي:

- وهل عمره مناسب لقراءة كتب آيات الله؟

- رواياتك سوف تجعل من صادق إما مغناجًا مخنثًا، أو زنديقًا ملحدًا.

شعر صادق بالحزن، لكن جده ابتسم دون مبالاة، وشرح له لاحقًا:

- أبوك يكره نجيب محفوظ لأنه متهم بالكفر، وعبدالله خليفة لأنه يساري.

تحاملت فاطمة على طبعها الودود، وصارت شديدة في مراقبة صادق، تجسست عليه، وفتشت أغراضه، ومنعته من مصادقة الغرباء ولعب الكرة، بحجة أنها تشغله عن صلاته.

-٣-

- أخيرًا سنخطف كأس الخليج!

قال صادق.

- إنها فرصتنا الذهبية!

علّق عبدالزهراء متفائلًا بفوز البحرين بكأس الخليج الثالثة عشرة، يغلي حقدًا على منتخبي الكويت والعراق اللذين احتكرا الكأس لاثنين وعشرين عامًا، ولكن هذه الدورة تحمل آمالًا، فقد كسرت قطر الاحتكار وفازت بالكأس في الدورة السابقة، كما أن منتخب العراق ممنوع من المشاركة.

تحمسا لمشاهدة المباريات في بيت جدهما، ومن فرط الفرحة لم يستطيعا الجلوس حين دخل الملعب لاعبو المنتخب بقمصانهم الحمر، لكنهم خسروا أمام الكويت، بهدف يتيم. تملك عبدالزهراء الغضب ورمى قنينة ماء في يده على التلفزيون، وكاد أن يكسر الشاشة. لم يحقق المنتخب أي انتصار، تعادل مع الإمارات وعمان،

وخسر أمام قطر والسعودية، وحملت الكويت الكأس للمرة الثامنة، وضربت صادق وعبدالزهراء صدمة كل دورة، التي لا يفيقان منها إلا بعد سنتين حين تجتمع المنتخبات في مدينة خليجية أخرى، وخرجا إلى فناء البيت مهتاجين، أكثر غضبًا من أية دورة أخرى، فقد بلغا من العمر ما جعلهما يشعران بمرارة الهزيمة على نحو أعمق، وثأرا لنفسيهما بأهداف سدداها بين النخلتين، عبدالزهراء ركل الكرة على الجدران باستهتار، وكسر زجاج نافذة غرفة فاطمة فخرجت الأخيرة تصرخ، تلوح بسكين في يدها، قطعتْ الحبل المربوط بين النخلتين، وأزالت عارضة المرمى، مزقتْ الكرة، وركضتْ نحو عبدالزهراء تحاول الإمساك به، لكنه هرب إلى الشارع، فقبضت على صادق، وضربته ضربًا مبرحًا، وأرادت أن تربطه في جذع النخلة، لولا شفع له جده الذي أقر منع لعب الكرة في البيت إلى الأبد.

فرّ صادق من البيت، والتقى ابن عمه عند تقاطع خميس، قال والدموع تغمر وجهه من دون حياء:

- جنّت العمة!

- البيت ليس بيتها! أصلًا هو بيت الله، كل البيوت هي بيوت الله.

ردّ عبدالزهراء حانقًا:

- أليس هذا ما علمتنا إياه بيبي حسينية؟

إهانة الطرد أيقظت الرجل بداخله، وخطرت بباله فكرة راودته منذ شاهد المسلسل الكرتوني **كابتن ماجد** الذي وصل بفريقه إلى بطولة كأس العالم، مشى باتجاه مقبرة المنامة، وتبعه صادق يقتله الفضول ليعرف سر الابتسامة العريضة على وجه ابن عمه.

وقف عبدالزهراء وسط منطقة خالية من القبور، معلنًا:

- ستكون هذه الساحة ملعبًا لفريقنا!

- فريق الرافدين لكرة القدم.

هتف صادق باسم الفريق.

يعرف أولاد الحي أن عبدالزهراء سجل حي لتاريخ كأس الخليج، يحفظ عن ظهر قلب نتائج مبارياتها، وأبطالها، وكؤوسها، وأرقامها القياسية، يسألونه فيخبرهم أن حمود سلطان البحريني فاز كأفضل حارس مرمى في الدورتين الرابعة والعاشرة، وأن حسين سعيد المهاجم العراقي هو أفضل الهدافين، وأن الكؤوس التي فازت بها الكويت سرقت أثناء الغزو العراقي. التقط عبدالزهراء قطعة كرتون من الشارع، وقيّد عليها أسماء أعضاء فريقه، أولهم اسمه، ولأن عاشقًا كرويًّا مثله لا يناسبه اسم مثل عبدالزهراء، أطلق على نفسه اسم كابتن زليخ، المهاجم الشهير الذي تسميه جماهير العاصمة الصاروخ، أول من سجل هاتريك، في مباراة واحدة بكأس الخليج. ثم قيّد اسم صادق، رغم أنه ليس ماهرًا في اللعب، فعل ذلك على مرأى من أولاد الحي، فشاعت حكاية الفريق بينهم، وجاءوا

يتوددونه لكي يضمهم إليه، بعضهم مدفوعون بغريزة العصابة أكثر من امتلاكهم للمهارات الرياضية. واكتمل فريق من ستة لاعبين، علي ابن خال صادق، ولأنه أسمر سماه عبدالزهراء «أبو لمعة»، على اسم جمعة بشير، وزكي الذي سماه العملاق لأنه طويل، وسهراب العجمي وسماه آغا، وراشد زميله السمين في المدرسة.

ورفض أن يضم جعفر إلى فريقه، ليس لأنه ضعيف مثل هيكل عظمي، وليس لأنه يفرقع لسانه في سقف فمه حين يتحمس في كلامه، إنما لأنه قذر، لا يغسل وجهه، الذباب يحوم حول عينيه على الدوام، كما أنه بذيء اللسان، يشتم الغرباء من دون سبب، ومآثره المعيبة لا تثير تعجب أحد، ولا حتى أمه التي قبضت على عبدالزهراء:

- خذ جعفر في فريقك.

ولفحت عبدالزهراء رائحة أنفاسها التي تعفر برائحة التتن.

لا أحد في الحي يعرف اسمها، يدعونها أم جعفر، أرملة مثيرة، بكفلين ثقيلين يهتزان مع مشيتها، وبنهدين هائلين، تتردد شائعات عن جمالها الخلّاب حين كانت شابة في قرية بعيدة. اشتهرت بلسانها الحاد كالسكين، وتعمدها أن ترفع عقيرتها بكلام غير عفيف أمام الرجال، وأن ترهب الأطفال بجلجلة صياحها أمام بيتها. يقول رجال الحي إن جنيًّا يسكنها، خرج من أحد قططها السوداء واحتل جسدها الأنثوي المغوي، يؤكد تلك الشائعة أنها شمخت وجه رجل في السوق، قالت إنه تعمد الاصطدام بصدرها. أما زوجها،

أبو جعفر، فمات غريقًا في عين عذاري، أكبر عين طبيعية في البلاد، تنسب إليها أسطورة أنها تبتلع شخصًا كل عام، مثل قربان يقدمه الناس نظير مياهها العذبة التي يسقون بها بساتين النخيل الممتدة، ولما دفن الرجال أبا جعفر، قالوا إنه كان مخمورًا حين رسب في قاع العين، وكأن السكران لا يصلح أن يكون قربانًا.

منذ أن غرق زوجها والجارات تضمرن لها الحقد، خوف أن تسرق منهن أزواجهن بنهديها الراهيين، اتهمتها جارة مرة بلا دليل بأنها تقيم علاقة سرية مع زوجها، وكان رجلًا رقيقًا لا يحتمل مشاهدة الدماء في موكب التطبير. لم ينسَ أحد في الحي هذه الفضيحة الكبرى، ولم تنكشف الحقيقة فيما بعد، لأن المتهم انتقل بعائلته إلى مدينة بعيدة.

دفعت أم جعفر ولدها بعصبية:

- عبدالزهراء، خذ ولدي في فريقك، لتمنع عنه أولاد السوء.

إبليس يأخذك! هتف عبدالزهراء في سرّه، لكنه وافق، انصياعًا لرهبة سمعتها، وهيبة نهديها.

وفرقع جعفر لسانه احتفالًا بالانضمام إلى الفريق، ولأنه هزيل جدًّا، قيده الكابتن على قطعة الكرتون باسم الكرة المثقوبة، وجعل منه لاعب احتياط، وأثبتت الأيام لاحقًا أنه شقي، علّم أعضاء الفريق التدخين، عادة لم تمنعه أمه عنها، لأنها لم ترَ فيها عيبًا.

أظهر الأولاد حماسة الفريق الواحد، وحملوا الألواح الخشبية لتشييد المرمى في المقبرة، وضربت وجوههم رائحة أمونيا نفاذة، ففي

عتمة الليل يتسلل إلى المقبرة مشردو المنامة، يلعبون القمار ويسكرون بعيدًا عن العيون، ويتبولون على القبور، تهاجمهم الشرطة بين الحين والآخر فيختفون مدة، لكنهم يعودون، يجتمعون حول قبور بعينها، وينتقمون لأنفسهم بالمزيد من التبول، كأنهم قطط تمتلك المكان برائحة بولها.

سد الأولاد أنوفهم، وتجرءوا على الحفر في المساحة الخالية من شواهد القبور، وفجأةً أخرج صادق يده من الحفرة مرعوبًا:

- لمستُ جسمًا صلبًا!

وقفز الجميع بعيدًا كما لو أن قنبلة ستنفجر:

- يا علي!

- عظام ميت!

- اهربوا!

واتضح أنها بقايا عظام متآكلة في قبر مهجور، وبعد مداولات قرروا أن يدفنوا الحفرة، واكتفوا بتثبيت القوائم بالحجارة، من دون أن يقلقوا النيام. جهز الملعب خلال أيام، وجعفر ينظر إليه مثل وكر عصابة أكثر منه ساحة للعب، وفي أول مباراة رتب الكابتن الأولاد في خط منتظم، ونقر بسبابته على صدر كل لاعب محدِّدًا موقعه:

- هجوم.

- دفاع.

- جناح أيمن.

- جناح أيسر.

وعند راشد السمين تمهل قليلًا، ثم هتف بنبرة لا تقبل جدالًا:

- حارس مرمى!

ومع صفارة الحكم الأولى تلاشت تشكيلته الرائعة، وفار غبار المقبرة أينما ذهبت الكرة، وخسر فريق الرافدين، جعفر الكرة المثقوبة أرجع السبب إلى حارسهم السمين.

في العطلة الصيفية، نظم الكابتن زليخ دورة جديدة على أمل تحقيق انتصارات ترضي غروره الرياضي، وشاركت عدة فرق من أحياء المنامة، الحطب، ومشبر، وراس رمان والفاضل، والنعيم، ولعب الأولاد ببسالة تضاهي حماسة كأس الخليج، بعض المباريات انتهت بمشاجرات أفزعت الموتى، وفي حادثة مشهورة تعمد لاعب إسقاط عبدالزهراء الذي قام من فوره وسحب قميص الحكم محتجًّا، ولما لم يعلن الخطأ لصالحه، أخذ الصافرة من يده وطرده، وصفّر معلنًا نهاية المباراة. ولعل أغرب ما حدث هو انسحاب فريق الرافدين من المقبرة في المباراة النهائية، رغم أنه الفريق المنظم للدورة.

-٤-

- صباح الخير صادق.

يقول راشد السمين، ويسمعها صادق: صبوح الخير صودق، بفتحة على الصاد مائلة نحو الضمة. سأل فأجابه الجد:

- إنها لهجة عرب نجد، هو يقول ثلاثة، وأنت تقول **فلافة**.

طلاب المدارس لا يلتزمون بالإجازة الرسمية ليومي التاسع والعاشر من محرم، إدارات المدارس تتغاضى عن تغيبهم منذ أول يوم في السنة الهجرية حتى العاشر من محرم. صادق يتغيب لأن عماته يحولن البيت إلى مأتم للنساء، فيقضي يومه يبكي على الحسين بينهن، ويلطم صدره في مواكب تجوب شوارع المنامة القديمة حتى وقت متأخر من الليل. آغا سهراب الذي يتمتع بحماسة دينية حقيقية، يتطوع في خدمة الناس، وفي آخر الليل ينام في المأتم، لأن بيته يتحول إلى مطبخ لصنع حساء الآش في قدور عظيمة.

عبدالزهراء يكرس نفسه لخدمة مواكب العزاء، يحمل الراية

أو العلم أو مكبر الصوت، أو يقرع الطبول، أو يضرب السنجات. ورغم التزاماته الكثيرة، فإنه يتصيد لاعبي منتخب البلاد، يتفانى في خدمتهم بأكواب شاي، ويغنم منهم صورًا تذكارية. زكي العملاق يتطوّع في فريق الفرسان، يقوم على تزيين الخيول، ووضع الهوادج على الجمال. علي أبو لمعة، يضع شارة صفراء على ذراعه، ضمن اللجنة التي تنظم عزل النساء عن جمهور الرجال. جعفر الكرة المثقوبة الوحيد الذي لا يشارك بشيء، يحضر المأتم مثل تائه يبحث عن أبيه. راشد السمين ورغم أنه من أبناء السُّنةُ، يشارك في الحدث الحزين بالخدمة في مضايف تقدم وجبات سريعة، أخوة طلابية وتآزر ديني يراه أهل الحي تصديقًا مكثفًا لعقائدهم، وهو محط إعجاب العمة فاطمة التي لا تنسى تسأل عنه:

- صادق، هل جاء صاحبك راشد ليخدم الحسين مثل كل محرم؟

يهز رأسه بالإيجاب، فتمتلئ عيناها بالدموع تأثرًا.

-٥-

يتآمر عبدالزهراء لكي يفلت صادق من رقابة العمة فاطمة، بلغا العمر الذي يكون فيه للممنوع لذة، وجاءت أولى فتوحاتهما مع آغا سهراب الشغوف بمشاهدة الأفلام الأمريكية، كانت جيوبهم عامرة بدنانير عيد الفطر، ولما انشغلت العمة فاطمة بزوار في البيت، هربوا إلى سينما أوال، جلس صادق مبهورًا أمام الشاشة الكبيرة للمرة الأولى في حياته، شاهد جيمس بوند في فلم **الغد لا يموت**، في حضنه كيس فائض بالفشار، إنه يوم تاريخي بالنسبة إليه، بعدها خطط للذهاب إلى السينما بتصميم أكبر، ومن دون صحبة أحد، وأدمن مشاهدة الأفلام الأمريكية المغرقة في الخيال العلمي، أما درويش الذي فقد الاتصال بالواقع فأدمن الهندية، يطيل شعره على طريقة الممثلين الهنود، ويرتدي أقمصة ضيقة وبنطلونات واسعة حسب موضة السبعينيات، ويفاخر بأنه يحتفظ في جيبه بصور ملونة لأجمل جميلاتهم، يسوق دراجته الهوائية وهو يهذي بأغاني الحب الهندية، يبتسم بوجه طفولي، يستحضر حبيبة في خياله. الأطفال

يدعونه المخبول، لكنه لا يثور، لأنه لا يغضب من شيء أبدًا، ولم يكن الناس يغضبون منه، ويمكنه بسهولة أن يكسب ودهم بتأدية مقطع من أغنية هندية، ورغم براءته الساذجة، يحمل درويش إلى الحي شيئًا من المرح.

تورط درويش في عشق أجمل بنات الحي، يسوق دراجته وهو يغني بلوعة، مثل البطل في الأفلام الهندية، رأسه مائل على كتفه، هي زينب ابنة العمة زهراء التي انتفضت حين علمت بأنها المقصودة بأغاني درويش، وصارت تهش اسمه بيدها حين تسمع سيرته، ورغم ذلك أصبحت أخباره مادة للسخرية منها في العائلة، حتى أنها تمنت أن ينتحر ذلك المجنون، فقط لتتخلص من عار حبه لها.

ذات يوم، مر درويش بدراجته مشرق المزاج، يهذر بأغاني الحب كما لو أنه يُحيي حفلًا، رقبته مائلة ناحية بيت آل كاظم. عرف عبدالزهراء قصده فأوقفه، رغم أنه أقصر منه قامةً، وأصغر عمرًا، نقر على صدره بسبابته:

- هل تشير إلى بيتنا بهرائك؟

هز درويش رأسه بالإيجاب، لأنه عبيط، غير قادر على الكذب، ولو من أجل حماية نفسه. غضب عبدالزهراء ودفعه، فسقط هو ودراجته على الأرض، وانكسرت مرآة صغيرة مثبتة على المقود. وقف ينفض ثيابه، على وجهه ابتسامة بلهاء، تابع عدد من رجال دكة الحي المشاجرة الصغيرة، وشاهدوا انسحابه، وبذلك الانتصار

استطاع عبدالزهراء أن يحقق لنفسه سمعة لا بأس بها في عالم الفتوة. لكن الواقعة لم تضع حدًّا لهذيان درويش الذي عاش مثل روح تائهة، حتى انتهى في العصفورية، دار مجانين أخضعته للعلاج، وخرج بعد فترة مخدرًا، صموتًا أخرسته الأدوية، فكف عن هوسه بالشاشة الهندية، وبدا أكثر وعيًا بنفسه، وخجلًا مما فعل، لكن النظرة التي يوجهها ناحية بيت آل كاظم لم تدل على أنه نسي زينب. وحين يعود إليه وعيه، يتصرف بغرابة، مثل إحصائه للسيارات في الشوارع بأصابعه، وفي يوم استحوذت عليه نوبة غناء جارفة، كأنه توقف عن تناول العقاقير، خرج من جمود العلاج إلى مرح المرض، وأخذ يشدو بأغانيه الهندية، وبينما يعبر الشارع ساهيًا بألحانه، أردته سيارة قتيلًا، وراج في الحي أنه انتحر بداء الحب.

-٦-

شبّ صادق في مدرسة تعتبر الهروب مأثرة، ليس من تلميذ تخرَّج في مدرسة أبو بكر الصديق إلا وفعلها، يسمونها غزوة، مصطلح ورثوه من زملاء سابقين راسخين في الهروب، يكرهون سندويتشات سنبوسة يقدمها المقصف، فيتسلقون السور في الفسحة من أجل سندويتشات برجر لذيذة في مطعم طماطة الشهير، ولمنعهم عيَّن المدير مدرسين يحرسون الأسوار أثناء الفسحة، لكن الطلاب ظلوا يهربون، المدير يرى سندويتشات برجر في أيديهم، وبعد مدة اكتشف أنهم يهربون من خرق ثقبوه في جدار دورة المياة، وشاعت القصة بين الطلاب مفخرة لفتوتهم، وعينت وزارة التربية والتعليم مديرًا جديدًا ليضع حدًّا لهروبهم.

لم يهرب صادق من أجل بطن جائع، وذات يوم، وقبل بداية الحصة الأخيرة، توجه مع عبدالزهراء ناحية سور المدرسة، زميلهما الذي عيَّناه خفيرًا، راقب المكان من نافذة الفصل بعيني صقر، ولأنه لم يصفّر منذرًا بالخطر، رمى عبدالزهراء حقيبته خارج

المدرسة، وتسلق السور برشاقة، وتبعه صادق. راشد السمين الذي لا يستطيع تسلق السور، دفع مئة فلس إلى بواب المدرسة العجوز، المتآمر دومًا مع الطلاب الميسورين، وبمجرد أن تحركت البوابة الحديدية، فرّ راشد وتبعه آخرون متخفين.

- توقفوا! سأخبر المدير!

صاح العجوز متصنِّعًا الصرامة، وركض الهاربون ناحية مدرسة فاطمة الزهراء للبنات، قبل أن تتدفق من بوابتها جميلات المنامة من البحارنة والعرب والعجم، بينما صادق يقف عند تقاطع خميس، واضعًا سيجارة مشتعلة بين شفتيه بانتظار فتاته الفارهة ذات القد الممشوق والعينين الجريئتين، تلتفت ناحيته وتقول لزميلتها وهي تهز جديلتها في الهواء:

- تعالي هنا، ألست أنا صديقتك سمية؟

تقولها بصوت عالٍ أرادت به أن تفصح عن اسمها، وتطلق ضحكة تحمل إغواءً، فيتبع صادق غريزته نحوها، كلما استطاع إليها سبيلا، يهرب من المدرسة، وينتظرها عند تقاطع خميس مدفوعًا بشعوره بحبها.

يحبس نفسه في غرفته، لا يتحدث مع أحد، لا يُعنى بما يحدث في العالم، يسند رأسه إلى الوسادة باسم الوجه، ويردد اسم سمية مستمتعًا بجرسه، مستعيدًا في حنين لذيذ بسماتها التي تسرق النوم من عينيه، يسرح متخيلًا نفسه يختلس قبلة من شفتيها الورديتين،

ويضع يده على نهديها الصغيرين، خيالات تجعل الحياة تفور في جسده. وفي اليوم التالي ينتظر ساعة هروبه من المدرسة لينتظرها عند تقاطع خميس، حتى جاء ذلك اليوم الكارثي حيث حاول الهروب من دون خفير يصفّر له عند الخطر، رمى حقيبته خارج المدرسة، وهمّ ليقفز السور، لكن يدًا قوية أمسكت به:

- تهرب! هكذا عيني عينك!

ضبطه مدرس التربية الرياضية متلبسًا بجرمه، اقتاده إلى مكتب المدير. جرجر صادق رجليه كأن شللًا أصابه، لا يعرف كيف سيتفاهم مع المدير الجديد، رجل صارم عُيِّن خصوصًا ليضع حدًّا لتسيبهم، وهو الذي أحال الحارس المرتشي إلى التقاعد، وأنهى سجل جعفر، الكرة المثقوبة، من المدرسة، في حادثة زلزلت مجتمع الطلبة، لكنهم حفظوا له، رغم قسوة القرار، أنه من الشهامة بحيث لم يسمح للشرطة بدخول حرم المدرسة لاعتقال جعفر بسبب جرائم يرتكبها خارجها.

انتظر صادق عند مكتب المدير، يفكر كيف سيبرر فعلته من دون أن يفشي الأسرار، التعاون مع إدارة المدرسة خسة، والوشاية رذيلة الرذائل، وعليه أن يتحمل العقاب من دون أن يعترف على زملائه. عقاب الضرب ممنوع في المدارس الحكومية، لكنه يسمع قصصًا عن طلاب يُضربون أحيانًا من قِبَل مدرسين عصبيين. استقبله المدير بعينين تشعان غضبًا، وألقى عليه خطبة وعظية، استنكر فيها غياب نخوته العربية، ومطاردته لتلميذات هن في الأصل من أهل المنامة، ومن أهله.

- اخرج من المدرسة، أنت مطرود! لا ترجع من دون أبيك.

غادر صادق محطمًا، يفكر في أبيه المنفي، الطلاب يعرفون ذلك، لكن المدير لن يصدق طالبًا يهرب من المدرسة. في اليوم التالي حضر جده، ترك دكانه في عهدة صديقه العراقي، وجاء يضوع منه عطر الكولونيا، أمعن في توبيخ صادق، ثم التفت إلى المدير:

- من منا لم ينظر إلى فتاة في مراهقته؟

أفرج المدير عن ابتسامة ماكرة، تبادلها مع الجد وأشار بأصبعه نحو الباب:

- صادق! إلى صفك فورًا.

كلما ظهر المدير في طابور الصباح تجمد صادق في مكانه، يشعر أنه يفتش عنه، كما لو أنه تفاحة متعفنة ستفسد بقية الثمر. الخوف من المدير أنساه لذة اللقاء بسمية، وشعر بالأسى وهو يتخلى عن مشروع حبه الأول. إنه زمن لا يثق فيه الآباء بأبنائهم، غير أن الجد من طينة مختلفة، اعتبر نقائص صادق شقاوة بريئة، وأبقى أمرها سرًّا، للتقرب إليه. اختفت سمية مثل حلم جميل نسيه، وعام إثر عام تراجع إلى الكراسي الخلفية في الفصل، حتى لحق بعبدالزهراء في الصف الأخير، وتخرج بدرجات متدنية، لم يتميز إلا في اللغة العربية، وكان حظه مكالمات هاتفيه لاهبة من لندن.

- أخو عمك، وليس عمك؟

حاجاه جده ليخفف أثر مكالمة أبيه، لكن صادق فقد ذلك المرح الطفولي الذي كان ينتابه عند حل الألغاز.

- أبوك.

قال له الجد، في نظرته دعوة ليتفهم حال أبيه في المنفى، لكن صادق لم يتفهم، شعوره بحريته وبرجولته يتعاظم، في المدرسة يرد اللطمة باللطمة، والركلة بالركلة، يدافع عن نفسه أمام طلاب متحفزين للمشاجرة، بعضهم يميلون إلى العنف، وحين يتعاركون يضعون في قبضاتهم أطواق مدببة من حديد.

-٧-

بلغ فريق الرافدين أقصى تألقه، الأعضاء الذين انضموا إليه أطفالًا أصبحوا يافعين أقوياء. في إجازة الصيف فازوا على فريق العجم، بمساعدة حكم المباراة، صادق الذي احتسب في الدقائق الأخيرة ضربة جزاء، سددها عبدالزهراء على يسار حارس المرمى بمهارة. العجم الخاسرون غضبوا واقتلعوا قوائم المرمى، ومن دون سبب ظاهر صفع أحدهم جعفر، الكرة المثقوبة، الجالس على خشبة الاحتياط، والولد ليس بريئًا كما يبدو، قذف المعتدي بحجر شجَّ رأسه. في الحال طارت أخبار الدم المسفوح إلى فتوات العجم في حي مشبر، فتقاطروا على المقبرة للثأر لصاحبهم، في الأثناء هبَّ البحارنة عند دكة تقاطع خميس لفزعة فريق الرافدين، والتحمت الجماعتان في عركة دموية رفع فيها الفتوات سلاسل الحديد، وسالت الدماء من كلا الطرفين، وكان نصيب صادق أن ثلمت ثنيته العلوية اليمنى، وقعت عليها السلسلة بينما كان يركل أحدهم ساقطًا على الأرض، أما عبدالزهراء فتلقى لكمة مباغتة أحالت وجهه إلى لون بنفسجي داكن.

انتشر خبر العركة، تحدث الناس عن الحجر الذي قذفه جعفر الكرة المثقوبة، واعتبروه سبب الدماء التي سالت. أبو عبدالزهراء خرج عن طوره لما رأى وجه ابنه المتورم، وهمّ يقدم شكوى لدى مركز الشرطة، لولا أن أمسكت أم جعفر بيده متوسلةً:

- ارأف بحالي يا حاج عباس! الوحيد الذي سيزج به في السجن هو ابني اليتيم.

نسي الناس العركة مع الأيام، لا يذّكرهم بها سوى وجه عبدالزهراء الذي تناوبت عليه الألوان، هو نفسه نسيها حين بدأت دورة كأس الخليج في البحرين وحضر المباريات جميعها على إستاد البلاد الوطني، حتى حمل الكويتيون الكأس للمرة التاسعة، أمام الجماهير البحرينية الغفيرة.

انتهى تاريخ فريق الرافدين، وما عدا السكارى، لم يطأ مقبرة المنامة أحد من الحي، حتى توفي أبو راشد حارس المرمى السمين. وحضر المقبرة أعضاء الفريق لمواساة زميلهم، المرة الأولى التي يدخلونها لتأدية مراسم الدفن، وليس للعب. بدا الملعب كئيبًا، نمت الأعشاب في وسط الساحة، قوائم المرمى مكوّمة عند السور. ودهش صادق حين رأى أهل الميت لا يبكون ميتهم، وجوههم مكفهرة لكنها خالية من الدموع، وتذكر جده يقول إن البكاء على الميت مذموم عند السنة، يخشون أن يكون تفجعهم كفرًا بقضاء الله، غير أن أحدهم بكى حين أُنزل الفقيد القبر، فلم يستطِعْ صادق أن يكبح دموعه، إلى أن نهره أحدهم:

- لا تبكِ! الدموع تعذِّب الميت.

كفكف دموعه على مضض، وهمس لعبدالزهراء:

- كيف يُعذَّب أبو راشد لأنني بكيت عليه؟ وماذا عن الحسين الذي يبكيه ملايين الناس؟

ودع صادق المدرسة، لن ينسى تاليًا سنوات الابتدائية والإعدادية، وما تركت في نفسه. تسع سنوات ومفهوم الوطن ينمو شيئًا فشيئًا في وجدانه، ويزاحم الانتماء الشعبي إلى حي الحمّام، ولعله استحق شهادة الإعدادية لأنه فهم مقولة جده حين قال له في أول يوم في المدرسة: هنا بدأ الوطن.

تفرق أعضاء فريق الرافدين كل في درب، فرّقتهم تخصصاتهم في الثانوية، صادق في القسم الأدبي بمدرسة النعيم الثانوية، عبدالزهراء القسم العلمي بمدرسة الشيخ عبدالعزيز الثانوية، آغا سهراب مدرسة الجابرية الصناعية، علي العملاق وزكي أبو لمعة وراشد السمين القسم التجاري بمدرسة المنامة الثانوية، أما جعفر الكرة المثقوبة فهام على وجهه بلا مدرسة.

الفصل الخامس

-١-

تعتقد عماتي أن رحيل بيبي عجّل بشيخوخة جدي الذي ترك دكانه وجلس رهين البيت، لا يكتحل، لا يحلق ذقنه، يشتكي أوجاع جسده، خانته ركبتاه وصار يصلي جلوسًا، ثم تبخرت الأسماء من ذهنه شيئًا فشيئًا، وتخبطت ذاكرة ماضيه، إنه نسيان الشيخوخة الحميد، قال الطبيب، لا علاقة له بالخرف، لكن نوبات الخرف انتابته.

أطعمه بيدي أحيانًا، وأحلق له ذقنه، تعذبني نظراته الفاترة التي لا توحي بأنه حريص على الحياة، لكني أعيد عليه أحاجيه فأرى ذاكرته تشع في عينيه وتخبو. عمي عباس المهووس بالطهارة، تقاعد مبكرًا الكي يرعاه، يساعده على قضاء حاجته، يحممه بالماء والصابون، ويبقيه طاهرًا للعبادة، لكن ذاكرته استمرت في التآكل.

تدهور جسد جدي، بينما جسدي ينمو باندفاع، انتفخت عضلاتي، اشتدت بشرتي سمرة، وازداد شعري تجعدًا، وبزغ لي شارب من زغب كأنه هلال العيد، وصار صوتي خشنًا أجش،

ولم تعُد عيناي عفيفتين، بنات عماتي يتشددن في تغطية مفاتنهن في حضوري، وعماتي لا يعاملنني كطفل بريء، لكنهن أيضًا لا يعترفن بي كرجل بالغ، أنا نفسي كنت ألج في متاهة، وبدا لي أن كل ما أريده محرّم عليَّ في عالم الرجولة الفظ. ذلك النتوء بين فخذي، صار مهمًّا، يبرز في غضون ثوانٍ تلقاء فكرة شبقة، وتصاحبه لذة أخجل منها. اكتشفت العادة السرية، ومارستها بانتظام، أول ذنب أتذكر أني اقترفته مع سبق الإصرار، معتقدًا في قرارة نفسي أن إثمها ليس كافيًا ليُقذف بي في النار مع الأشرار الذين قتلوا الحسين.

بذلك الجسد الآثم دخلت مدرسة النعيم الثانوية، مدرسة حكومية أخرى لها أسوار ونظام يخضع لجرس يقرع. وفيها عرفت مدرس الدين الذي يطلق لحيته، وحين يلحظ زلة في قراءة القرآن، يرفع مسطرته في وجه الطالب كأنه سيحطم صنمًا وثنيًّا. ومدرس اللغة العربية الأستاذ غازي الذي يشبه رجال الدين، لحيته شايبة، صوته وقور، يلبس نظارة مربعة الشكل تشبه نظارة السيد خامنئي، درس الآداب في جامعة بغداد، وله طرافة يحوّل بها درسه إلى احتفالية شعرية وحديث عن الشعراء. في درس النحو، يشرح فكرة الضمير المستتر، ويذكّرنا متوعدًا:

- ليس كل ما لا تراه العين غير موجود.

وحفظت مقولته، متصورًا أنها من أقوال علماء النحو الأوائل.

إلى جانب التدريس، يعمل الأستاذ غازي مصححًا لغويًّا في صحيفة محلية، ينشر مقالات يستعرض فيها كتبًا تتطرق إلى الإمام

المهدي، واقتراب ظهوره المنتظر. في وقت قصير، صرنا صديقين، وتجاوزت علاقتنا حدود الفصل المدرسي، حتى أن البعض يحسبونني ابنًا له حين يصحبني معه في المناسبات الدينية.

في مولد الإمام المهدي، ألهب الحضور بقصيدة رنانة في مأتم قرية السنابس، يتوسل فيها تعجيل ظهور المهدي المنتظر، ويشارك برأيه في الأمسيات الثقافية، في أسرة الأدباء ونادي العروبة، حيث تعرفت على مجتمع آخر، بحرينيون من طراز حديث، المحجبات كما السافرات يجلسن مع الرجال في القاعات نفسها، ومثقفون ينتقدون الحكومة والمجتمع على حد سواء، يتذمر أحدهم من بقاء وزير في منصبه مدة طويلة، ويسخر آخر ممن يفنون حياتهم باكين على الحسين. مع الأستاذ غازي عشت الصحوة الدينية التي فشل أبي وعمتي فاطمة أن يجعلاها نهج حياتي، كنت مجبرًا على أن أخفي عنهما ما أقرأ، وأنكر لعبي الكرة، وترددي على السينما. بينما معه التزمت بالدين، ليس كطفل يخاف أباه، بل كشاب يثق بذكائه، ويتطلع إلى معلمه بإعجاب. اعترفت له:

- نفسي تتقبل بيسر ما رفضته في السابق.

ابتسم الأستاذ غازي:

- ليست الطفولة العمر المناسب لفهم حقيقة الدين.

-٢-

حلقت ذقني للمرة الأولى في أول يوم لي بالصف الثاني الثانوي، اعتبرت نفسي مكتمل الرجولة، وحلمت أن أصبح كاتبًا، أطلعت الأستاذ غازي على قصصي عن كربلاء، فشجعني ووعد بمساعدتي على نشر محاولاتي في الصحيفة التي يعمل بها. كتبت قصصًا أخرى، غير أن محرر الصفحة الأدبية رفضها، وكتب في رسالته أنها قصص شعبية سليلة القِدم، ونصحني بكتابة أخرى معاصرة، واقترح أن أقرأ لغسان كنفاني.

قرأت **رجال تحت الشمس**، و**عائد إلى حيفا**، روايتين ساعدتاني لأتخلص من سطوة الدين في قصصي، ثم كتبت سير شخصيات شعبية من حيِّنا، لا تشبه محاولاتي الأولى، ومع ذلك رفضت كسابقاتها، وواصلت الكتابة وتواصل رفضها.

كلما قرأت اكتشفت فداحة كتاباتي الأولى، رغم أني غير مقتنع بما تنشره الصحيفة من قصص ملغزة، مبهمة الشخصيات، عائمة في المكان والزمان، لم أستسغ الغموض في الكتابة بوصفه إبداعًا في ذاته.

سألني الأستاذ غازي:

- لماذا تكتب القصص، بينما يركض الناس وراء الشعر؟

- لأني لست بشاعر.

- كثير من الشعراء تحولوا إلى كتابة الرواية.

- شعراء يكتبون رواية؟

- نعم، ولذلك جاءت رواياتهم تأملية، تنقصها مادة الرواية: الأحداث والشخصيات الحيوية والعلاقات الإنسانية المعقدة.

حديثه شجعني لقراءة المزيد من الروايات وانغمست فيها مدة، لم يعنيني بزوغ فجر القرن الواحد والعشرين، ولا منجمون تنبأوا أن الدقائق الأولى ستشهد توقف أنظمة الكمبيوتر في العالم كله، ولم يحدث شيئًا مما هذروا به، وأسوأ ما رأيناه هو تأجيل دورة الخليج الخامسة عشر لكرة القدم، عبدالزهراء المتفاءل بالرقم المهيب ٢٠٠٠، أجّل تفاؤله إلى الدورة القادمة بعد عامين، أما أفضل ما حدث فهو انسحاب إسرائيل الكامل من جنوب لبنان، وبعد أن صرخت بالخبر في أذن جدي، استطعت أن أرى ابتسامة انتصار على وجهه.

في الصيف، نُشرت لي قصة قصيرة، اختار لها المحرر الثقافي عنوانًا جذابًا: **اللعب مع الأموات**، حكاية لشرير مدفون في مقبرة المنامة، أغضبه ضجيج مباريات فريق الرافدين، فسلّط على اللاعبين أشباحًا تسبب هزائمهم. إنها تجربة عجيبة في حياتي، تهيؤات حدثت لي بين النوم واليقظة.

- كل حدث هو قصة رائعة إذا ما رويت على نحو يُظهر طبيعة البشر وهم يمضون في الحياة.

قال الأستاذ غازي وكان فخورًا بي، وبنفسه مكتشفًا لموهبتي:

- إنها بداية مبشرة لكاتب.

استقبلت كلمة كاتب بسعادة، وركضت بالخبر إلى البيت، أصرخ به في سمع جدي، ولعله استوعب ما قلته، لكنه لم يطلب أن يقرأ قصتي، لأن القراءة تحتاج ذهنًا عامرًا. مختبئًا في غرفتي، قرأت نصي مرات عديدة، ثملًا بتفاصيله، أنظر إلى كلماتي المطبوعة، أكتشف السحر الكامن فيها، أراجع عباراتي، وأتأكد من سلاسة أسلوبي، وتعذبت جراء خطأ نحوي مرَّ سهوًا.

علّقت لاحقًا:

- لا يحق لأي شخص أن يرفع القلم إذا لم يكن خبيرًا في النحو.

الأستاذ غازي لم يتفق معي:

- ما يحتاجه الكاتب هو تجربة الحياة العميقة، لا قواعد اللغة ولا زخرفها.

أهملت نصوصي القديمة، ضاعت بين أوراقي، سهوًا أو عمدًا، اعتبرتها تجارب لا أهمية لها، وتعلمت أن أهتم بموضوعاتي أكثر من كلماتي، وأن أصغي بغريزة الكاتب إلى أحاديث الناس بانتباه، ألتقط سيرهم المثيرة، وأضخ فيها من مخيلتي، وشيئًا فشيئًا تلاشى ما رسب في طفولتي من نفحات حسينية.

نشرت قصصًا أخرى في صحف أخرى، كـسيدة **القطط**، قصة البؤس الذي تعيشه الأرملة أم جعفر في حينا الشعبي. أيقظت تجربة الكتابة الأديب الذي يسكنني، تضاءل اهتمامي بكتب المدرسة المضجرة، وانفتحت لديَّ شهية قراءة الأعمال العالمية أتأملها بعين فاحصة.

عبدالزهراء خطفته الرياضة، وبعد خسارة كأس الخليج الأخيرة انتابه جنون حقيقي، هوس طرأ عليه في زحمة المراهقة، فصار خبيرًا في عالم الرياضة، يتعصب لنادي العاصمة، ويحضر مبارياته، وابتعد عن الدراسة، ولما عرف عن قصصي التي نُشرت هنأني، لكنه استغرب أن الصحيفة لم تدفع إليَّ فلسًا، وأطلق صفيره الغريب من تحت لسانه.

ثم وقع الحدث الذي زلزل البلاد، ونشر التفاؤل بين الناس، حين أعلن الأمير العفو العام عن السياسيين، وأطلق سراح المعتقلين، وألغي قانون أمن الدولة، وعاد المنفيون وصدحت أجهزة الراديو بالأغاني الوطنية، وأخذ التلفزيون الرسمي يبث مقابلات لمفكرين يستعرضون مستقبل البلاد، ورقص الناس في الشوارع، وشاركهم الأمير أفراحهم، وفي جزيرة سترة حمل الشباب سيارته.

-٣-

- عاد الحاج جواد آل كاظم من منفاه!

هتف الناس باسمه، وتلقفوه في أحضانهم بطلًا وطنيًّا، بدا لهم غريبًا في بدلة رمادية ولحية رصاصية ونظارة، أهله تحلقوا به مبهورين به، الحاج عبدعلي الغائب في عالم النسيان عاد إلى الواقع مؤقتًا، بعينه اليسرى التي ما زالت تحمل سمت الحياة. وشارك الحاج جواد في المسيرات الوطنية، بأبواق سيارته والأعلام الخفاقة، احتفالًا بالعهد الجديد. وتفاجأ بالرجل الذي صار عليه صادق، بعدما هدمت سنوات غربته كافة الجسور بين الاثنين، لم يعرف طريقة ليمارس دور الأب، أصبحا متنافرين، أشبه بغريبين التقت دروبهما، لا يعرفان كيف يستأنفان علاقتهما، ليس بينهما قاسم مشترك، ولا حتى إشارة واحدة تدل على إمكانية عيشهما معًا، ومما عقّد الأمور بينهما أن صادق في عمر السابعة عشرة لم يختَر فقيهًا يقلّده بعد، ولم يشأ جواد أن يجبره أن يقلد السيد خامنئي مثله، لكنه نصحه:

- التقليد واجب عليك، وعليك أن ترجع إلى مجتهد!

ورغم أن الحاج جواد يختلف مع عبدالزهراء الذي يقلد السيد محمد الشيرازي، صاحب نظرية شورى الفقهاء، نقيض ولاية الفقيه، إلا أنه يجده شيعيًا مكتملًا.

-٤-

عاد أبي وقد صار بالنسبة إليَّ أحجية كأحاجي جدي الأكثر استعصاء. لم أرَه مثاليًّا، لكني أيضًا لم أره عدوًّا لي، كما تصوّرته من قبل. كنتُ بدأت أدرك كياني المستقل، وأتصرف كرجل، وها قد عاد ليغالبني شعور بأني نكرة، عماتي ينظرن إليّ كطفل، أو كظل شاحب لأبي. كلما تألق في مناسبة ما والتف الناس حوله، داهمتني الغيرة، لا سيما حين ينتقدني أمام الجميع لأني لا أقلّد فقيهًا، تجنبت الرد عليه، وكنت أتخذ الأستاذ غازي مثالًا، فلا الدين يغيب عن حياته لحظة واحدة، ولا هو يقلّد فقيهًا.

- بدون تقليد، ستكون أعمالك باطلة.

انسحبت من أمام أبي مرتبكًا:

- لا أعرف الفقيه الأعلم الذي ينبغي أن أقلده، هناك العشرات منهم!

هربت من إلحاحه المزعج إلى رحابة الأستاذ غازي الذي

يشعرني بالراحة في بيته في قرية السنابس، شقة إسكان متواضعة من تلك التي تمنحها الحكومة لذوي الدخل المتوسط بإيجار شهري مريح، وفي الصالة الصغيرة المترعة بكتب الشيعة، سألته عن الفقيه الأكثر علمًا الذي ينبغي أن أقلده، فأجاب:

- لا تعلق أعمالك في رقبة فقيه كالقلادة، لا تحمِّل أحدًا مسؤولية أعمالك أمام الله.

وبشروح تخلو من حس دعابته انتقد عقيدة التقليد.

تغيرت البلاد بعد الانفتاح السياسي، زارنا العديد من المفكرين والقادة، والمناضلين، وفي أمسية حوارية في أسرة الأدباء، رأيت مظفر النواب، وقف بصلعته المهيبة وشعره الأشيب، يحرّض المثقفين ليكونوا أكثر شجاعة، وجلجل المكان بنتف من قصائده الشعبية. استمعت إلى شعره العامي بانتباه، ناسيًا ما يعلمني إياه الأستاذ غازي في المدرسة من معلقات العرب في الفخر والأطلال، وشكل القصيدة القديم، وأوزان الشعر وبحوره. جذبتني لهجة أهل جنوب العراق في لسان مظفر، لهجة بيبي نفسها التي برعت فيها، شعرت بأن الرجل ينهل من الحزن الكربلائي نفسه، وأن شعره لا يختلف عن شعرها كثيرًا، فقط لو كتبت بيبي عن قضايا العرب المعاصرة، وليس هموم الشيعة الغابرة، رغم أنها تفوقت عليه في الالقاء.

فتنني مظفر النواب بشعره، وجعلني أقرأ لشعراء آخرين في البلاد، قرأت الشعر الحر، تذوقته بمزاج خاص، وبنكهات مختلفة، قاسم حداد الذي قادني إلى أعمال كبار شعراء العرب، محمود درويش

وأدونيس، وتضامنت مع قضايا الشعوب المظلومة، وفلسطين، وبشيء من الحزن بدأت أعي تواضع القصائد العامية في المآتم.

استدرجني الشعر إلى الموسيقى، وصرت أتلذذ بسماعها، أبي في قمة نشوته الوطنية، منهمك في اجتماعات لا تنتهي مع أطياف المعارضة من أجل رأي موحد بشأن دستور البلاد الجديد، لم ينتبه إلى أن ابنه المعتكف في غرفته لا يذاكر بعزيمة لأنه في سنة التخرج، ولا لأنه يعيش فترة الانعزال التي يمر المراهق، إنما في خلوة مع الموسيقى، أستمع إلى قاسم حداد بصوت خالد الشيخ، وإلى محمود درويش بصوت مرسيل خليفة، أهيم للمرة الأولى في حياتي بالشعر المذاب في حياة العرب وقضاياهم. لم أعِ أن الموسيقى تنطوي على طاقة رهيبة، تغويني، تثير عواطفي، وتولّدّ في نفسي رغبة جامحة للكتابة، أحيانًا أشعر بأنها توشك أن تخبرني بشيء ما، شيء لا ينبغي أن يفوتني، وما خطر ببالي أنني يمكن أن أتأثر على ذلك النحو العميق حين أسمع خالد الشيخ يغني لمحمود درويش: **عندما كنت صغيرًا، وجميلًا، كانت الوردة داري، والينابيع بحاري، صارت الوردة جرحًا، والينابيع ضمأً.** أصغي بانتباه للأغنية، يداهمني حزن شفيف، يمضي بي إلى حد الدموع، من دون أن أعرف سببًا حقيقيًا لانفعالاتي.

اعترفت للأستاذ غازي بما تصنعه تلك الأغنية في نفسي:

- أسمع فيها شيئًا من همهمة روحي.

ولم أقدر أن حياتي ستأخذ منحنى خطيرًا جراء ذلك الاعتراف.

-٥-

- تستمع إلى الموسيقى؟ مستقبلك ليس في اللهو، إنما في صميم الدين.

زأر الأستاذ غازي غاضبًا، وأعطى صادق كتاب **الجزيرة الخضراء وقضية مثلث برمودا**، الذي يفترض فيه ناجي النجار أن مثلث برمودا هو الجزيرة الخضراء التي تروي كتب التراث أنها جزيرة في بحر الأندلس، بقعة نورانية يسكنها المهدي المنتظر، ويحكمها ببركته، فإذا دخلت مياهها سفن عدوة غرقت.

قال:

- هذا كتاب لا يستخدم العلم ليفسر الدين، إنما يستخدم الدين ليفسر ما عجز عنه العلم.

قرأ صادق الكتاب كما لو أنه يكفر عن آثامه، وبعد أيام، حين امتلك الشجاعة ليرفع رأسه في وجه أستاذه، قال إنه اقتنع بأفكار الكتاب.

الأستاذ وجدها فرصة سانحة:

- هب أن إمامًا معصومًا يدعوك إلى أن تكون في جماعته، فماذا تقول؟

جمد صادق في مكانه، فأجاب الأستاذ على سؤاله بنفسه:

- أقول نعم لمولانا الإمام المهدي عجل الله فرجه.

وترك صادقًا يتصارع مع الفكرة في داخله للحظات، ثم اعترف:

- نحن جماعة نؤمن بأن مولانا الإمام المهدي حيّ وقائم بيننا، ولا يستحيل الاتصال به من قبل المؤمنين.

ارتبك صادق، وتجمدت الحيرة في عينيه، لاحظ أستاذه ارتباكه، فطلب منه أن يكتم ما سمع، وقدم إليه كتاب **بناء القادة في منهج أهل البيت**، وهو موقن بأن صادق سيتلو في يوم ما قسم جماعته، ويتعهد بالولاء للإمام المهدي نفسه.

أعطاه الكتاب في ساحة المدرسة، وعلى مرأى من الطلبة، إلا أن صادق حدَّس بجدية ما يجري، فأخفى الكتاب بين دفاتره، لا بد أنه سمع عن جماعة الأستاذ التي يتهمها البحارنة بالابتداع، جماعة يدعي زعيمها أنه سفير للإمام المهدي، فاستحقت أن يلقبوها بجماعة السفارة.

وحين سأله الأستاذ غازي عن الكتاب بعد أيام، ترحم صادق على جدته، وقال إنها كانت مثالًا في الموالاة لأهل البيت، وإنها ظلت على اتصال روحي بفاطمة الزهراء حتى ماتت.

أعجب الأستاذ بالملاحظة وعلّق:

- مثلما استطاعت جدتك أن تحيا على اتصال روحي بفاطمة الزهراء، أنت كذلك يمكنك أن تكون على اتصال بمولانا الإمام المهدي.

ووصف مشاعره وهو يصلي ما اعتقده صلاته الأخيرة قبل أن يحكم الإمام المهدي العالم، لا ينام الليل من فرط سعادته، وكأن الحدث العظيم سيحدث غدًا، يعيش في لذة انتظار ما سيحدث، أسلم نفسه لها، فحرمته متع الحياة، وجعلت سعادته الحقيقية تكمن في جماعته، لأنه لم يولد من أب، إنما ولد من جماعة.

- أخي صادق! احجز لنفسك مكانًا معنا لتكون شاهدًا على زمانك، شريكًا في خلاص العالم.

هز صادق رأسه في دهشة، وتابع الأستاذ:

- نحن جماعة الأمر، طائفة تشكلت بأمر صادر عن الإمام نفسه، لكي نغير وجه العالم الذي يحكمه الزيف، وأن نبدل به عالمًا مثاليًّا يقوده الإمام.

قرض صادق أظافره بثنيته المثلومة، ما دفع الأستاذ إلى طمأنته:

- نحن الشيعة أكثر المسلمين شوقًا إلى ظهور الإمام المهدي، إلا أننا أول من ينكر ظهوره حين اقتربت ساعته.

سأل صادق بحذر:

- لماذا تعرض عليَّ الأمر الآن؟

- وهل تتوقع مني أن أفعل منذ يومك الأول في فصلي؟

- لماذا اخترتني أنا بالذات؟

- لأنك لست مثل عامة الناس غير المؤهلين لهذا الأمر الصعب المستصعب، فبالرغم من إيمانهم بمولانا الإمام المهدي، فإنه يستعصي عليهم استيعاب عالمه الغيبي.

تنهّد صادق:

- ليس كل ما لا تراه العين غير موجود.

كرر مقولة أستاذه الأثيرة، وابتسم مثل تلميذ فهم درسه. سُرّ الأستاذ بذكائه:

- نعم، وكل ظلم تراه في هذا العالم، هو علامة من علامات ظهور مولانا الإمام المهدي.

سأل صادق متشككًا:

-أليس من المفروض أن يسبق ظهوره خروج السفياني والصيحة؟

- تلك من علامات ظهوره الأكبر، أما ظهوره الأصغر، فهو زمن التمهيد.

وفتح الأستاذ ذراعيه:

- الزمن الذي نعيشه الآن.

- الآن؟

- نعم، الآن، في أية لحظة! سيظهر مولانا ليملأ الأرض عدلًا كما ملئت جورًا.

ثم شرح مصطلحات الجماعة، الفرق بين الحلم والرؤيا، وبين سفير الإمام وباب المولى.

- هناك فرق بين أن تكون شيعيًّا ينتظر ظهور الإمام المهدي في يوم ما غير معروف في المستقبل، لا تتخيل نفسك تحياه، وبين أن تنتمي بالفعل إلى جماعته، وتتلقى منه تعليمات مباشرة.

لم ينبس صادق بكلمة، وظل الأمر معلقًا بين الاثنين، وصار الأستاذ أكثر إلحاحًا، يمرر سؤاله له كلما سنحت له فرصة بين الحصص الدراسية:

- صادق، هذه أمور لا ينفع فيها كثير من التفكير، لأنها تخص الإيمان.

- كن حرًّا.

- استفتِ قلبك، وكن قاضيًا على نفسك.

- تأمل عالم الغيب، وستصل إلى النتيجة الحتمية، بأننا نخضع لقوة حكيمة تسيّر هذا الكون.

وأعطاه نسخًا لمقالات نشرها في صحف محلية، استعرض فيها سير عظماء مبدعين، غيّروا دروبهم بناء على رؤيا رأوها، أو كشف من عالم الغيب، أو إخفاق جاء بمثابة صفعة من السماء، أو يقظة ألهمها مشهد مؤثر. حدّثه عن دولة المهدي العادلة، المتسعة للناس

أجمعين، وليس المسلمين فقط، وعن أرض فدك، ليس بمفهومها التاريخي في الثقافة الشيعية كأرض حُرمت فاطمة الزهراء وراثتها، لتصبح فيما بعد رمزًا لبلاد الشيعة، إنما بمفهومها العالمي لتكون دولة الإمام المهدي الشاملة.

ولم يعِ صادق المغازي التي تنطوي عليها كتابات أستاذه، فعرض عليه أن يصطحبه إلى أحد اجتماعات الجماعة.

-٦-

كيف سألتقي الإمام المهدي وجهًا لوجه؟ هل هذه سنوات العالم الأخيرة التي ينتظرها الشيعة منذ قرون؟ رغم ثقتي بإخلاصه، أشعر بالخوف من الأستاذ غازي، ومن فكرته، ومن الإمام المهدي نفسه، الأمر أكبر من طاقتي. ثمة لحظات شعرت فيها بالراحة، لعل فكرة الانتماء إلى جماعة أغرتني، لأني يتيم الأم وأفتقد الأب، حتى أوشكت على الموافقة، لكن شيئًا قرص قلبي، أحسست برجفات في داخلي، رهبة تحوم في بطني.

تداول أهل الحي أخبارًا تفيد بأن جماعة الأمر قدمت طلبًا إلى الحكومة لتأسيس جمعية خاصة، مثل بقية الجماعات الشيعية، لكن كبار رجال دين أكدوا أن من ادعى مشاهدة الإمام المهدي هو كاذب، وحكموا على جماعة الأمر بالبدعة والفسق والضلال، ودعوا الناس إلى مقاطعتهم في فتاوى قرئت في المساجد، ثم اجتاحت البلاد موجة شعبية عارمة من التنديد بهم، وكشفت قوائم بأسماء المنتمين إليها. وراجت أفكار تدحض ادعاءات الجماعة منها أن علامات خروج

المهدي المعروفة لم يظهر منها شيء. واستعرض أساتذة جامعيون سير سفراء ادعوا الاتصال بالإمام في عهود مختلفة للغيبة الكبرى. أمّا أبي الوفي لأخلاق الطائفة فأعاد سيرته مع معتقلين من جماعة الأمر حين كان في سجن القلعة، قال إنه أكثر من يفهمهم، لأنه عاش مع زعيمهم باب المولى في عنابر الحبس نفسها، وسمع منه أحلامه أولها، واستغرب أن تلك الكلمات الغريبة المكتوبة على قصاصات ورق أمكنها أن تحدث هذا الشقاق العنيف في نسيج الطائفة.

سمعته يفاخر بأنه يتفحص وجوه المصلين في المسجد، ويطرد مناضلين كانوا معه بالأمس في السجن، لأنهم من الجماعة المغضوب عليها. عماتي يتهمن عوائل برمتها من دون تمحيص، فقط لأن أحد أفرادها ينتمي إلى جماعة الأمر. عبدالزهراء يشكك فيما راج عن العقل المدبر لهم وأنه في الأصل كان مقلدًا للسيد الشيرازي، مرجعه نفسه.

بينما العامة اعتبروا جماعة الأمر فاسقة، أفرادها خارجين عن الملة والمذهب، وشككوا في حِلِّية الزواج منهم، وبالغ البعض أن أولادهم غير شرعيين. تمادت مقاطعة الجماعة، وأصبحت ضربًا من الجنون، أُوغرت صدور عوائل كانت يومًا ما متصاهرة ومتحابة، وطُلقت نساء اكتشف أزواجهن أنهن ينتمين إلى جماعة الأمر.

في المدرسة، كشف الطلاب قائمة المنتمين إلى الجماعة، من ضمنهم الأستاذ غازي وعدد من الطلبة انضموا إلى جماعته سرًّا، متطرفون نبشوا في تاريخ الأستاذ غازي، بحثًا عن نقائص في الدين، وفضائح

في الأخلاق، وطالوه بتعليقات مبتذلة في فصل الدراسة، وفي الفسحة كانت حماقاتهم أكثر سخفًا، يعترضون طريقه، ويتحلقون حوله ساخرين. ذات فسحة، نشب سجال بين قرويين وطالب من الجماعة، كأنهم يحاكمونه، وحين حاولت التدخل بينهم اتهمني أحدهم بأنني واحد منهم، فنفيت التهمة، لكن أحدًا لم يصدقني بسبب صداقتي بالأستاذ غازي.

ارتفع صراخهم في وجهي، وبصق أحدهم أمامي، وحين رفعت يدي محذرًا، أمسكها ولواها بقوة، تخلصت من قبضته، وانقضضت عليه بكل قوتي، وتبادلنا لكمات عديدة، حتى فك عراكنا أحد المدرسين وسحبنا إلى مكتب المشرف الإداري الذي أجرى مكالمات سريعة مع ولي أمر كل منا للحضور إلى المدرسة.

جففت الدم على شفتي بكم قميصي وتحسست أسناني بسبابتي، اللعين كسر نتفة أخرى من ثنيتي المثلومة! في طريق العودة إلى البيت فكرت في لقائي العصيب بأبي، تمنيت لو أنه ما يزال في المنفى، ليحضر جدي بدلًا منه، كما فعل في الإعدادية.

-٧-

- الحاج جواد، نرجو حضورك إلى المدرسة غدًا.

طار عقله لمَّا عرف أن طلبة متعصبين ضربوا ابنه بتهمة الانتماء إلى جماعة الأمر. فأن يُنفى خارج البلاد مرة أخرى أهون من رؤية بكره عضوًا في جماعة السفارة. لوّم نفسه لأنه منذ رجع من منفاه، لم يبذل جهدًا لمراقبته، مثلما فعل في طفولته، لم ينتبه لاهتماماته، لا كتبه ولا أصحابه، وفاته أن يتحرّى عن الأستاذ غازي الذي انكشف اسمه في القائمة المقاطَعة.

يا للعار! تحسر الحاج جواد في سرّه، قبل أن يصدع رؤوس الناس بضرورة مقاطعة الجماعة، كان الأولى لو حصّن أهله منها. أسرَّ إلى مقربين بأن سيرة هذه الجماعة تلاحقه منذ الثمانينيات، زعيمهم شاركه السجن في القلعة العتيدة، شاب وديع رأى في المنام السيدة فاطمة الزهراء تهديه لإصلاح نزاع في الزنازين، كانوا ملتزمين لا تفوتهم صلاة، لكنهم يختلفون حول أحقية المرجعية، فريق يتعصب لباقر الصدر، وآخر يتعصب لمحمد الشيرازي. تقبّل

الجميع ما يقوله الشاب، لأن رؤيا الأئمة في المنام أمور مألوفة في العرفان، يرتاح لها الشيعي ويقبلها من دون مساءلة. أصلح الشاب خلافهم، وبعد عام رأى في منامه الإمام المهدي المنتظر، وسفيره الثالث، الحسين بن روح، فاعتزل نفسه في زنزانته لأيام، ثم خرج بقصاصات ورق كتبت عليها عبارات غريبة، قال إنها من لدن مكاشفات مع الإمام، وقال بعدها إن رؤياه بشارة منه ليؤسس جماعة خاصة به. تبعه بعض السجناء وسموه: باب المولى، ودب النزاع في الزنازين بين مناصريه ومناوئيه، واشتبكوا بالأيدي غير مرة. عاش جواد تلك الأجواء العنيفة، اختلف مع جماعة باب المولى، لكنه تعاطف معهم، رأى فيهم رجالًا مؤمنين، مخلصين، غير أن حالة اليأس، وأجواء السجن العصيبة جعلتهم يقبلون على الأمر كبارقة أمل تلوح من عالم الغيب، وتوقع أن تتلاشي جماعتهم من تلقاء نفسها، بمجرد أن يشم الرجال نسيم الحرية. لكنهم خرجوا من السجن، وأخذوا يروجون لدعوتهم في تكتم هادئ، وانتشر بين الناس ما وقع في الزنازين، وروي بصيغ شتى، ولم يغِب الإمام المهدي عن أيٍّ منها. المناضلون الذين دخلوا السجن كجماعتين مختلفتين صاروا ثلاثة.

فقهاء الشيعة رفضوا جماعة باب المولى، اعتبروا رأيهم فاسدًا، واحتجوا عليهم بأنه لا سفارة للإمام المهدي في عهد غيبته الكبرى، وحصلوا على فتاوى من فقهاء في العراق وإيران ولبنان تؤكد ضلالهم، وحثوا الناس على مقاطعتهم. وصار جواد عدوًّا لدودًا

لهم يدعو إلى عزلهم عن الجسد الشيعي، يخيفه أنه مهما حاربهم فإن أعدادهم تزداد، وتضم عوائل ميسورة، ومثقفين بارزين يتميزون بدرجة عالية من الانفتاح الفكري.

ذهب على عجل إلى بيت العائلة، وفي غياب ابنه بالمدرسة، فتش غرفته مثل مجنون، بحث عن كتب الجماعة، لم يجد سوى أقراص مضغوطة لأغاني خالد الشيخ، ودواوين شعر لقاسم حداد، وروايات لغسان كنفاني، ودفاتر بها قصص قصيرة بخط ابنه، وغادر الغرفة ساخطًا.

- موسيقى! وأشعار يساريين! وكتب فلسطينيين! هذا الولد لا يعرف ماذا يريد!

اجتمع بأخواته، زهراء وخديجة وفاطمة، أخبرهن بالأمر فانتابهن الهلع، يصدّقن الخبر مرّة، ويكذّبنه مرّات، وانتظرن رجوع صادق من المدرسة. هاتف الحاج جواد أخاه الحاج عباس الذي كان أكثر نقمة على جماعة السفارة، لكنه اعتذر عن حضور الاجتماع الطارئ:

- لا جدوى من النقاش، لقد خسرنا الولد.

فاطمة أذهلها الخبر عن الكلام، بينما صاحت خديجة:

- يا للفضيحة!

أما زهراء فعارضت الجميع وقالت لأخيها بثقة:

- لا تقلق، ولدك ذكي، لا تنطلي عليه أفكارهم.

قالت عبارتها موحيةً أن العائلة لم تغفل عن تربية ابنه في غيابه.

أجاب:

- الذكاء وحده لا يكفي، رأيت في السجن رجالًا معممين يستجيبون لدعواهم.

دخل صادق، بدا مروعًا، الكدمات في وجهه أثارت شفقة عماته، لكن الحاج جواد وجد فيها ما يقنع بأنه صار واحدًا من جماعة السفارة.

بادرت زهراء واحتضنته:

-حسبي الله على الملاعين الذين آذوك!

ثم تابعت بحنان وهي تراقب الأب بطرف عينها:

- حبيبي، قل لأبيك إن الضالين لم يخدعوك.

صادق انفلت من حضن عمته في نوبة هستيرية، أراد أن يقول شيئًا، تنهد بقوة، لكنه أمسك عن الكلام.

صرخ الأب:

-- هيا أجب لماذا لا تجيب؟

وانفجر صادق بصوت هادر لم يسمعه أحد من قبل:

- لست من جماعة الأمر! لست واحدًا منهم..

ثم تقطع صوته باختلاجات ودموع، تركوه يذرف كفايته

منها، خيّم الصمت للحظات، نظرات العمات القلقة لا تفارقه، كن مدهوشات بجرأته.

قالت زهراء بشيء من الأمل:

حسنًا صادق، إذًا أنت لم تنضم إلى جماعة السفارة!

وصرخ الحاج جواد ثانية:

- لا تصدقوه!

ثم أمسك ذراع صادق:

- أعرف ما تقوم به في المدرسة، لا تنكر! أنت واحد من جماعة السفارة، اعترف!

حاول صادق أن يتخلص من قبضته ولم يفلح:

- أعترف بماذا؟

رفع الأب يده ليصفع ابنه، لولا أمسكت زهراء ذراعه:

- يكفي! هذا يكفي!

خديجة وفاطمة وقفتا مروعتين.

صادق استقوى بموقف عمته وانتزع ذراعه من قبضة أبيه، وصرخ من دون أن يسيطر على نفسه:

- أنا لست منهم! أقسم بالله العظيم!

قال مختنقًا بعبرته، ثم استدار إلى عماته:

- أنا لست منهم! ماذا تريدون أن أقول لكم؟

جمد الأب في مكانه، مشدوهًا بابنه الذي يتعرف عليه للمرة الأولى.

خديجة رفعت رأسها ناحية غرفة أبيهم في الطابق الأول، مخافة أن يسمع الصراخ فيشتد مرضه، وضربت على صدرها:

- من أين حلّت علينا هذه المشاكل؟

وقال الحاج جواد:

- لن ينطلي عليّ قسمك ولا دموعك، سيكون ردي على أستاذك الملعون.

وكان الجميع يعرفون ما يمكن أن يقوم به في أمر يخص الإيمان، وسمعة العائلة، وتاريخه النضالي.

-٨-

صعدت عتبات الدرج أجر رجلي، أشعر بالظلم القاسي، مررت بغرفة جدي الذي لولا مرضه لساندني في هذه المحنة. تمددت على السرير، الدماء تفور في عروقي، لأني توقعت تعاطفًا من عائلتي، وليس تحقيقًا سافرًا، ورغم ذلك كان شيء في داخلي يرفرف سعيدًا، ليس لأني أخفيت عنهم أن الأستاذ غازي حاول غير مرة أن يقنعني بالانضمام إلى جماعته، إنما لأنني انتفضت وصرخت في وجوههم، شعرت بأن كلماتي لم تخرج من فمي، بل من جزء غائر في روحي.

في الصباح، وقّع أبي على أوراق التعهد أمام مدير المدرسة. وبعد جرس الفسحة، تجمع الطلاب مرة أخرى حول الأستاذ غازي في الساحة، وسخروا منه:

- ماذا يقرب لك السفير؟

رد عليهم بوقار المعلمين:

- **لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ.**

- لا تروّج لأفكارك في المدرسة!

- لا تفسد عقول الطلبة الجدد!

أحدهم تملأ وجهه بثور الشباب، صرخ بصوت المراهقة الأجش:

- من أنت لكي تنتقد العلماء؟

ثم دفع الأستاذ وأوقعه على الأرض، فانكسرت نظارته. تقززت من المشهد، ما يقترفونه عمل خسيس مهما كانت الحجج. في نهاية اليوم، رأيت سيارته بنوافذ محطمة أمام المدرسة.

الطلاب يشيعونني بنظرات حاقدة حين أمر بهم، بعضهم يهزون رؤوسهم في إيماءات متعاطفة، كما لو أني مصاب بمرض، أحيانًا أسمع ضحكاتهم يصيحون ورائي: **ابن السفراء!** وأمضي في سبيلي لكيلا أتعارك مرة أخرى. أجلس على كرسيّ وأتجنب مجادلتهم، أشعر بأني منبوذ، محاصر في حرب بلا حلفاء، جدي بلا ذاكرة، أبي صار خصمًا لي، وأستاذي مقاطع، وأنا مكبل بالشعور بالظلم، وفي الليل تدهمني كوابيس وتعرق.

طالب فقير ردّ على الأستاذ غازي ملابس شتوية كان تصدق بها عليه، آخر قال ساخرًا إن مؤذن المسجد في قريته يدعو قبل الأذان: اللهم العن السفير وأتباعه. وكنت أتعذب في داخلي، لا سيما حين يغتابون الأستاذ غازي، ويتناقلون شائعات باطلة حوله ويزايدون، يستفزونني لكي أخرج لهم من غضبي مدافعًا، لكني أسكت خائفًا من سوء التفسير، أتظاهر أن الأمر لا يعنيني،

وأستغرب أن الأكاذيب مع تكرارها تصبح حقيقة مقبولة. وفي يوم استنكر مدرس التاريخ الأردني:

- لا يجوز أن تغتابوا أخًا لكم في الدين!

وأضاف بصراحة فاقعة:

- إنه شيعي مثلكم!

خفض الطلاب رؤوسهم، لكنهم حين اختلوا بأنفسهم، ذكروا ما يسوء الأستاذ غازي، حقًّا وباطلًا، مبررين لأنفسهم أنه لا غيبة على فاسق، وبالمبدأ نفسه أغروني لكي أروي لهم ما أعرفه عنه من أشياء منحرفة، أو طقوس شاذة، لكني لم أختلق لهم ما يرضيهم، فزادت شكوكهم حولي. بمرور الأيام اطمأنوا إلى أني لست من جماعته، عدا ذلك المتشدد الذي تعاركت معه، سمعته يفتري عليَّ بكل وقاحة:

- صادق من أصحاب البدعة، ولعله تاب الآن.

وتابع بما يردده الفقهاء:

- لكن توبته لن تقبل إلا إذا فضح زعيمه الدجال، وإذا امتنع فهو مراوغ، يمارس التقية.

-٩-

قدّم الأستاذ غازي بلاغًا إلى الشرطة ضد طلاب مجهولين حطموا نوافذ سيارته، ثم سحب البلاغ حسب أوامر تلقاها من جماعته. أولياء الأمور للطلبة قدموا عريضة احتجاج ضد الأستاذ غازي، طالبوا بفصله بحجة أنه يفسد دين أبنائهم، وانتقلت القضية إلى وزارة التربية والتعليم، وكان واضحًا أنه لا إدارة المدرسة ولا الوزارة قادرتان على الصمود أمام غضب أولياء الأمور، ومن خلفهم عمائم البلاد. فتقرر نقل الأستاذ إلى مدرسة نائية، قريبة من الصحراء، يرتادها قلة من أبناء البحارنة، وقال المسؤولون إن قرارهم جاء لمنع الفتنة، ومراعاة للسلم الأهلي في المدرسة.

- لا يهمنا أثبات صدقنا من كذبنا، الزمن كفيل بهذا، في هذه الدار أو في ما يليها.

جاءته تعليمات أخرى من الأخ الأكبر في الجماعة، وذكره بما قاله المولى نفسه، ويحفظونه كنبوءة مقدسة:

- **الحذر الحذر من الناس، فقد أقلّ الناس وبقي النسناس، ذئاب**

عليهم ثياب، إن استفردتهم جرّموك، وإن استنصرتهم خذلوك، وإن استنصحتهم غشوك، وإن كنت شريفًا حسدوك، وإن كنت وضيعًا حقّروك، وإن كنت عالمًا ضلّلوك وبدّعوك، فمعاشرتهم داء وشقاء، ومزايلتهم دواء وشفاء.

وبذلك الحذر من النسانيس، مضى الأستاذ إلى المدرسة النائية صابرًا على ألمه، ولكن من دون أن يشعر بالهزيمة، يذكّر نفسه بأن كل ظلم في العالم هو علامة من علامات نهاية العالم، حتى أنه يشعر أنه لا يعيش على جزيرة البحرين، في العام ٢٠٠١، إنما في بقعة نورانية يحكمها الإمام المهدي، وفي زمن بين الأزمان.

دخل فصل الدراسة يحمل في حقيبته عهد الولاء للجماعة، يدعو أن يوفقه الله، فيسمع طلابًا في يوم ما يقرون به: **أقسم بالله جهد إيماني، أن الطاعة والولاء لكم، وألا أحول ولا أميل ميل الانحراف عنكم، وألا أشكو ألمًا في رضاكم، وأن أرفع كل صغيرة وكبيرة إلى مقامكم. وأن أسعى لتحقيق فدك الصغرى ما دمت حيًا، وفدك الكبرى ما دمت فيكم عمرًا، والله على ما أقول شهيد.**

جيرانه كذلك افتروا عليه، يسمع كلماتهم المؤلمة من خلفه، ويردد في خلوته الآية التي أصبحت شعارًا لهم أثناء الفتنة: **لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ**، وبالفعل لم يرفع أستاذ غازي يده في وجه أحد، إنما رفع قلمه، ونشر مقالة في صحيفة محلية، لم يشكو من تعنيف النسانيس، بل دافع عن جماعته، من دون أن يستعين بمنطق الإسلام، أو يستشهد بالآية، **لَا إِكْرَاهَ فِي**

الدِّينِ، لأن كل فريق يستخدم الآيات ضد خصمه، بل استعرض ما أنجزته الحضارة الإنسانية من تقدم في مجال الحريات التي كفلها ميثاق حقوق الإنسان، ومنها حرية الاعتقاد.

-١٠-

في بيت تاجر له علاقات رفيعة، دخل الأستاذ غازي يلبس نظارة مكسورة، إطارها مثبت بشريط لاصق، ظانًّا أنه يحضر اجتماعًا من أجل بحث مصير تلميذه صادق الديني، لا يعرف أن الحاج جواد قد جاء بسبب الأحداث التي أوجعت قلبه، إذ صار يعتقد أن الطائفة ممزقة، ما عاد لها روح واحدة تجمعها، في وقت هي في أشد الحاجة إلى التماسك، كي تحصل على التمثيل الذي تستحقه في الانتخابات القادمة، أتباعها مشرذمون في جماعات متنافرة، تفرقهم جماعة السفارة، فلا يصلون معًا في المساجد، وتفرّقهم المراجع فيحتفلون بالأعياد في أيام مختلفة، وتفرّقهم نظريات الحكم في تيارات لا تتوافق مع ولاية الفقيه، وتفرّقهم شعيرة التطبير التي لم يتفقوا على حليّتها بعد. هذا كله بينما بسطاء البحارنة يخادعون أنفسهم في تفاءل أحمق يقولون إنهم جماعة واحدة.

لو أن الأمر يخص صادق فقط لطلب الحاج جواد من الأستاذ غازي أن يبتعد عنه وانتهت القصة، لكنه هدده:

- أحذرك من استغلال وظيفتك لتضم الطلاب القصّر إلى جماعتك.

أجابه:

- لسنا حزبًا سريًّا، بل واقعًا ينبغي أن تقبلوه، ما الخطر لو حدثنا الناس عن مولانا الإمام المهدي؟ دعنا نتخيل أننا الآن نعيش الزمان الذي يظهر فيه...

قاطعه الحاج جواد:

- ليس هذا زمان الظهور!

- يا حاج، تتحدث عن مولانا وكأنه إمام متفرج على الزمان! ما نعمل به هو ما تعمل به الجمهورية الإسلامية، نمهد لدولة الإمام المنتظر.

- كيف تمهدون لدولته؟

- وفق تعليمات من لدنه.

- أية تعليمات؟

- يا حاج، إن تشريفنا بلقائه هو بمثابة ظهوره الأول والذي سيمهد لظهوره النهائي.

- بالله عليك يا أستاذ! هل تدرك خطورة ما تقوله؟

- أدرك أنها فكرة تصعب على استيعابكم، لكنكم يا حاج حين تعتقدون أنها فكرة مستحيلة، وحرام، وبدعة، فإنكم

تختارون أن تمنعوا أنفسكم من فرصة اللقاء بمولانا.

- ماهر أنت في الكلام، مثل زعيمك!

- أستغرب رد فعلك يا حاج! تؤمن بوجود مولانا الإمام حيًّا يرزق، لكنك تستعظم لو أنه اتصل بأحد المؤمنين!

- أستاذ، ما الهدف من وجود جماعتكم؟

- اعلم يا حاج أننا مع مولانا صاحب الزمان، هو مسددنا، وهذا أمر لا رجعة لنا فيه، ومن ذاق عرف.

ثم أردف:

-شتان ما بين المستأنس لأمرنا ومستوحشه، إذ الأول مرافق موافق لاحق، والثاني صافق عارق صاعق.

بهت الحاج جواد:

- من قال هذا الكلام؟

- مولانا الإمام المهدي نفسه، عجل الله فرجه، كما جاء به باب المولى.

- دماغك مبرمج! كيف سمحت لعقلك أن يصدق هذه الكلمات؟ أحذركم! إنكم تواجهون طائفة برمتها تقول إنه لا أساس شرعي لكم، والرؤيا التي يتحدث عنها صاحبكم مجرد أحلام، ولعلها أضغاث.

رفع الأستاذ يده محتجًّا:

- هذا منطق فقهاء يدركون أن ما نسعى إليه من تجديد في الدين، وتحرير للعقول، سوف يحرمهم من الزعامة.

- اسمعني جيدًا يا أستاذ! ليس هذا وقتًا للتجديد في الدين، نحن نريد وحدة الطائفة، الانفتاح السياسي الذي تعيشه البلاد يتطلب ذلك، الانتخابات تتطلب وحدة الكلمة، هذا أمر بالنسبة إلينا حركي وسياسي، ليس عقائديًّا فقط.

-لسنا ننازع أحدًا في جاه أو سلطان، ولسنا نطمح إلى كسب مناصب الدولة.

هدد الحاج جواد بسبابته:

- ألغيتم تقليد المراجع، فبماذا تلزمون أنفسكم إذًا؟

- نلزم أنفسنا بعقولنا الحرّة وبالقرآن، فليس هناك نص موحًى به سواه.

- يا أستاذ، أمركم الذي تسمونه شريف مليء بالمغالطات، لا يمكن أن تكون هذه خطة الإمام المهدي! اللهم عجل فرجه ليكشف زيفكم.

ونهض الأستاذ متحديًا:

- ليس بأمرك يخرج مولانا الإمام، والأمر لم يختم بعد! وكل شاة برجلها معلقة!

انتهى الاجتماع، وبعد شهور رجعت الجماعتان إلى هدوء غير

معلن، لم يُقتل أحد، لم يفصل أحد من عمله، فقط تطلقت بعض النساء، وتحطمت نوافذ بعض السيارات.

-١١-

اجتزت امتحانات الثانوية النهائية بلا جدارة تذكر، ولا تقدير يشرف، لم أحصل على منحة أو بعثة من وزارة التربية والتعليم. وشعرت أنه ليس من العدل أن يدوّن في ورقة منمقة أني حصلت على شهادة الثانوية العامة، والأليق لو كتبوا في شهادتي أني تخرّجت في جامعة حي الحمّام، وحوزة بيبي حسينية، ومدرسة الأحاجي للحاج عبدعلي، وأكاديمية مأتم بن كاظم، والكلية الرياضية لمقبرة المنامة.

نجح عبدالزهراء بمعدل عالٍ، ورافقته إلى وزارة التربية والتعليم حيث قدّم طلبًا لدراسة إدارة الأعمال في إحدى الجامعات السعودية. موظف البعثات حدّق إلى اسم عبدالزهراء على الورق، وعلّق:

يمكن لاسم مثل عبدالرسول أن يصبح عبد رب الرسول، وعبدالأمير أميرًا، وعبدالحسين حسينًا.

ثم رفع بصره نحونا:

وعبدالزهراء يمكن أن يصبح زاهر، مثلًا.

عبدالزهراء أطلق صفيرًا من تحت لسانه إعجابًا بالاسم المقترح، رغم أنه جاء على سبيل المثال. ولأنه بلغ السن القانوني، رفع دعوى ضد نفسه في المحكمة طالبًا تغيير اسمه، وخلال مدة قصيرة رجع إلى مكتب موظف البعثات مسلحًا باسم جديد: زاهر، ملأ استمارة الطلب وهو يصفّر بمزاج سعيد. وبعد أسابيع رُفض طلبه للمرة الثانية، موظف البعثات رفع يديه في الهواء، مخليًا مسؤوليته مما حدث:

- اسم جدك عبدعلي ما يزال عالقًا على الأوراق!

في بيت العائلة، أعادت العمات سيرة المعجزة العظيمة، عمي عباس قال ساخرًا:

- لولا صرخة تلك العجوز: معجزة! لكانت القطرات المتسربة من السقف قد تبخرت من دون ضجة.

عبدالزهراء الذي أصبح فورًا زاهر حصل على قبول لدراسة إدارة الأعمال في جامعة البحرين، أما أنا فلم أعرف وجهة، درجاتي المنخفضة حاصرتني بفرص قليلة. نصحتني عمتي زهراء بالدراسة في بغداد، وليست أضرحة الشيعة في العراق بعيدة عن تفكيرها. رفض أبي الاقتراح، ليس بسبب الحالة الأمنية، ولا الحصار الذي تفرضه الولايات المتحدة على نظام صدام، كان يخشى خصومه الأيديولوجيين:

لن أسلم ابني إلى وكر البعثيين!

والحقيقة أنه لم يكن مقتنعًا أني في مأمن من جماعة الأمر، يقلقه أنهم يزدادون عددًا، ينتشرون بين المتعلمين، ينضم إليهم مثقفو البلاد وأساتذة الجامعات، ربما خشي أن أتواصل معهم في السر، لا سيما أني بلغت السن القانوني، ولن يستطيع أن يعاملني كطفل كما اعتاد. لم يكن أبي يخشى عليَّ من الغربة، إنما من الوطن، رغم اعتقاده أن الأفكار الخطرة تأتي دومًا من الخارج، وطالما كرر أن الشباب يرجعون من موسكو شيوعيين، ومن بغداد ودمشق بعثيين، ومن القاهرة قوميين، لكنه لا يذكر أبدًا أولئك الذين يرجعون بعمائم من قم.

لخيبة أمله، اكتشف أبي في زحمة حياته المليئة بالنضال أنه لم يوفر مالًا لدراستي، لكن تاجرًا ثريًّا من معارفه، يزكي أمواله بابتعاث طلبة للدراسة في الخارج، منحني بعثة لدراسة الأدب الإنجليزي في لندن. ووافقت من دون تفكير، إنها المرة الأولى التي يبتسم فيها الحظ لي، فقد تطور لديَّ شعور صدقته مع نكبات الأيام أني شخص غير محظوظ. نسيت خلافي مع أبي، وانتشر في العائلة تفاؤل يبشر بأننا نفتح صفحة جديدة، ووجدتها فرصة لأعتق نفسي من سطوته. ورغم ازدرائه لدراسة الأدب مذ كنت طالبا في الثانوية، لكنه وافق على دراسة الأدب الإنجليزي، وبدا خيارًا جاء كحل لمشاكلنا جميعها.

قلت مزهوًّا بالفرح:

- زاهر، من يصدق أني سأدرس في لندن؟

أجاب:

- لو كان جدي حاضرًا بعقله لاحتج قائلًا: تدرس أدب المستعمرين؟ وكأن العرب ما لهم من آداب!

مضيت لوداع جدي ولفحتني في غرفته رائحة مزيج من مرهم فيكس النفاذة وعطر كولونيا. جلست على حافة السرير، المروحة تأن فوق جسده المنكمش، انتبه لوجودي فتوهجت في عينه ابتسامة واهنة، حدّق إلى وجهي موحيًا بأنه يتذكرني، لكن من دون القدرة على إبداء حفاوة. وضع يده على يدي، وكما لو أنه متيقن أن ذاكرته ستخونه في يوم ما، راح يتأمل الصور على جدران الغرفة، الإمام علي، وجمال عبدالناصر، وزوجته، وأولاده، وأحفاده. كل لقطة هي جزء من ثانية، ثانية واحدة ينظرها جدي بسنوات عمره الثمانين.

رجفت شفتاه بصوت ضعيف:

- شجرة لا ظل لها ولا ثمار؟

ربما يسمعها آخرون هذيان عجوز خرف، لكن جدي يحاجيني، وأسعدني أنه ما يزال يمتلك القدرة على صياغة أحجية، رغم حالة النسيان المزرية. كم ضربة ودودة تلقيتها على رقبتي لأني فشلت في حل ألغازه، غير أنني لم أرَ قط ردة فعله عندما أعرف الإجابة الصحيحة، لأنني لم أحزر إجابة صحيحة قط، وها هو يرمي الأحجية الأخيرة، العبرة التي تأتي في آخر العمر، أعرف الإجابة هذه المرة، علّمني إياها بنفسه ثم نسي الحادثة.

أجبته متصنعًا نبرةً غير واثقة:

- العائلة!

سمعها ورفّت رموش عينه اليسرى، وصفّق بيديه، ولم يصفق رقبتي.

مر الصيف بسرعة، لحماستي للسفر لم أحس بشمسه اللاهبة، ولا رطوبته الخانقة، وفي آخر يوم لي جاء أبي يقدم إليَّ محاضرة أخيرة، توقعت أن يطلب أن نبقى على تواصل، ليمدني بالعزيمة في الغربة، العالم الجديد عليَّ، تمنيت لو قدم إليَّ نصيحة الشاعر أبي تمام: اغترب تتجدد. أو ذكّرني بشعر جده الملا سيد علوان:

ونيل العلم جوع واغتراب وبُلغةٌ

وصحبة أستاذٍ وطول زمان

لكنه حكى لي سيرة ست سنوات قضاها في لندن بين الإنجليز، لوّح بسبابته محذرًا من أنوثة فتياتهم الطافحة، وجرأتهن على الفسق.

ثم ربت على كتفي:

- لكنهن لن يستطيعوا أن يغووك لأن عندك هذا.

وأعطاني القرآن.

الفصل السادس

-١-

الشوارع مشهورة رأيتها في الأفلام، الأشجار عملاقة، الحافلات ذات طابقين، العمارات عريقة واجهاتها رخامية، الميادين فسيحة مبلطة بأحجار صغيرة، التماثيل برنزية لملوك يمتطون صهوات الخيول، نسمات باردة تهب من نافذة سيارة الأجرة، أتأمل لندن بعين مغرمة، راغبًا في الألفة معها، متحمسًا لدراسة الإنجليزية، واجتياز امتحان الآي ليفل، لكي أتأهل لدخول الجامعة.

– There we go, mister.

وضع سائق سيارة الأجرة حقيبتي على الرصيف. السيدة جوديث الخمسينية، بنمش في وجهها رحبت بي في منزلها، قالت إنه صغير يتكون من صالة ومطبخ وغرفة نوم في الطابق الأرضي، وأشارت بيدها إلى الطابق الأول:

- هناك غرفتك، غرفة ابنتي جين التي تدرس في باريس.

شكرتها بإنجليزية صدئة:

شكرًا مسز جوديث بارك...

قاطعتني: لا داعي إلى هذه الرسميات، يمكنك أن تناديني جودي، وهذا قريني روب.

وابتسم لي روب الجالس على الكنبة، ستيني له عينان زرقاوان، علّق بنبرة خالية من المشاعر:

نعم، جودي وروب فحسب.

تدخلت جودي بكلمات أرادت لها أن تكون صافية:

- نحن لسنا زوجين، نعيش معًا منذ عشرين عامًا، ونتشارك مصاريف المعيشة.

وتابع روب في شيء من عصبية:

- المعتوهون فقط يفضلون زواج يباركه قس، وينجبون أولادًا، وكما ترى لسنا في عمر الإنجاب.

ثم دار ناحية شريكته:

- أليس كذلك يا جودي؟

- لا تشرك الولد في هرطقاتك!

ابتسمتُ ببلاهة، لست واثقًا أني فهمت قصده:

- من فضلكما، أريد أن أرتاح في غرفتي.

وصعدتُ عتبات السلم بحقيبتي، واستوقفني روب بنبرة جادة:

- صادق! هل تملك عائلتك ثروة هائلة؟

تمتمت جودي معتذرةً:

- عزيزي صادق، أستميحك أن تغفر له هذه الفجاجة.

روب عسكري متقاعد سكير، يقرأ صحيفة الجارديان كل يوم، ويتذمر من أداء الحكومة والأحزاب، أحيانًا يعيب كاميليا صديقة ولي العهد شارلز، لكنه لا يسيء أبدًا إلى الملكة. لا يحتسي الشاي إلا بالحليب، ويعتقد أنه من التحضر احتساؤه مع البسكويت، ولا ينام إلا بعد أن يشاهد أخبار الثامنة، ويطمئن أن العالم بخير، أو يسهر قليلًا إذا كانت هناك كارثة.

جودي اقتصادية في إدارة البيت، تسألني عند الفطور:

- بيضة أم بيضتين؟

وتخلط الكلام بالضحك:

- نحن شعب لا نحب التبذير.

لكني وجدت في عاداتها حدًّا قريبًا من البخل.

تعيش معنا في البيت مكتبة صغيرة، يقيم بها داروين، وديكنز، وأوستن، وجيمس جويس، وأوسكار وايلد، وكم من مرة أشار روب إلى تلك الأسماء، ونصحني:

- لا تكن مثل الإنجليز الذين يضيعون أوقاتهم في الثرثرة وتوافه الأمور مثل حالة الطقس.

أما سيزار فيحتل الحديقة الصغيرة، له فرو أبيض مبقع بلطخات بنية، قال روب إنه من سلالة بيجل، ولم أعترف لأحد أني أخاف منه، أرتجف في داخلي حين ينبح، وأقرف من لعابه الذي يتطاير من فمه. حين يخرج روب وجودي للتسوق، يغلب عليَّ طبعي الطفولي، أرفس سيزار وأجري هاربًا إلى غرفتي، وأغلق الباب ورائي. في المساء، يعوي سيزار بصوت خافت عند مائدة الطعام، وتكون نظراته إليَّ شرسة، وإلى روب مستكينة.

- ما بال سيزار اليوم؟

تستغرب جودي.

عشنا في البيت يكره كل منا الآخر، أحذر سيزار ويحذرني، إذا غاب أصحاب البيت رفسته، وإذا حضروا كشر لي عن أنيابه. بررت خوفي منه بأن الإسلام يعتبره نجسًا، وينبغي عليَّ كمسلم أن أغتسل سبع مرات إذا لامسني لعابه. روب الذي كشفت الأيام أنه ملحد لا يحترم الأديان، استهجن كلامي بحركات نزقة من يديه، أما جودي فتشرح لي بصبر كلما ركضت بعيدًا عن سيزار:

- لا تخف! إنه كلب مدرب ليعيش حياة متحضرة مع البشر.

ثم فهمت ظرافة الإنجليز، والنكتة التي يرمونها مخفية في أطراف حديثهم، أدركت أنني المقصود في التعليق، وأنني أحتاج إلى تدريب لكي أعيش حياة متحضرة مع الإنجليز وكلابهم. بذل روب جهدًا، وعلّمني أن أقدم البسكويت إلى سيزار، وأن أملّس فروه، وأمسى

الحيوان صديقي، يأتيني مستكينًا من تلقاء نفسه، ويتمدد عند قدمي، وحين أعود من المعهد يتقافز عليَّ هازًّا ذيله، لسانه الأحمر يلعب في الهواء. جودي كذلك أحبتني، تحتضنني كلما احتضنت روب، وكم أحببت حنانها، لكنني لم أعرف أن أعبّر لها عن مشاعري.

رغم عطف جودي، وظرافة روب، وصحبة سيزار، والمكتبة الصغيرة، شعرت بالاختناق في ذلك البيت الصغير، عشت طوال حياتي في بيت مفتوح على السماء، لا سقف له، المطر يغرقنا في الشتاء، الشمس تقدح على رؤوسنا في الصيف، وفي الليل نشم نسمات البحر، ونرى القمر يسرح في منازله، وتتسلّل إلينا القطط من بيوت الجيران. مثل سيزار، شعرت أنني أحتاج إلى أن أتمشى في الحديقة كل يوم، كي أهرب من غرفتي الصغيرة، تطوّعت لتمشية الكلب في نزهته اليومية في حديقة ريجنت، غابة منمقة كبيرة يلاعب فيها سيزار كلاب الآخرين، ويجبرني أن أكلمهم. أحيانًا يتغوّط في الشارع، فأزيل فضلاته في أكياس خاصة، خدمة تستلزم أكثر من غسل سبع مرات لكي أتطهر من النجاسة.

الفجر في لندن موحش، لا أذان فيه يبث الحياة في الحي، وبدلًا من هديل الحمام أسمع نعيق النوارس المزعج، تطلع الشمس ويبدأ مشواري إلى معهد كوفنت جاردن للغات، أتزاحم مع الناس في الأنفاق، أصعد قطارين لكي أصل إلى ميدان كوفنت جاردن، وفي نهاية اليوم أركب القطارين أنفسهما في الاتجاه المعاكس. مسافة طويلة، لكني تعلمت من الإنجليز أن أذاكر دروسي في القطار.

المطر في بلادي رحمة، أمر عابر يأتي كفسحة قصيرة من شمس حارقة معظم أيام السنة، لكنه في لندن لعنة، لما حضر أكتوبر، جاءت معه غيوم لم أرَ مثيلًا لها، كثيفة وقاتمة ومنخفضة، كأنها سقف هائل، يستحيل النهار ليلًا، تبرق فتعمي الأبصار، ترعد فتمزّق الفضاء من أول الكون حتى نهايته، كأنها حرب بين السماء والأرض، ثم تهطل أمطار غزيرة.

- تمطر قططًا وكلابًا!

يقول روب متذمرًا.

شكوت من شدة البرد، تجمدت أصابع يديَّ، وتنمّل ذقني، واستنكر زملائي في المعهد لبسي قبعة وقفازات من صوف:

- إنه الخريف! ماذا ستفعل في الشتاء؟

وبالفعل لم أعرف كيف أبقي جسدي دافئًا بعد حلول أيام الشتاء القارسة. هبت رياح جليدية من بحر الشمال، تغلغل زمهريرها في صميم عظامي، فسقطت مريضًا، واصفرَّ جسدي مثل أوراق أشجار القيقب التي تملأ الشوارع. وفي سرير المرض، داهمتني لحظات حنين إلى بلدي، عاد ذلك الطفل الذي كنته في طفولتي، وتذكرت قرى زرتها مع بيبي حسينية، وما دار بخلدي أن تلك الرحلات سترسم في مخيلتي صور الوطن الصافية، أتذكر السواحل فتحضر ملوحة البحر في فمي، أتذكر مقامات الأولياء فتحضر رائحة ماء الورد في أنفي، أتذكر العيون العذبة فتحضر صورة الأسماك الملونة، وتحضر

شقاوة عبدالزهراء، وأغاني بيبي الشعبية، والحروز الخضراء في معصمي.

ازداد الوجع في عظامي، فأخذتني جودي إلى عيادة تابعة للخدمات الصحية الوطنية، فحص الطبيب عينة من دمي، وشخّص مرضي بأنه عيب وراثي، فعند البرد تتكسر كرات دمي الحمراء على شكل منجل، وقال إني حامل للمرض، لست مصابًا به، فلم تظهر الأعراض في بلادي الحارة. اتضح أني لست معافى بالكامل كما اعتقد أبي، وظلّت عظامي تؤلمني بين الحين والآخر، لكني أخفيت الأمر عن أهلي، خشية أن يجبروني على الرجوع إلى دفء الوطن.

لم أهنأ في لندن حتى طلعت شمس الربيع الدافئة، وهنالك جاءتني أخبار البحرين الساخنة، قاطعت الجمعيات السياسية المعارضة الانتخابات النيابية، قال أبي في الهاتف بنبرة متهكمة:

- البرلمان الجديد ليس على مقاس أحلامنا.

- وجدي؟

- لم يعد يتذكر شيئًا! رجع طفلًا نعلمه مهارات جديدة كل يوم.

كلمني جدي من دون أن يتذكرني، ذكرته بالدكانة والشطرنج والأحاجي، لكن ذلك لم يعنِ له شيئًا، وراح يهذي بجمل غير مفهومة، وبكيت روح جدي التي لم يبقَ لها أثر، بكيت لأني اختفيت من حياته.

طارت تسع شهور كخيول السباقات، اجتزت امتحان الآي ليفل، وقبلتني جامعة إيست لندن كما هو مخطط، سارت الحياة في لندن كعادتها، لم يتغير فيها شيء، وكنت الوحيد الذي تغير، تعودت على حياة الإنجليز، صرت أحب سيزار، أصحبه في الحديقة العامة كل يوم، آكل بيضة أو بيضتين في الفطور، وأعرف طريقي في متاهة القطارات تحت الأرض، أتذمر من الطقس، وأقرأ صحيفة الجارديان كل يوم أحد، وفي أحد أعدادها قرأت قصة فلاح أيرلندي، سبعيني يبيع لحومًا مجففة في سوق شعبية في مدينة كورك، تعرفت إليه الملكة إليزابيث أثناء مرور عابر في زيارتها للمدينة الأيرلندية. كان العجوز حكاءً بالفطرة مثل معظم مواطنيه، واستلطفت الملكة قصصه، ودعته لشرب الشاي معها في قصر بكنجهام، وتبادل الاثنان كلمات قليلة، ثم طال اجتماعهما، وسرت شائعات أن الملكة حدثته عن أدق شؤونها، وأفضت إليه بأسرار القصر التي تدفع الصحافة البريطانية آلاف الجنيهات لتعرفها، ومن يومها والاثنان يلتقيان باستمرار، والصحافة تخمّن ما يجري بينهما. أعجبت بالصداقة الغريبة التي جمعت بين العجوزين، وتابعت ما يجري بينهما، وبدأت في كتابة رواية أخذت فيها الاثنين إلى علاقة روحية، واخترعت دهاءً خارقًا لدى العجوز، بحيث يقنع الملكة، رئيسة الكنيسة الإنجليزية، ويجعلها تتعاطف مع قضية الكاثوليك في شمال أيرلندا، الأمر الذي ينافي سياسة حكومتها. كتبت فصولًا عديدة، لكني لم أعرف كيف ستكون النهاية.

-٢-

أقمت في سكن الطلبة لجامعة إيست لندن، مكان يفور بشباب إنجليز، وآسيويين، وأفارقة، وكاريبيين جاءوا من جزر نائية كانت مستعمرات بريطانية في يوم ما، وعرب تتنازعهم مشاعر احترام وكره لدولة يؤمنون بأنها سبب تسليم فلسطين إلى اليهود.

في المدرج الكبير، تجلس فتاة رائعة الجمال، استعذبت أنوثتها، عيناها عسليتان، وشعرها كستنائي مموج، متفلت سعادةً ومرحًا، أجمل فتاة رأتها عيناي، أجمل من بنات عماتي البيضاوات. أراقبها من بعيد، لا أملك الجرأة مع النساء، عشت في كنف عائلة متزمتة عزلتني مبكرًا عن بناتها، ودرست في مدارس للبنين فقط، وترعرعت في حي محافظ، وطائفة تقليدية، حياة لم تؤهلني لإقامة علاقة اعتيادية مع فتاة.

تأزمت في اضطرابات مراهقة لم أنضج كفاية لأتجاوزها، ورجعت لي أعراض العشق نفسها حين تعلقت بسمية، لا يستهوينى شيء، أرغب أن أرجع إلى غرفتي، أتمدد في سريري وأتخيلها. في

خلوتي، أخطط أن أقول لها شيئًا، وأقترب منها في قاعة الدرس، غير أني أتراجع في آخر لحظة، ساخرًا من اندفاعي الصبياني، لكني أتلصص عليها، أراقب اهتزاز فستانها على خصرها النحيل خلسة، وأسترق النظر إلى شعرها المموج وهي تقرأ في المكتبة. في لحظة خاصة أفلت السرّ مني إلى رالف، زميلي الأربعيني في سكن الطلبة الذي يعد أطروحة دكتوراه في شعر أوسكار وايلد، ومنه عرفت أن الطالبة التي وقعت في حبها اسمها زيا، وأنها تدرس الدراما. معلومات قليلة، لكني انتشيت بمعرفتها، شعرت بالنصر لأنني أمسكت بجزء من حياتها.

في المكتبة أجلس بعيدًا لكي أجعلها في مرمى نظري، في الحديقة أراقبها تتأمل السماء، أسمعها تحدث صديقتها بلكنة أهل لندن الرشيقة، وأشم عطرها فيغمرني عبيره، يتغلغل في أنفي وروحي، وأرجع إلى غرفتي جذلًا، تهيجت مشاعري لهذا العبير، حتى أني ذهبت إلى شارع أكسفورد، أبحث عن هذه الرائحة في محل العطور، فوقع شمي على أريج زيا: بيربري. رششت منه قطرات على وسادتي، فسكنت الرائحة غرفتي، وشعرت برفاهية الحب، أشم عطرها كل ليلة، وأستدرجها إلى أحلامي.

-٣-

- زيا، ذلك الولد الأسمر متيم بك!

قالت صديقتها.

- أعرف!

شعرت به بغريزتها الأنثوية، يجيء ويروح بين المكتبة وقاعة الدرس، تلمح في نظراته هيامًا، تعتقد أنها نظرات جاتسبي نفسها التي وجّهها إلى حبيبته ديزي في رواية **جاتسبي العظيم**. عرفت أنه عربي، وتخيلته سليل سلاطين غابرة، والثلمة في ثنيته العليا توحي بسوابق في الشقاوة. تعمدت الضحك قريبًا منه لإثارة اهتمامه، وكان يتحفز ليقول شيئًا، ثم يتراجع بالعًا لسانه. استمتعت بأمره كتسلية، ولما عجز أن يصرح بشيء، شعرت بالضيق، وأحيانًا بالمهانة، وتخبطت في هواجسها، بل حقدت عليه، حتى أنها فكرت في طريقة لإذلاله.

تعذبها مشاهد الغرام على شاشة التلفزيون، لا تجد الصبر

للبقاء في البيت، تخترع الأسباب لكي تذهب إلى الجامعة، لتجلس في المكتبة شاردة أمام كتاب مفتوح.

- زيا تفعل أشياء غير التي تقولها.

تشكوها أمُّها عند أبيها، لكيلا تقول إنها تكذب.

قررت هي أن تأخذ زمام المبادرة، وفي يوم صادفته يقرأ في المكتبة رواية **إقناع**، قصة الحب المؤجل بين آن التي تتقدم نحو عنوستها وبين السيد وينتورث الذي ترقّى إلى كابتن في سلاح البحرية. اقتربت منه مندفعة وهمست:

- هل ما يزال هناك من يقرأ لجين أوستن؟

- جين أوستن؟ ... أو...، نعم!

لمح في يدها كتاب **نهج البلاغة**، مترجمًا إلى الإنجليزية، وعلّق:

- هذا كتاب يُقرأ بالعربية!

- لا أعرف العربية، هل أنت عربي؟

- نعم، أنا صادق.

صافحته:

- زيا، إنجليزية من أصل إيراني.

ظل ممسكًا بيدها من دون شعور:

- زيا من ضياء؟ يعني نور بالعربية؟

- نعم، زيا.

لا تستطيع نطق اسمها العربي بطريقة صحيحة، ضحكت بصوت عالٍ، فالتفت أمين المكتبة إليهما مستاءً، ووضع سبابته على فمه. كتمت ضحكتها، وهربت من المكتبة، ولحق بها صادق.

تنزها في حديقة الجامعة، ذرعا الطرق بين أشجار سرو، ودردار، وماجنوليا. لم يقل صادق: ما أجملك! عرفت ضياء ذلك من نظراته، نظرات جاتسبي، وراح صادق يخاطب فيها شيئًا آخر: الذكاء.

- نهج البلاغة كتاب لا يشيخ ولا يموت!

قال بحماسة، وحدثها عن فكر الإمام عليّ وميله إلى التشاؤم.

علّقت ضياء:

- ذلك طبع الفلاسفة جميعهم.

- أنا كذلك أعتبره فيلسوف العرب.

وابتسم صادق مغمورًا بسعادة الاتفاق في الرأي، واتسعت ابتسامته شيئًا فشيئًا، حتى ملأت وجهه الأسمر كلّه.

مشى الاثنان حتى ضفة النهر، حيث يمضي التايمز بمياهه في اتجاه البحر، النوارس تزعق على قمم الأشجار، والبط ينفض ريشه تحت أغصان الصفصاف، والشمس محتقنة بلون برتقالي فوق الأفق، والسماء مضمّخة بغيوم بنفسجية، والنسمات باردة تلعب

بشعر ضياء وهي تفكر. كيف لم تلحظ هذا الجمال من قبل؟ كيف صارت مرهفة الحس كأنها شاعرة؟ أحست بشيء جميل يرفرف في بطنها، وتركت نفسها تتمادى في مشاعر غامضة، وهي تنظر إلى صادق الذي كان يدفئ خديه بيديه، ويقول متنهدًا:

- غدًا ستمطر.

رجعا إلى حديقة الجامعة مخدرين، وجلسا على كرسي تحت شجرة زيزفون جبارة، وتحت نور الشمس الذهبي، تأمّلت ضياء تمثالًا برنزيًّا لامرأة تقرأ في كتاب مفتوح، وتحدثت عن أحلامها، صادق قطف زهرة حمراء من شجرة كاميليا، شمها مغمض العينين، ثم قدمها إليها، وسيتذكر ذلك اليوم، الثاني عشر من إبريل، على أنه عيد الحب الأبدي. وعلى ذلك الكرسي، تحت شجرة الزيزفون، وبعد جلسات عذبة كثيرة، انكشفت عواطفهما، إلى حد أنهما لم يكترثا أن يعرفا من الذي اعترف بالحب أولًا، وحلما أن يكبرا مع بعضهما، حتى يصبحا عجوزين.

-٤-

قاومتُ السقوط في حب ضياء، مؤمنًا بأنه لا مكان لي في حياتها، قرأت في رواية أن الجميلات لا يتزوجن إلا بأثرياء، لكن ذلك تغيّر حين اقتربت منها، وأصغيت إلى صدق أنوثتها، وجرأة أفكارها، وقبل ذلك إعجابها بالإمام علي الذي لا يصدر إلا من قلب شيعي صافٍ، أصبح سقوطي في حبها طبيعيًّا، أكثر شيء طبيعي في العالم. قصصت عليها تفاصيل حياتي كلها، منذ لحظة ولادتي لما أسمتني بيبي صادقًا، حتى اللحظة التي اشتريت فيها عطر بيربري، ولأني خجول، وبلا خبرة، وعشت الرومانسية في الروايات فقط، احتجت إلى قوة نفسية عظيمة لأجلس معها تحت شجرة الزيزفون، بالكاد أسمح لنفسي بملامسة يدها.

على العكس من بنات عماتي المكبلات بالحجاب والحياء والتقاليد، ضياء حرة، واثقة بنفسها، تفتن من حولها بطلاقة شخصيتها، ورغم سفورها وترنمها بأغانٍ فارسية دائمًا، فإنها تعيش حياة محترمة، وفي الحدود التي رسمها الإسلام. امتدحت شخصيتها، فردت مختالة:

- أنا خلطة عجيبة، أنا ثمرة ثقافات متراكمة، أنا مسلمة تقدمية.

علمتني فلسفة: عِشِ الآن، لعمر الخيام، واستسلمنا لمشاعرنا متناسيين الفروق بيننا، لا نبتعد لحظة في الجامعة، لا تفصلنا سوى عطلة نهاية الأسبوع، تتراكم أشواقنا حتى يطل صباح الاثنين. أودعها وأدخل غرفتي سارحًا، يسألني رالف فلا أجيبه، كيلا تنقطع سعادتي، الحياة جميلة مثل حلم.

لم أعرف إنسانًا يهتم بما أفعله مثل ضياء، وبالمثل لم يعنني إنسان مثلها، ولأنها درست في مدرسة داخلية، وتتحدث إنجليزية راقية، تخيلتها إليزابيث بينيت، بطلة جين أوستن في رواية **كبرياء وتحامل**، وأجزت لنفسي بزهوة الحب أن أتخيلني السيد دارسي، الحبيب الخالد لإليزابيث. وحضرت عروضًا في نادي المسرح بالجامعة، حيث تقف ضياء على المنصة شامخة، أمام روميو، تنطق بكلمات الحب الملتاع التي قررها شكسبير:

- تحب المرأة أولًا بعينيها، ثم بقلبها، ثم أخيرًا بعقلها.

أصفق لها بحماسة، وقد اختلط في عقلي ما كتبه الشاعر وما تقوله حبيبتي، موهمًا نفسي أني لا أعرف من هو المتحدث على وجه التحديد، وحفظت رقمها في هاتفي باسم جولييت.

يتأجج طموحها كلما ذكرتْ أنها سوف تتخرج، وتدرس الدراما في أمريكا، وتحكي أن أباها تاجر السجاد الميسور تعهد بتحمل

نفقات دراستها. تحت شجرة الزيزفون، تدور حول نفسها كأنها على خشبة مسرح، تمثّل أدوارًا سينمائية تتقنها، تقلد عالمة الفلك جودي فوستر في فِلم **اتصال**، أو تفتح ذراعيها وتغني للأرجنتين بحزن مثل مادونا في فلم **إيفتا**، أو تجثو على الأرض، وتدافع عن حبها لقيصر، مقلدةً إليزابيث تايلور في فلم **كليوبترا**. تحلم، ثمة شعور غير مريح يجتاحني كلما كشفت عن طموحها الطائش، صعب التحقيق، لكني مغرم بها، أصغي بكل كياني إلى أفكارها، حتى الغريبة منها.

وبقدر سعادتي، تخرجها قبلي بعثر أحلامي، أشعر بالوجل لأن الوقت يقترب من نهاية حتمية لعلاقتنا، مثل ساعة رملية تقطر عمرنا ببطء. اقترحت أن تكمل دراستها في إنجلترا، لعلي أستطيع تدبر أمري في بريطانيا، لكن ضياء المتيمة بحلم حياتها لا تستطيع التفكير في خيار بديل، وللمرة الأولى في حياتي كرهت حقيقة أني لم أولد في أسرة ثرية.

لم أفكّر في الزواج من قبل، لكني رأيت ساعة الفراق قادمة، وخيط الزمن يسيل، خطر ببالي أن أتزوج ضياء، إنها فكرة مجنونة، لست أملك غير مصروف شهري يكفي لوجباتي. نصحني رالف أن أتروي، لكن الزمن لا ينتظر، ستطير الفتاة من بين يديَّ، ربما خطفها رجل ثري!

أقنعت ضياء أن قلة ذات اليد في مقتبل العمر أمر عادي، واعترفت لها بأني لا أملك شيئًا، وأن تاجرًا بحرينيًّا، ليس أبي، يتكفّل برسوم جامعتي ضمن أعماله الخيرية. فكرنا في السفر معًا

إلى الولايات المتحدة، وضحكنا لأني ربما انتهيت أغسل الصحون في مطاعم ماكدونالدز، وبجرأة العاشقين، فاجأتها:

- لنتزوج قبل تخرجك!

امتقع وجهها، ولفها الصمت، ثم تنهدت:

- أحتاج وقتًا لأفكر!

اضطربتُ جراء ترددها، لعل عائلتها الفارسية ترفض زواجها بعربي. ضياء التي عاشت مطمئنة لأيامها، تستلهم السلام من فلسفة عمر الخيام، تغيرت بعد اقتراح الزواج، صارت قلقة من المستقبل، لكن الحب يفعل أفاعيله، ووافقت بعد أيام، من دون أن تبالغ في فرحتها، ورأيت في عينيها الوجل.

وفي يوم اختفت فيه الغيوم من سماء لندن، امتنعت ضياء عن تناول الأيسكريم، لتخبرني في حياء:

- أنا صائمة!

استغربتُ، فليس الشهر رمضان، لكني خجلت أن أسألها، لعله صيام النساء الخاص الذي يعوضن به أيامهن الفائتة. ولما طال صيامها إلى أسابيع، خمّنت أنه نذر من نذور الشيعة. بعدها دعتني ضياء لحضور بيت والدها، للاحتفال بيوم النيروز، رأس السنة الإيرانية.

لم أمانع حضور النيروز الذي أعرف طقوسه من عجم المنامة، لكن مقابلة والدي ضياء أرعبتني، لا سيما أني لم أهضم بالكامل

فكرة الزواج، لم أرتب عواطفي بعد، أحسست بمعدتي تنقلب، مثلما يحدث لي في الامتحانات النهائية. أردت أن أشرح مشاعري، لكن الكلمات المناسبة لم تحضرني، ولما انتابتني الحمى التي تصيبني عادة مع دخول الربيع، وجدتها ذريعة مناسبة فاعتذرت.

عبست ضياء:

- هل هي الأقدام الباردة؟

- الأقدام الباردة؟

- تعبير شائع لظاهرة الرجال الذين يتراجعون عن الزواج في اللحظات الأخيرة.

- آها، لم أعرف أن للظاهرة اسمًا!

-٥-

أشرفت ضياء على تنسيق سفرة النيررز بحماسة، ولعل أباها رجّح أنه لا يمكن لغير الحب أن يكون السبب لسعادة لا تستطيع إخفاءها. صادق الذي لا يذهب إلى وسط لندن إلا في الآحاد لزيارة المتاحف، حلَّ ضيفًا على ضياء في حي چلسي، دخل المنزل يمد أمامه باقة زهور، واستقبلته ضياء في تنورة بيضاء وقميص حرير أحمر، مستعرضةً مفاتن لا تظهرها عادةً في الجامعة.

في صالة الضيوف أشارت إلى أبيها بقبعته الإسكتلندية ذات المربعات، وأمها في فستان مخملي أسود:

- أبي باهر زنجاني... وأمي جوهر وجداني.

وابتسمت لضيفها:

- زميلي صادق، من البحرين.

تفرّسته خانم جوهر متوجسة من وراء نظارتها، كأنها ليست مقتنعة بأنه سوف يجتاز الامتحان الذي أقحم فيه، السيد زنجاني بدا

باشًّا، وسار صادق نحو خريطة للعالم معلقة على جدار يبحث عن البحرين، ولما لم يجدها، أشار بإصبعه إلى بقعة صغيرة:

- إنها هنا! جزيرة في الخليج العربي.

- الخليج الفارسي!

علّقت خانم جوهر على الفور.

ارتبك صادق، وسحبته ضياء بيده إلى مكتب أبيها حيث أبدى انبهاره بالكتب والسجاد الإيراني، والتحف، وتوقف أمام صورة على طاولة جانبية.

- هذا ابني البكر سرمد، وبجانبه زوجته الإيطالية ميري.

قال السيد زنجاني، ثم همس في أذن ضياء:

- كان أول صبي انجذبتِ إليه عربيًّا أسمر كذلك، زميلك في الروضة.

أنكرت ضياء:

- no way!

ضحك السيد زنجاني مؤكدًا بالفارسية:

- لا بد أنكِ لا تتذكرين طفولتك الأولى.

لم يفهم صادق ما يجري، لكنه شارك بابتسامة في جو العائلة المرح، خانم جوهر توبخ ابنتها بنظرات مستنكرة من فوق نظارتها حين تلاحظ اقترابها من صادق بصورة لافتة، وتعلِّق بإنجليزية ركيكة:

- العيد أجمل في إيران.

كانت مائدتها فارسية بامتياز؛ آش وفسنجون وميرزا قاسمي، وقلية السمك بالسبانخ، ومرقة الدجاج، وأرز بالزعفران، صادق ملأ طبقه، وبابتسامة خجلى حكى عن طفولته، والحي الشعبي الذي جاء منه، وحكايات من دكّانة جده في السوق، وأشعار جدته الملاية المحمرية، والحسين الذي يستحوذ على المنامة في محرم.

بعد العشاء، لاحظ صادق أن ضياء تكرر النظر إلى ساعتها، قالت إنه وفقًا للحسابات الدقيقة، يبدأ عيد النيروز بعد منتصف الليل، وليبقَ الجميع متيقظين أعدت خانم جوهر شايًا.

قال السيد زنجاني بنبرة تميل إلى الجد:

- نحن مغتربون في إنجلترا، مثل أشجار الصنوبر التي تقطع من أجل الكريسماس، تدوم زمنًا بلا جذور، لكنها في نهاية الأمر تموت.

خانم جوهر أشارت بيدها إلى الأشجار العملاقة في الحديقة:

- لهذا جاء بأشجار الكستناء من إيران وزرعها هنا.

- الأشجار ليست وطنًا، إنها فقط رائحته.

تابع السيد زنجاني:

- هاجر أجدادنا من إيران بسبب الاضطهاد، رحلوا إلى البصرة، ومنها إلى تركيا، ثم استقر جدي في لندن بعد عمر طويل قضاه

في أوروبا.

سأل صادق مدفوعا بالفضول:

- من هم أجدادكم؟

وخيم صمت قصير، وضعت خانم جوهر فنجانها فوق المنضدة ودفعت بجسمها إلى حافة الكنبة متحمسة لأن تجيب، دون أن تكترث لنظرات ابنتها التي حاولت كبحها، أجابت بنبرة تحمل قدرًا من الاعتزاز والجِدة:

- أجدادنا هم أهل بهاء الله.

-٦-

قالت ضياء كأنها تحمل لي مفاجأة:

- صادق، نحن بهائيون.

لا أتذكر أني سمعت عن البهائيين، سألتُ في حذر:

- شيعة؟

- كلا.

- مسلمون؟

- كلا، نحن بهائيون.

صدّق السيد زنجاني على عبارتها بهزة من رأسه وابتسامة صافية، أما خانم جوهر فتنهدت كمن ارتاح بعد التخلص من سر خطير.

التفتُ إلى ضياء، أردت أن أتحدث معها وحدنا، لكن أباها أسرع يشرح:

- بشَّر الباب بظهور المظهر الإلهي، لكن السلطات القاجارية

أعدمته، وسجنت تلميذه حضرة بهاء الله في طهران، وفي ذلك السجن، تلقى الوحي الإلهي.

حكى أن بهاء الله نُفي إلى بغداد، ثم إسطنبول، ثم أدرنة حيث بعث الرسائل إلى رؤساء العالم وملوكه، يدعوهم إلى الدين الجديد، وإلى توحيدهم في حضارة عالمية تصدِّق بالأديان السماوية، وتعترف بالحقائق الخالدة التي جاء بها الرسل، وتؤمن بوحدانية الله، ونزاهة الأخلاق.

تدخلت ضياء بحماسة دينية لم أعهدها في شخصيتها:

- نسخ حضرة بهاء الله الشرائع السابقة لأنها أمست عائقًا تحول دون وحدة البشر، فألغى طبقة رجال الدين، وحرَّم الرِّق وتعدد الزوجات.

تابع أبو ضياء:

- دفن حضرة بهاء الله في عكا، ومن سيرته المباركة تعلمنا أن الدين رحلة مقدسة، ومرجعنا الأعلى الآن هو بيت العدل الأعظم في حيفا، حسب الخطة الإلهية.

غصتُ في الكنبة، لم أستطِع هضم ذلك التاريخ.

أبو ضياء نزع قبعته، وأخذ يرتل بلغة عربية تشوبها اللكنة الفارسية:

- **يا أبهى بهاء، بسم الله الأطهر الأطهر، ...، لك الحمد يا إلهي بما جعلت النيروز عيدًا للذين صاموا.**

نطق الكلمات بورع حزين، ذكرني لحنها بأدعية مأتم العجم في المنامة.

رنّ الهاتف، ونظرت إلى الساعة، كانت الواحدة بعد منتصف الليل، ضياء رفعت السماعة:

- إنه سرمد يتحدث من لوس أنجليس.

واشتعلت الأجواء بالتبريكات وبهجة العيد. انتقلت السماعة من يد إلى أخرى، ثم أعيدت الكرّة بالإنجليزية في دور زوجته ميري، ووزع أبو ضياء هداياه، كان نصيبي منها كتاب **بهاء الله والعصر الجديد** تأليف جون سلمنت.

لا توجد خدمة قطارات في ذلك الوقت المتأخر، أبو ضياء تطوع ليأخذني بسيارته إلى سكن الجامعة. فرافقتنا ضياء وخانم جوهر التي جلست في المقعد الأمامي، وجلستُ في المقعد الخلفي بجوار ضياء تمسك يدي بفرح بريء.

نظر إليَّ أبو ضياء في المرآة الصغيرة في سقف السيارة وهو ما يزال في نشوة الاحتفال:

- النيروز يوم مبارك، اختاره حضرة بهاء الله ليكون اليوم الذي نؤسس فيه مشاريعنا الكبرى.

هززت رأسي مجاملًا، ضياء همست في أذني:

- جانم، حبيبي، أنت مشروع حياتي كلها.

-٧-

كشف لي النيروز فداحة علاقتي بضياء، لماذا كانت هذه الفتاة بالذات بهائية؟ هل أستمر في حبها؟ أم أنساها؟ خطر ببالي أن أرجع إلى أحضان عائلتي، عذبتني الفكرة وطردت النوم من عيني، ومع أول نور خرجت بقلب يرجف، أتخيل حياتي من دون ضياء. ذهبت إلى روب، رغم أنه لا يحترم الأديان، تناولت معه شاي الصباح، وسمعت صدره يقرقر بمرض خطير، لسانه ينفلت كعادته، يسخر من جودي بين سعلة وأخرى. حكّ رأسه محتارًا بحكايتي، وتخيلته داروين وقد بُعث من المكتبة إذ نصحني:

- ليس الحب سوى أمر مطبوع في الجين البشري الذي يسيطر على جسدك ليقوم بمهمته الأساسية: التكاثر.

- لكني أشعر أني لا أملك القدرة على نسيانها.

- هذه المشاعر جزء من التآمر البيولوجي نفسه.

تركته وقد ازدادت حيرتي، ودّعني سيزار عند الباب بذيل

يتمرجح في الهواء، وفي القطار استرجعت ما جرى في بيت ضياء، أقلقتني نظرات أمها المريبة، لكن ابتسامات أبيها طمأنتني، بل فكرت أنه ربما أصبح لي أبًا حقيقيًّا.

رجعت إلى الجامعة وغصت في الدين البهائي، يمر طيف ضياء أمامي بينما أقرأ دون هوادة في كتاب **بهاء الله والعصر الجديد**، لا أتركه إلا لكي أتصفح بعض ما كُتب عن البهائية على الإنترنت، وأحتار بين مقالة إنشائية تناصرها، وأخرى ركيكة تكفّرها وتلعن.

ضياء المتمسكة بإيمانها تزيدني تعلقًا بها، في المقابل لا أجدني أملك رغبتها في التمسك بديني. هي من ناحيتها أعجبت بموقفي النقيض، وجدتْ في ترفعي عن العصبية حداثةً في التفكير، وأخذتني إلى المركز البهائي في لندن، وما أسرع ما انخرطت في فعالياته. اكتشفت أنهم جماعة صغيرة، متحدة بروابط دم، وبقانون متسامح، أغلبيتهم من الإيرانيين، وثمة عوائل عراقية وباكستانية، جميعهم يتسمون بدماثة الخلق، يجيبون عن أسئلتي وكأنهم يؤدون مهمة مقدسة، أكثرهم حماسةً ذوو الجنسية الإنجليزية الذين يمثلون الدليل الناصع على وجاهة البهائية، ويبشرون لها بطاقة مدهشة.

بدأت رحلة روحية لفهم البهائية، قرأت بنهم كتبًا استعرتها من المركز البهائي، كتب تتحدى إيماني، تصر أن العالم القديم مرحلة تجاوزتها البشرية، تحذر من سيطرة رجال الماضي، وتوقّر رجال المستقبل، مجددي الدين العظام. وكتاب إثر كتاب تفتح ذهني على

طابع عصري لخطاب بهاء الله الذي حرر المرأة، ودعا إلى وحدة الأديان، وبشَّر العالم بالسلام، اعتنى بالعلم ورفع مقام المعلم، حتى أنه ورَّثه حصة صغيرة من إرث تلاميذه. أعجبت بفكرة بيت العدل الأعظم، مؤسسة يُنتخب أعضاؤها بطرق ديمقراطية، وتكون مرجعًا للبهائيين. تعرّفت على هذا العالم من أقدس صفحاته في **الكتاب الأقدس، والكلمات المكنونة، والألواح**، وغمرتني سعادة وأنا أقود روحي، الجزء الثابت من ذاتي، نحو أفق جديد، نحو رواية أنا بطلها الحقيقي.

شاركت في المناسبات الدينية في المركز البهائي، احتفلنا بعيد الرضوان، وأحيينا ذكرى استشهاد الباب، وسمعت ضياء تقرأ دعاء شجيًّا يوم وفاة بهاء الله. السيد زنجاني دعاني في بيته إلى ضيافة تسع عشرية، اجتماع يعقده البهائيون كل تسعة عشر يومًا، مدة الشهر البهائي، وللمرة الثانية استمتعت بوليمة فارسية من صنع السيدة جوهر، أكلت مع الحاضرين في حبور، تخدمنا ضياء بكل محبة، شعرت أن كلمات السيد زنجاني موجهة إليَّ حين تلا من **الكتاب الأقدس: الأمر عظيم عظيم، والفوز جليل جليل، والقرن مجيد مجيد، والأنوار أحاطت الأقطار.**

أفقدتني لندن صلتي بتشيعي، كأنه لا وجود له، مرَّ محرم من دون أن أتذكر مواكب العزاء الحسينية، وبدلًا من ذلك احتفلت بعيد ظهور التوءمين، مولد الباب وبهاء الله في حادي محرم وثانيه. كلما تعمقت في البهائية أدركت أنها جزء من سحر ضياء، وتألق

شخصيتها، وثقتها بنفسها، وتحررها، وفهمت عبارتها: أنا خلطة عجيبة، أنا ثمرة ثقافات مختلفة، أنا مسلمة تقدمية.

صرت أنظر إلى الدنيا بعين مختلفة، لعلها عين ضياء، أقرأ عليها مفاهيم جذبتني إلى البهائية:

- الشر هو غياب الخير، مثلما الظلمة هي غياب النور.

لكنها لا تتدخل في تقصِّي الحقيقة:

- إنها رحلتك الروحية الخاصة!

وتحيلني إلى الكتب، مثلها مثل السيد زنجاني، وبعد سيرة بهاء الله، زودني بسيرة ابنه عباس أفندي، أو عبد البهاء، وحفيد الأخير شوقي أفندي. جلي أنه يرغب في أن يراني بهائيًّا، لكنه لا يستعجل النهاية، يحكي لي بحماس أن بناء البيت البهائي مثل بناء قلعة، فالزواج ليس علاقة جسدية فقط، بل علاقة روحية، اتحادًا أبديًّا. ينصحني بزيارة المركز، لكني أحب أن أتردد على بيته في الآحاد، لأني لا أجد تناقضًا بين أسلوب حياته مع تعاليم بهاء الله، وفي كل مرة تعتذر السيدة جوهر عن لقائي، مدعية أنها مصابة بصداع نصفي.

استحوذت عليَّ هذه الكتب، حتى أن رالف يتعثر بها حين يزور غرفتي، أحيانًا أقرأ أفكارًا من دون أن أقتنع بها، لكني متيقن من أمر واحد، لن أتخلى عن ضياء، هي وحدها القادرة على أن أتقبّل أية فكرة وأي معتقد، ما يعنيني هو أن تكون ضياء زوجتي، ولا أراها

نقيصة إن ربت أولادي على قيم تعتبر المحبة والدين الشيء نفسه، وتدعو البشر ليكونوا أسرة واحدة، حسب خطة عالمية لتحقيق المدينة الإلهية على الأرض.

هل سيوافق أبي أن أتزوج بفتاة إيرانية، سافرة، وبهائية؟ الصفة الأولى قابلة للجدال، فأبي نفسه متزوج بعجمية أصلها فارسي، والمرأة السافرة ليست بالأمر العظيم كذلك، فيمكن لضياء أن تغطي شعرها في وجوده، أما الصفة الأخيرة، فتلك الكارثة الكبرى! إنها مهمة صعبة، بل مستحيلة، تخيلت الحوار الملتهب، سأقول له إني لن أتنازل عن ضياء، وسأذكره بمقولته الأثيرة: أن يكون المرء عادلًا هو أهم شيء في الحياة. واستجمعت ما لديَّ من شجاعة عبر الهاتف:

- أبي، أحب زميلة، وأرغب في الزواج بها.

-٨-

- صادق! ماذا قلت؟ تتزوج؟ من هي؟ إنجليزية؟ مسلمة؟ من هم أهلها؟

انفلتت أسئلة الحاج جواد معتقدًا أن ابنه متورط في علاقة جنسية مع إنجليزية، الأمر الذي خشيه منذ البداية. تعلق بأول طائرة متوجهة إلى لندن، لكي يتأمل قسمات وجهه لحظة يستمع إلى قصته، والتقاه في مقهى كوستا في حرم الجامعة، طلبا كوبي شاي وجلسا متقابلين، صامتين، حدّق الأب إلى وجه ابنه بنظرات طار من أجلها سبع ساعات، وفاجأه تحدٍّ لم يره في عينيه من قبل.

مقتنعًا أن الزواج عفة، وضع الحاج جواد في يد صادق خاتمًا ذهبيًّا له فصّ ياقوت أحمر بلون دم الحمام:

- إنه خاتم أمك رحمة الله عليها، نصيبك من إرثها الذي حفظته لك.

قلّب صادق الخاتم في يده، ارتعشت شفتاه متأثرًا، وخيم

الصمت مرة أخرى، لا يسمعان سوى أصوات آلة القهوة تبخ شراب البن المغلي.

- ضياء بهائية من والدين بهائيين.

اعترف صادق أخيرًا.

- أين تعرفت إليها؟ وكيف؟ ولماذا هذه البنت بالذات؟

ارتبك صادق، ولم يفتح فمه.

صرخ الحاج جواد:

- هيا، تكلم بسرعة! لا وقت لديَّ، غدًا أسافر.

- اسمها ضياء، ... إيرانية، ... زميلتي في الجامعة.

- انسَ أمرها!

عيناه مصوبتان إلى الخاتم في يد صادق، كأنه يفكر في استعادته.

- لن أنساها! الحب هبة من الله، وعلى رجال الدين مباركتها.

رد صادق بعناد، ووضع الخاتم في جيبه، تحدّث عن صدق ضياء وعفتها، وطيبة أهلها وسماحة جماعتها، وكل جميل عرفه عن طائفتها، لكن الأب لم يتعاطف معه، بل ارتاب في أن ابنه قد صار بهائيًّا.

- أبي، ارحم روحي! لن أجد في العالم امرأة أخرى مثل ضياء. أرجوك ساعدني، أحبها، ولا أرى جدوى لحياتي بدونها.

بدا أنه تأثر لمشاعر ابنه، وتذكر تجربته حين أغرم بأمه أمل، كانت سمراء ونحيفة، وبارعة الجمال، ولما نوى الزواج بها حذره صديق أنها مريضة بفقر الدم المنجلي، ونصحه بأختها التي تشبهها تمامًا وغير مصابة بالمرض اللعين. يومها لم يكترث للنصيحة، بل اعتقد أن ما يعيشه ليس إعجابًا بامرأة فحسب، بل قضاء من الله وقدره، وكلما تكشفت له تفاصيل مرضها، ازداد تعلقًا بها، وانتابه شعور أن السماء أرسلته ليكون العون الذي تحتاجه في الحياة، تزوجها مؤمنًا أن الأقدار الإلهية التي دفعته نحوها بقوة لن تتخلى عنه، وبالفعل حبلت وأنجبت صبيًّا أسمر، قويًّا، لم تظهر عليه أعراض مرضها.

- سأفكر في الأمر.

وجد شبهًا بين المرض الذي عانت منه زوجته الراحلة وبين الديانة التي تؤمن بها ضياء، متصورًا البهائية مرضًا أصاب الجسد الشيعي، إلا أنه ليس وراثيًّا لا علاج له مثل فقر الدم المنجلي، فربما تغيرت قناعة الفتاة لو عاشت في كنف عائلة شيعية ملتزمة.

- يمكن للزواج أن يوثق بعقد شيعي.

زفر صادق الاقتراح مرتبكًا، لكنه رأى استحسانًا للفكرة في ملامح أبيه الذي يعلم أن العقد الشيعي يمنع الفضيحة، لأن أولاد صادق سيولدون شيعة بشكل تلقائي، وستكون المحاكم الجعفرية هي الحكم في أية منازعات زوجية في المستقبل، كما أن ضياء إذا ما وقَّعت على عقد زواج شيعي، فإنها تعترف ضمنيًّا أنها مسلمة.

ربت الحاج جواد على كتف ابنه:

- أتمنى أن توافق ضياء.

- ستوافق!

هتف صادق في راحة، ورتب في اليوم التالي لقاءً في المقهى نفسه، جاءت ضياء سافرة، شعرها يتطاير في الهواء، ركبتاها لا تسترهما تنورتها القصيرة، تأمل الحاج جواد نضارة شبابها وجمالها، وتأكد له أنها فتنت ابنه، ولم يستغرب قوله إنه يشك في جدوى حياته بدونها.

مدت ضياء يدها تصافح الحاج جواد بحماسة، وقالت بعربية تعلمتها من أجله، ولكن بلكنة فارسية:

- الحمد لله على سلامتك.

سحب الحاج يده إلى صدره:

- نايس تو ميت يو، سعيد بلقائك.

كان لقاءً قصيرًا، رجع الحاج جواد بعده إلى المنامة، يلوم نفسه بأن أرسل ابنه إلى هناك، حماه من جماعة الأستاذ غازي، فوقع في أخرى.

telegram @
yasmeenbook

-٩-

- ضياء، هذا كل ما أملك.

وضعتُ خاتم أمي في يدها، وجددتُ لها عهد الحبّ تحت شجرة الزيزفون، أخبرتها أن موافقة أبي لحظة تاريخية لم أحلم بها، وأن علاقتنا أمست صداقة بين رجليْن ناضجيْن.

فرحت ضياء، دست الخاتم ذا الياقوتة بلون دم الحمام في خنصرها، تأملته بإعجاب، ثم نزعته:

- سوف ألبسه في الوقت المناسب.

عانقتني للمرة الأولى، قالت في شيء من الحياء:

- حدد **الكتاب الأقدس** المهر بمقدار ١٩ مثقالًا من الذهب، واستحسن ١٩ مثقالًا من الفضة.

- هذا مهر بسيط!

ابتسمتُ راضيًا وعلّقت:

- سيكون عقد زواجنا شيعيًّا.

صرحت بذلك واثقًا أن ضياء، الحداثية التفكير، المسلمة التقدمية، لن تدمر حبنا تعصبًا لعقد يصوغ نصه البشر، وورقة يدمغها رجل دين.

- عقد شيعي؟

تساءلت ضياء وسرنا في حديقة الجامعة قليلًا، بينما هي صامتة تفكر، وعند ضفة النهر أعلنت:

- موافقة من الناحية القانونية، وليس العقائدية.

في الصباح دخلت ضياء مكتبة الجامعة تترقرق الدموع في عينيها:

- رفض أبي العقد الشيعي رفضًا قاطعًا.

ثم انتحبت:

- لم أعرف أن توقيعي على عقد زواج شيعي يعني ارتدادي عن ديني!

ورغم ذلك لم أيأس.

- يمكننا كتابة عقد زواج مدني.

اقترحتُ عليها بمرح مفتعل، قبل أن تمضي. وفي المساء خابرتني:

- أمي ترفضك، هددت بمقاطعتي مدى الحياة، لو تزوجتك.

شرح لي أبي أنه لم يكن يعرف عن البهائيين سوى أنهم جماعة لا تعترف بها الجمهورية الإسلامية، لكنه بات يدرك فداحة المأزق بعد أن استمع لنصائح رجال دين، بيّنوا أنه لا مكان للبهائيين في المحاكم الجعفرية، ولا السنية، وأن المسلم قد يتزوج كتابية، لكن الأمر مختلف مع البهائية، حتى العقد المدني لا توثقه المحاكم إن كان به طرف مسلم.

قال أبي بنبرة صادقة:

- أشعر بالذنب لأني لم أقطع الشر من أصله، وهبتك أملًا أجوف دون قصد، وجهي لم يفارق صفحة القرآن، لعل الله يهديني إلى حل.

-١٠-

- أبي يتلو **القرآن** من أجلي!

أقول يائسًا، وترد ضياء:

- وأبي يدعو لي في كتاب **المناجاة البهائية**.

لم أتقبل حقيقة أن أخسر أن ضياء، اندلع الغضب في داخلي، وقلّبت أفكارًا شتى في ذهني، حتى قررت الذهاب إلى المركز البهائي، لأطلب اعتناق البهائية، لا أنكر أن معاشرتي للبهائيين أحدثت في نفسي انطباعًا جميلًا عنهم، لكنني لم أشعر بتلك الراحة التي تغمر المؤمنين الجدد، وبررت لنفسي أن لكل عاشق أعذاره، لستُ الشيعي الملتزم، ولم أسعَ لأكونه، وليس يشغل بالي الآن أن أكون شيعيًّا أو بهائيًّا، صرت أراني بين هؤلاء وأولئك.

وتبين أن الأمر ليس صعبًا كما تخيلت، الموظفون في المركز أحالوا طلبي إلى المحفل البهائي في لندن، وهناك قدم إليَّ مندوبون نصًّا مكتوب، قرأته وساءني أنه لم يشمل تعهدًا بمحبة البشر وتحرير

المرأة، وقبول وراثة معلمي لقسم من تركتي، والأمور الأخرى التي جذبتني إلى الجماعة. ومهما يكن فقد وقّعت على الوثيقة، وتم تقييد اسمي في قائمة البهائيين في لندن، وأصدروا لي بطاقة هوية، وهكذا زاد البهائيون في العالم واحدًا، وصار عددهم ٨,٢٠٠,٧٥٦.

انطلقت في النهار نفسه إلى السيد زنجاني، قدمت إليه بطاقتي ووثيقتي البهائيتين، وخطبت ضياء بشكل رسمي، لكن الرجل لم يُبدِ أية سعادة، رفض طلبي، وقال بضمير مطمئن:

- ليس قبل أن يستقر الدين في قلبك.

يدرك أني أمسيت بهائيًّا فقط من أجل الزواج بضياء، الأمر الذي نهت عنه البهائية، لكنه تصرف معي تصرفًا نبيلًا، وقال متعهدًا لي بعينين حزينتين:

- سأحتفظ بوثيقتك في صندوقي الحديدي، وأحفظ أمرك سرًّا إلى أن تتم نعم الله على الجميع.

-١١-

تزعجه أخلاق ابنه التي يسميها الناس حداثةً، لكن زواجه ببهائية أمر يفوق مسألة الروح العصرية. سافر الحاج جواد إلى لندن للمرة الثانية، كيلا يرجع ابنه بأحلامه، ويثرثر البحارنة. دخل عليه في غرفته في سكن الجامعة، ونقر على كتفه:

- قل للسافرة أن تنسى الأمر!

جفل صادق:

- يمكننا أن نكتب عقدين للزواج.

ورفع إصبعين:

- عقد شيعي وعقد بهائي.

نظر إليه الحاج جواد كما لو أنه يعاين مجنونًا:

- كلامك خيالي، ألهمتك إياه الروايات، لا توجد محكمة إسلامية تقبل بعقد بهائي!

ضرب صادق على الطاولة بيده:

- لماذا؟ لماذا كل هذا الجبروت؟

- لأنك ستتزوج كافرة!

أظلم وجه صادق، وجمد مشلولًا في مكانه، ولما نهض ليعترض، أوقفه الحاج جواد بحركة من يده:

- سيكون أولادك كفارًا! وستلطخ اسم عائلتنا بالعار.

ابتلع صادق ريقه بجهد كبير:

- سأتزوجها، واعتبروني كافرًا!

ثم تابع من دون أن ينتبه أنه يصرخ:

- كن عادلًا! أليست هذه فلسفتك؟ أليس العدل هو أهم شيء في حياة الرجل؟

شعر الحاج جواد أن ابنه يسخر منه، لا بد أنه اعتنق البهائية، بدا ذلك من جسارته، فرفع يمناه في الهواء، ولم يكن هناك هذه المرة من يحميه منها، وهوى بها على وجهه.

-١٢-

صفعني وبدا ذاهلًا، كأنه استيقظ فورًا من غيبوبة، لكنه لم يقدم اعتذارًا، الحاج جواد لم يعتذر لأحد من قبل، ولن يفعلها الآن. نظرت إليه والحقد يغلي في دمي، ورأيته يصفق الباب ويغادر.

انهار العالم حولي، وتأكّدت الشكوك التي زرعتها البهائية في عقلي بشأن الأديان. كنت حتى هذه اللحظة، أعتقد أن الناس طيبون، فطرتهم خيرة، وأنه طالما لا يقترف الإنسان الشر، فإن الشر لن يصيبه، لكن ذلك كله تلاشى بعد الصفعة، أدركت قسوة أبي وجبروته والشر الذي يتمكن منه، والعذاب الذي سيحل بي بسببه. تأملت وجهي المصفوع في المرآة، فلم أرَ أثرًا بارزًا للصفعة في وجهي الأسمر، لكن أثرها داخلي كان فوق احتمالي، رأيت قيم أبي وقد صارت بلا معنى، تبخرت سنوات نضاله السياسي، وأفكاره عن العدل والمساواة وتذكّرت محاولته صفعي قبل سنين، لأكتشف أن نهجه العنيف أصيل في شخصه ليس طارئًا. حقائق أخرى تبدت أمامي، فإذا كانت قيامة البحارنة قد قامت ضد جماعة الأمر بسبب

اختلاف إحدى جزئيات العقيدة، فإنه يمكنني تخيل ما سيحدث لي لو تزوجت امرأة يعتبرونها كافرة، فضلًا عمَّا إذا عرفوا أني بهائي.

استيقظت الصباح التالي مفزوعًا، متعرقًا بكل مخاوفي، هرعتُ إلى شجرة الزيزفون، كان تمثال المرأة البرنزي ملطخًا بذرق الطيور، وسماء لندن متوقّدة، كعادتها لا تخمد غيومها. جاءت ضياء متدثرة بمعطف مطر، سألتْ بوجل عمَّا جرى مع أبي، ولعلها لاحظت ما أعانيه من ضيق:

- قال أبي إنك...

سكتُ للحظات:

- ... إنك كافرة.

وضعت يدها على فمي، تلوّت عضلات وجهها من الألم:

- كافرة!

رددتها مثل صدى:

- كافرة؟

لعلها تمنت لو تركتني وشأني، ولم تسألني عن جين أوستن في ذلك اليوم الربيعي قبل عام. لم تعرف كيف تدافع عن نفسها، ثمة كلام تعجز عن قوله، تساقطت دموعها قطرة فقطرة مثل بداية المطر، ليس مثل دموعي التي تنهمر مثل سيل النهر. نشجت دون أن تنبس بكلمة، ولم أحاول منعها، أعرف الآن حاجتها إلى البكاء.

احتضنت يدها، وبكينا معًا دون كلام، نتذوق بصمت ملوحة الدموع، ومرارة الفراق وجهًا لوجه. مر الزمن بطيئًا، ثم كفكفت دموعها:

- أحبك، ولكن يجب أن أنساك.

لم أجد ما أقول، ولكني ما زلت متفائلًا أنه ربما جاء المستقبل بحل ما.

- ساعاتنا في الحب لها أجنحة، ولها في الفراق مخالب.

قالت عبارة شكسبير الشهيرة بتصميم قاسٍ، وغادرت مخلفة في المكان بقايا عطرها بيربري.

- ضياء! مهلًا! انتظري.

لكنها لم تسمعني، ورأيتها تبتعد مثل غمامة من وراء دموع تملأ عيني، وبقيت جالسًا في غمرة ارتباك مذل، لم أملك الشجاعة أن أوقفها، تسمّرت في مقعدي مثل التمثال البرنزي أمامي، بينما أكملت الغيوم حصار المدينة، وأظلمت الدنيا، وهطلت أمطار غزيرة، بللتني بلا رحمة، بقيت جالسًا لدقائق مرّت كأنها الأبد، ثم انتفضت بالعطاس، وغادرت تصطك أسناني من البرد.

-١٣-

سقط صادق يرجف من الحمى في فراشه، ينوح ببكاء الرجل عندما ينكسر قلبه للمرة الأولى، يشهق الهواء إلى صدره بقوة، فالبكاء يحتاج إلى المزيد من الهواء. رالف يعرف معاناته، يسمعه يهذي بعربية لا يفهمها، وأحيانًا يهلوس بالإنجليزية:

- هل قلت لضياء لا ترحلي، أم أني أتخيل؟

- هل أنا شيعي؟ أم بهائي؟

لم ير رالف مثل غزارة دموعه، على وجهه أربعة شلالات، اثنان يسيلان من عينيه، واثنان من فتحتي أنفه، دموع كثيرة بدت مبالغة على سبيل النكتة، لولا أنها حقيقية تمامًا، قال له:

- لا تشعر بالخجل! الرجال أيضًا يبكون حين يقتضي الأمر.

واستمر صادق يبكي كمن نسي الكلام.

الظلام في الخارج تقطعه ومضات البرق، والغيوم تضرب برعود جبارة، والأمطار تتساقط غزيرة.

- أية لعنة هذه؟ حتى الطبيعة غاضبة!

علّق رالف، وناول صادق كأس ماء شربها دفعة واحدة ووضع كيس ثلج على رأسه، نام قليلًا ثم أيقظه السعال، وعادت دموعه تجري بلا حساب.

رالف حاول أن يشغله بالكلام، حدثه عن طائر ماجباي:

- هذا الطائر اللعين هو سبب الأمطار والمرض، لأنني رأيته في الصباح ولم أرحب برؤيته.

وشرح أنه حسب الأسطورة يخدع هذا الطائر الناس بجمال ذيله الطويل، وهو ليس سوى غراب يجلب الشؤم، لذا يخافه الإنجليز، ويتقون شره بتظاهر احترامه وتحيته.

- ولأنني لم أجامله بتحية: صباح الخير سيّد ماجباي، ها هو النحس يحل بنا.

أمضى رالف ساعات بجانب سريره يثرثر بحكايات من حياته المليئة بالنوادر، يسردها بمرح عبثي، وبعبارات مقفاة، أحكم وزنها بالتكرار، وأخبره أن أبا جده لأبيه، كان إنجليزيًا بروتستانتيًّا متعصبًا، وصديقًا لأيرلندي كاثوليكي أنقذ حياته في فرنسا لما كانا يحاربان الألمان أثناء الحرب العالمية الأولى. انتهت الحرب في أوروبا، واندلعت حرب الاستقلال في أيرلندا، ووجد الاثنان أنفسهما خصمين يتقاتلان في دبلن، ولما استقلت أيرلندا، رجع الجنديان أصدقاء مثلما قدرت لهما السماء، يلتقيان

مع عوائلهما في أعياد الميلاد في ليفربول، أو دبلن، وهكذا تعرّف جده بجدته.

أصغى صادق بلا مبالاة، لكن دموعه توقفت، وتركت خطوطًا بيضاء على وجهه الأسمر، وتابع رالف أن جده الإنجليزي البروتستانتي **بول** تزوج جدته الأيرلنديـة الكاثوليكية **شوانا**، وفي زمن الحرب العالمية الثانية أنجبا أباه، واختارا له **كلايد**، اسم غير مسيحي، أفاده لينشأ بعيدًا عن الكنيسة، حتى أنه في شبابه ربى شجرة شعر كثيفة على رأسه، وانضم إلى هيبيين يدعون إلى الحب والجمال والسلام، يدخنون الماريجوانا ويرقصون نصف عراة في حدائق لندن العامة. وفي ليلة صيفية، سماؤها تفور بالنجوم، أعجب كلايد بفتاة هربت من بيت والديها خلسة، وتعيش من فتات بيع أغراضها المستعملة، ومارس معها الحب، لا يعرف عنها سوى قصة هروبها المؤزرة واسمها الهيبي **لوسي**. بعد شهور رآها ترقص ببطن منتفخة مثل مجنونة، لا تعرف الأب على وجه التحديد، لكنها ولمزاج الحشيشة التي تدخنها لحظتها، أشارت إلى كلايد الذي قبل الدور، ورفع قبضته في الهواء ببطولة مؤثرة. ولكثرة ما تسكع كلايد في الشوارع، دعسته سيارة، أغمي عليه وشارف على الموت، ولما صحا من غيبوبته في المستشفى، تودد لممرضة في السابعة عشرة، وأكد لها أن حلم الهيبيين للسيطرة على العالم بأكمله سيتحقق عمّا قريب.

الأب بول لم يصدم برؤية ابنه ممددًا على السرير، لكنه أشار بعلامة الصليب على صدره لمَّا علم بحمل لوسي، فبحث عنها

ووجدها في مركز الهيبيين، في ميدان بيكاديللي، عرفها من بطن منتفخ يكاد ينفجر، وكانت تثرثر بروعة الجنس والحب الحر وسط شبان قذرين لم يستحموا منذ مدة، ولعنهم الأب بول لأن الكنيسة تعتبرهم فاسقين ويهددون المجتمع، وسحب لوسي من وسطهم رغمًا عنها هي وتنورتها الطويلة المزركشة، وقلائد خرز ملونة معلقة على نهدين يهتزان بلا حمّالات، أجلسها أمام سرير كلايد قبل أن تنفذ وعدها وتلد تحت صفصافة في حديقة سانت جيمس. حضر المستشفي قسيس لعقد الزواج، أراد كلايد أن يقول خطبة صغيرة اعتقد أن العالم ينبغي أن يسمعها، لكن أباه أخرسه وأتم الزواج.

ابتسم رالف ابتسامة ساخرة:

- وهكذا ولدتني لوسي ابنًا شرعيًّا قبلته الكنيسة في إنجلترا، ومات أبي كلايد قبل أن يراني، وماتت أمي لا أعرف عنها سوى اسم هيبي أخرق، وتربيت في بيت جدي بول في ليفربول، لكني أشعر في صميمي بأن روحي أيرلندية.

صادق لم يعرف ماذا يقول، لكنه استطاع أن يرسم على وجهه ابتسامة امتنان، ونام مثل جذع شجرة مقطوع من شدة الإرهاق.

-١٤-

لطالما رفضت عروض رالف إلى الشراب، لكنني الآن أقبل، أشعر أني وحدي في هذا العالم، وأن هذه الحياة لا تُحتمل من دون تخدير، وباستهتار قرقعت الكأس مع رالف دون الشعور أني أرتكب إثمًا، احتسيت النبيذ بالحماسة التي يشرب بها المنتحرون السم، وأحسست بها كالنار في أحشائي. عاد رالف يسرد نتفًا من قصة أمه، واستغربت أنه لا يبكي رغم المآسي التي يذكرها، عيناه الزرقاوان صافيتان كشمس الأصيل، هل كبح بكاءه، وابتلع دموعه كما يقال، جعلها تسيل إلى بلعومه، من دون أن تفيض من عينيه؟ إنه عمل خارق لا أستطيع القيام به، مثل الساحر ينفث دخان السيجارة من أذنه. قرقعت الكأس ثانية، وازدادت ابتسامة رالف توقدًا، أما أنا فأثارت الثمالة دموعي، مسحتها بكمي مثل طفل. وبعد قرقعة ثالثة صرت أسمع رالف من دون أن أفهمه، هل ثقل لسانه أم ثقل سمعي، لست أدري! وبعد رابعة مادت الأرض تحت قدمي، وما عدت أتذكر اسمي، ولا من أين أتيت.

قال رالف في اليوم التالي إني صرّحت أمس بالكثير.

بررتُ:

- كنت سكرانًا.

- لكن السكران لا يكذب يا صادق، ولا يستطيع أن يخفي ما بداخله.

انتهت نوبات بكائي الحادة بعد أيام، قاوم جسدي لكن روحي تحطمت، وصارت غريبة، كأنها ليست روحي. لم أتعلق بالخمر، وغفرت لنفسي احتساءها، اعتبرتها نوعًا من الأدوية المهدئة الضرورية، لكني أهملت صلواتي من دون أن أشعر بالذنب.

آلم عيني نور الشمس حين خرجت من المسكن، وفضحتني البحة في صوتي حين تحدثت مع زملائي، ما عدت واثقًا بنفسي، رجعت إلى خجلي الفطري، اختفى السحر الذي أضفته ضياء على شخصيتي، وأدركت كم أحتاج إليها في حياتي.

الغياب يساعد على النسيان، لكني أعاقب كل يوم برؤية ضياء في الجامعة، تمشي عابسة، تلم شعرها المموج إلى الخلف بلا عناية، عيناها العسليتان غائمتان، وعلى جبهتها تقطيبة متوترة، تتصرف بمزاج بليد، وتبتسم بفتور، تنطق كلماتها بحذر، مات شكسبير الذي يتحدث على لسانها، انطفأت ضياء، أطفأها الدين. أشفق عليها وعلى نفسي فأهرب من قاعات الدرس إلى سلام الحديقة، أجلس مقابلًا تمثال المرأة البرنزي، أمارس حقي في بكاء الحب الممنوع،

كأني أسقي بدموعي شجرة الزيزفون، قرأت ذلك التشبيه المبتذل في رواية تافهة لا أتذكر عنوانها.

أحاول الاقتراب منها لكي أكلمها، تمضي دون أن تنظر ناحيتي، ألاحقها بنظراتي، أحيانًا أحاصرها، فتضطر إلى تغيير مسار طريقها. قدّرتُ أن توقيعي على الوثيقة البهائية ليس كافيًا، فاخترعتُ حلًّا مجنونًا، كتبت لها في رسالة هاتفية أننا نستطيع أن نهرب معًا ونتزوج في مكان بعيد. انتظرت ردها على أحر من الجمر، لكنها لم تتكلف عناء الرد، وما أغباني أفكر في الهروب، والبهائية تشترط للزواج رضا والدي كلا الزوجين!

لم أيأس، وكتبت لها مرة أخرى، مستخدمًا منطقًا أكثر نضجًا، مستعينًا بالكتاب الأقدس الذي يدعو أهل بهاء الله ليعاشروا أهالي الأديان الأخرى بالروح والريحان من دون تفرقة أو تمييز.

في نهاية اليوم رن هاتفي:

- جولييت!

أجبت مبتهجًا، لكنها لم تكن ضياء، كانت أمها التي توسلت:

- مثلما دخلت بيتنا بوقار، عليك أن تغادره بوقار. لقد نسيتك ضياء بعد ليالٍ طويلة من البكاء المرّ.

تفهمت مشاعرها، ولولا مزاجي السيئ لشرحت لها أنه لا يوجد بكاء مرّ، لأن الدموع مالحة، ليست مرّة.

رجعت إلى غرفتي مكسور القلب، أتمزق كلما تذكرت الحقيقة

المؤلمة، ضياء لم تغضب والديها من أجل الزواج بي، انتهت علاقتنا لأن الديانتين اللتين ولدنا فيهما، لا يمكنهما صياغة عقد زواج لنا، افترقنا من دون أن تلتقي شفاهنا على قبلة.

-١٥-

الحمق هو ما شعرت به ضياء إثر هذه التجربة، كيف أطلقت العنان لقلبها في علاقة حب مع مسلم شيعي! كم كانت فكرة الزواج به عبثية؟ تراجعت عاطفتها وتقدم ضميرها، شعرت بالذنب وتقبلت ألم الفراق كما لو أنه كفارة. أبوها يراعي مشاعرها، ويعفيها من مسؤولية ما حدث، تسمعه يتحدث لأمها:

- الشيعة هم أكثر المذاهب الإسلامية عداءً للبهائيين.

تجاهد لكي تبدو متماسكة في الجامعة، غير أنها تنهار في البيت، تعتزل في غرفتها، وتسيل دموعها، أمها تشاركها البكاء صامتة، تدعو أن تنسى صادقًا بسرعة، أما أبوها فظل يشكو من رجفات في أمعائه، هو أيضًا روحه تتعذب، ووصف له طبيبه حبوبًا لعلاج مرضه القديم ومتلازمة القولون العصبي.

تبكي ضياء أمام رسائل صادق، لكنها مقتنعة أن العلة الأساسية لمشكلتهما تكمن في موقف أبيه، رغم أنها تشعر أن ديانتها جعلت منها تقليدية، مغلوبة على أمرها، تذعن لوالديها مستسلمة، وتلاشت

شخصيتها العصرية التي اشتهرت بها في الجامعة. لا تفكر في الرد على صادق، لأنه لن يكون زوجًا لها إلا بحدوث معجزة. صادق يؤمن بتلك المعجزة.

سلّمته ظرفًا يحوي الخاتم ذا الياقوتة بدم الحمام، ووردة الكاميليا الجافة، وأدارت وجهها كي لا يرى دموعها، اختارت ديانتها وليس حبيبها، وحين تنظر إلى صورتها في المرآة، ترى وجهًا كئيبًا، بملامح ضائعة.

-١٦-

واظب الحاج جواد على الاتصال بصادق كل ليلة، محاولات حثيثة لعلاقة جديدة، يرمم بها ما خلفته الصفعة، يدس في ثنايا حديثه كل ما يحفظه عن الإيمان والكفر، هو لن يقبل أحفادًا كفارًا، ولن يقبل أن يترك ابنه لقمة سائغة لتلك الطائفة المارقة، كلمه بما لديه من عقل ومنطق. أما صادق فبقي صامتًا، بل صار صمته مخيفًا، تطيَّر الأب بفكرة أن ابنه قد يفكر في الانتحار، مثل اليائسين الذين يقرأ أخبارهم في الصحف، فكّر في السفر إليه للمرة الثالثة، لولا انشغالاته السياسية الجديدة.

يحرضه في المكالمات على نسيان ضياء: يا ولدي، اقطع علاقتك بهؤلاء الضالين، لا وجود لنبي بعد الرسول الكريم، ذلك اختراع من مخيلة شخص التبس عليه الأمر، كتابهم مليء بالأخطاء النحوية، والتناقضات، فكيف يكون ذلك كلام الرب؟ يا ولدي، ستتعرف إلى فتيات كثيرات، وسوف تحب فتاة أخرى، وستكتشف طرقًا مختلفة للسعادة. هذا هو امتحانك في الحياة، الله يمتحنك، يمتحن إيمانك.

وذهب في خطبه إلى أبعد من ذلك، فاستشهد بأقوال مأثورة لرجال التصوّف والفلسفة والتاريخ والسياسة، ورغم ذلك لم يسمع جوابًا من صادق الذي أرسل إليه رسالة نصية أعلن فيها عن خصامه. وهاتفه في الحال، لكن من دون فائدة، أرسل إليه: لا تعتقد أن الأمر يستهويني، أنا أتعذب معك. يجب أن تكبر، وتعرف حقائق الحياة القاسية، وأن تكون رجلًا لتتقبلها. صادق، الالتزام بالدين هو الطريق السوي لتعيش حياتك.

-١٧-

- صادق، الله يمتحنك، فلا ترسب في الامتحان!

تجاوزت العشرين، وما يزال أبي يتسلط على حياتي، يزعق عليَّ كلما هاتفني، لم يتغير من أخلاقه شيء عدا أنه كان يبث مواعظه من لندن إلى الوطن في مراهقتي، والآن يبثها من الوطن إلى لندن، لكني أستمع إلى خطبه العصماء دون أن أتأثر، لا تخفف عني كلماته العذبة، ولا تخيفني تهديداته باسم السماء، أشعر بأني منذور لحب ضياء، أراها الملاك الطاهر مهما وصفها كشيطان خبيث.

حين أعلنت خصامه شعرت براحة، تحررت من سلطته للمرة الأولى في حياتي، ثم عشت بروح تائهة بين زملائي، أهملت حلاقة ذقني وملأ الشعر وجهي، وبدوت مثل ثوريي الثمانينيات. مرت الأيام موحشة، فقدت القدرة على الضحك، فقدت الإحساس بالطبيعة الخلابة أمام التايمز، فقدت الشعور بالوجود.

نصحني رالف بجلسات يوغا سبق أن جربها، ففعلت. هدأت سريرتي قليلًا، أتاحت لي التجربة إعادة تأمل الأفكار والقيم، كنت

سجين شعور ضيق بالوحدة والفراغ، ثم خرجت من غلالة النظرة القاصرة إلى رحابة الوجود، فهمتُ أن الأديان هي سبب تعاسة البشر، تعدهم بالسعادة في السماء لأنها لا تستطيع أن تهبها لهم على الأرض، وأدركت أن أبي والسيد زنجاني ليسا واقعيين، ولا ينتميان إلى روح العصر، حتى البهائية التي تدَّعي الحداثة والشمول والإنسانية، عجزت مثل بقية الأديان عن تقبل الآخر، وهكذا امتنعت عن الذهاب إلى المركز البهائي، ما من داعٍ لمخادعة النفس، أو إكمال تلك الرحلة الدينية، ولم يلحظ أحد أن العالم البهائي نقص واحدًا.

ولأنها تملك حسًّا عمليًّا، استعادت ضياء توازنها خلال فترة قصيرة، تحرر شعرها الكستنائي ورجع يمرح على كتفيها. أما أنا فاحتجت إلى فترة أطول لأنسى أن الكرة الأرضية التي أمشي عليها، تمشي عليها كذلك ضياء، ووضعت في محفظتي القديمة صورة لها، طبعتها من حسابها على الفيسبوك، حشرتها بين صورتيِ الراحلتين: أمي أمل وبيبي حسينية، السيدتين اللتين لا تغادران قلبي.

الفصل السابع

-١-

توفي جدي الحاج عبدعلي، وقررتُ العودة إلى المنامة، لأودع الرجل الذي اختصر من عمره جيلًا ليصبح أبي الفعلي. استقبلني زاهر في المطار، على وجهه كآبة لا تناسبه، وفي المقبرة لمحت أبي فتجدد حقدي عليه، لا سيما أنه لم يلتفت ناحيتي ولا حتى بنظرة حنان كالتي تظهر عادة بين أعضاء الأسرة الواحدة في أيام الحداد.

آلمني منظر جثمان جدي، بدا هزيلًا في قماش الكتّان، عظامه نافرة، أنفه الطويل مضغوط تحت القماش، هذا جدي سليل دلمونيين ساميين عاشوا على الجزيرة قبل الميلاد، جده الأوسط من عدنان أو قحطان، أصل عربي لا شك فيه، وجده الأقرب من الأزد أو عبد قيس، قبائل عربية نزحت إلى الجزيرة حين كانت تدعى أوال، أمّا جده القريب فمن الطيبين الذين دخلوا الإسلام دون قتال.

أمّنا في الصلاة عليه أحد وكلاء الحزن الأبدي، ممن يتعمّمون بعمامة سوداء، ثم طفا النعش فوق الأيدي، أصدقاؤه وناشطون سياسيون جاءوا لمؤازرة أبي المعارض السياسي.

- لا إله إلا الله، محمد رسول الله، عليّ ولي الله ...

هللت مع المهللين:

-- فاطمة الزهراء بضعة رسول الله، الحسن والحسين سبطا رسول الله، هذا ما وعد الله به ورسوله، وصدق المرسلون.

طفنا بالنعش بين شواهد القبور، وراءنا يفور الغبار، وأمامنا رائحة تراب طري من حفرة طازجة، كان أبي يوجّه نظرات شزرة ناحيتي، ويصيح:

- اذكر ربك يا غافل!

مقولة تكرر عادةً أثناء مراسيم الدفن، لكنه يقصدني بالنصيحة. أتفق معه، الحياة غفلة والموت تذكرة، حدث يتأرجح على طرفيه الكفر والإيمان، تذكرت أصدقاء الطفولة الذين فقدوا آباءهم، سهراب التزم بالصلاة، وجعفر أدمن المخدرات.

أنزل أبي جثمان جدي في القبر، مدده ووضع تحت رأسه تربة جُلبت من العراق، تراب كربلاء يختلط بتراب المنامة ليستقيم الإيمان في البرزخ الأخير. كشف أبي عن وجه جدي ففاحت رائحة كافور التكفين، رائحة الموت الحقيقية. كانت عيناه مغمضتين، بلا كحل، وناب وحيد يطل من بين شفتيه، كأنه يبتسم في نومة هانئة، وسوف يصحو عمّا قريب، أو بعيد.

خرج أبي من القبر ملطخًا بالطين والعرق، وهبط رجل الدين ليلقّن جدي التعليمات الأخيرة، عمائم منذورة لتلقين الناس،

الأحياء كما الأموات، أدنى فمه من جدي، وخرجت كلماته من الحفرة في صدى رهيب:

- يا عبدعلي بن كاظم، اسمع افهم، ...

تردد الصوت من داخل الحفرة ثلاثًا، وبكى عمي عباس بحرقة، لعله تذكر أن جدي توفي فاقدًا ذاكرته، وهو الآن في أمس الحاجة إلى هذا التلقين. أبي انتحب مع كل شهقة وزفرة، سالت دموعه من دون أن يهتم بمسحها، وددت لو احتضنته، إنها المرة الوحيدة التى أراه فيها في هيئة إنسان ضعيف، ولوهلة نسيت خصومتي معه.

وعلا صوت الملقن:

- يا عبدعلي بن كاظم، إذا أتاك الملكان المقربان رسولين من عند الله تبارك وتعالى وسألاك، فلا تخف ولا تحزن، وقل في جوابهما: الله ربي، ومحمد نبييّ، والإسلام ديني، والقرآن كتابي، والكعبة قبلتي، وعلي بن أبي طالب إمامي...

وعدّد الأئمة حتى آخرهم الثاني عشر:

- ... والحجة المنتظر إمامي.

وعندها هب المشيعون واقفين، ووضعوا أيديهم على رؤوسهم تبجيلًا للغائب الحي جسدًا وروحًا.

- ثبّتك الله على قول الحق.

ختم المعمم مواعظه، وخرج من الحفرة، وأهلنا التراب على

القبر، وروويناه بالماء، نساء العائلة المدثرات بالسواد ارتمين على القبر في نحيب مكتوم، ونثرن عليه أزهار مشموم زكية، في أنفي هي رائحة الموت الفوّاحة. ومثل جنازة أمي، وجنازة بيبي، كانت جنازة جدي حدثًا مهمًّا لن أنساه، ذهب جدي إلى فردوسه باسمًا، لا يتذكر من دنياه شيئًا.

تقدم أبي صف رجال العائلة، لتقبّل العزاء، ولأنه لم يكن لديَّ مزيد من دموع لأذرفها، ابتعدت لأخرج من المقبرة، لم أهتم بأخذ مكاني بجانب أبي، كما تقتضي الأصول. وتحملت نظرات عمي اللائمة والإحراج الجلي على وجهه، وخرجت إلى الشارع.

-٢-

- صادق، لقد تغيرت كثيرًا.

قال زاهر يفترش الأرض، بينما يحتل صديقه السرير الوحيد في الغرفة.

أجاب صادق:

- أليس التغيير هو سنة الحياة؟

- طبعًا، طبعًا، لكن السر يستفز النساء، العمات متلهفات لمعرفة سبب خصومتك مع أبيك!

وحين لم يجب صادق، تابع زاهر:

- أمي تحذرني منك، تخشى أن تعديني عاداتك المتمردة.

أعفاه الظلام من مشقة النظر إلى وجه صادق:

- لا أعرف لم تخاصم أباك، لكني واثق بعدالة موقفك.

تثائب صادق:

- آباؤنا لا يفهموننا، ولا يكفون عن نصحنا.

- نعم، منذ أن أصبحت أقلد الإمام الشيرازي، وأشارك في موكب التطبير، وأبوك يزجرني كما لو أنني خرجت من الملة: متى ستعقل؟ متى ستتوب؟

الإمام الشيرازي! إذن زاهر يسمي آية الله محمد الشيرازي إمامًا! ويشج رأسه بالسيف، هكذا فكر صادق! تخيّل ابن عمه في كفن أبيض، يشارك في العاشر من محرم في موكب التطبير، ملطخًا بدمائه من قمة رأسه حتى قدميه. كان زاهر يمر بتغييرات هائلة، وأدرك صادق أن العداء بينه وبين أبيه يرجع، في جزء منه، إلى تلك الخصومة المستحكمة بين تيار ولاية الفقيه وبين تيار الشيرازيين، المقلدين للسيد محمد الشيرازي المعارض لهذه الولاية، وصاحب النظرية المقابلة: شورى الفقهاء.

- صرت أتجنب الحديث مع أبيك، لا أطيق سماعه يتطاول على شيوخ الشيرازيين! يزعم أنهم متطرفون، ورطوا شبابًا مندفعين في محاولة انقلاب سياسية فاشلة، وأنهم حولوا التشيع إلى نواحٍ وبكاء وشعائر بدائية. ولأن السيد خامنئي أفتى بحرمة التطبير، ومنعه في إيران، فإن أباك يريد أن يراه ممنوعًا كذلك في البحرين.

صادق تخيل أباه يصرخ بتلك الكلمات بعينين متقدتين يعرفهما جيدًا، لكنه هز رأسه موافقًا، إنه الأمر الوحيد الذي يتفق فيه مع أبيه، منذ مراهقته لم يؤمن بالتطبير، يعتقد أنها شعيرة

تنتقص من قضية الحسين، أقنعه بذلك آية الله مطهري في **الملحمة الحسينية**.

تابع زاهر:

- في محرم الفائت حدث أمر لا يصدق! مرّ موكبُ مناهض للتطبير بمأتم مناصر له، فأدار الرادود وجهه ناحية المأتم وتلا: **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ**، ... تصور المأساة! إنهم يعتبروننا كفارًا!

رغم نعاسه، لم يقاوم صادق متعة السؤال:

- لماذا لا يتبعُ المراجع الفقيه الأكثر علمًا، وينتهي الخلاف؟

- لأنه لا تجوز ولاية فقيه على فقيه.

ليس زاهر متفقهًا في الدين، لكنه مثل كل شيعي يعرف إجابة ذلك السؤال. لا تجوز ولاية فقيه على فقيه! منذ صغره يسمع صادق هذه العبارة، المنطق نفسه الذي ينهي النقاش الفقهي حول التطبير، وتستمر الرؤوس تنزف الدماء في مواكب العزاء.

-٣-

بثت مكبرات الصوت تلاوة قرآن وفرضت على الحي حدادًا محكمًا، احتقنت شوارع المنامة الضيقة بالسيارات، وغصّ مأتم ابن كاظم بالبشر، صادق جلس في زاوية يراقب رجال عائلته يستقبلون المعزين، يشعر بأنه لا يشبههم، لا أحد أسمر مثله، لا أحد يفهمه، ولعله نفسه ما عاد يفهمهم، ولا يرغب في فهمهم.

يسمع همهمات التعازي في ارجاء المأتم، الرجال يتهامسون عن الانتخابات البرلمانية، معظمهم قاطعوها في الدورة السابقة، آخرون ينوون المشاركة في القادمة، ويختلفون فيما بينهم، ويتأفف العجائز، وتتعكر الأمزجة، وترتفع الأصوات، أكثرها لشباب لم يتجاوزوا الواحد والعشرين، السن القانوني للتصويت، وكلما علا صخب السياسة على تلاوة القرآن، زجر أحدهم:

- رحم الله من قرأ الفاتحة على روح المرحوم!

يعود مجلس العزاء إلى وقاره للحظات، وما أسرع ما ترجع وشوشة الانتخابات.

صعد المنبر رجل دين شاب، ذكر محاسن الراحل، ودعا له:

- نحتسبه عند الله، مع الأئمة الأطهار وخدمة الحسين.

ثم زلزل المأتم بصوت هادر:

- هل غسلتم فقيدكم، وكفْنتموه، ودفنتموه، واستراح في تربته؟

ذكر غسل الميت، ففهم المعزون أين ستنتهي العبرة، وانفجروا في البكاء، ثم أجهز الخطيب عليهم بكلام يحمل شحنات عالية:

- هل تذكرتم مصيبة السيدة زينب في كربلاء؟

- هل تخيلتم معاناتها وهي ترحل عن أجساد أهلها من دون غسل أو كفن؟

- يا الله! سار رأس الحسين على الرمح أمام أطفاله!

ارتفع النحيب في المأتم كأنه يوم العاشر من محرم، وتدفقت دموع صادق على جده، وعلى الحسين، ويبكي أمورًا أخرى لا يفهمها. يقارن مصيبته بالمصاب العظيم للحسين ويهون عليه فقده. وليس بكاءه لوحده في لندن مثل بكائه مع جماعته، يشعر صادق أن البكاء في المأتم يؤاخيه مع أهل الحي في حميمية وقورة، ويربطه بهم روحيًا.

فرغ الخطيب من خطبته، وانقض المعزون على آل كاظم بالمصافحات، صادق تلقى العزاء دون أن يميز وجوه الرجال، ينظر إلى وجه أحدهم وهو يوقن أن صلة ما جمعت بينه وبين جده، الذي كان يعرف أهل المنامة مثلما يعرف راحة يده، يعرف عوائل السادة من نسل

الرسول، الموسوي والعلوي والهاشمي، يعرف ما التصق بالعوائل من مهن احترفوها، الطوّاش والغوّاص والنجّار والسمّاك والحدّاد والعبّار والحلواجي، ويعرف المسقطي المهاجر من عمان، والحلّي القادم من حلة العراق، والكازورني الوافد من كازرون في فارس.

صافح صادق آلاف الكفوف، تلك الناعمة مثل القطن لرجال دين، والخشنة للعمال، والمجعدة لعجائز، وكفوف الأثرياء المدججة بالخواتم، وكفوف هزيلة عليها ثآليل، ومتسخة لشحاذين، وكفوف بأصابع مبتورة لنجّارين، التهمتها آلات قطع الأخشاب. خلا المأتم من المعزين، وامتلأ بهم المسجد القريب، غير أن صادق تفاجأ بكف متأخرة تربت على كتفه:

- لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل.

التفت فرأى الأستاذ غازي بنظارته السميكة ذات الإطار المربع، واحتضنه شاعرًا نحوه بعاطفة قوية، وسأله متخابثًا:

- هل جئت تدعوني إلى الانضمام إلى جماعتك؟

- بل جئت لأقدم إليك التعازي، وما من أسرار الآن، نحن نعمل في العلن، في جمعية التجديد الثقافية.

ثم استطرد بحماسته المعهودة أن جمعيته استفادت من مشروع البلاد الإصلاحي، وتبنّت مشاريع فكرية لتقديم فهم متطور لتفسير القرآن، وتجديد الدين.

تجديد الدين! فكر صادق الذي صار يدرك بعد تجربته المريرة

مع البهائية، ما يعنيه التجديد، ويفهم البحارنة حين يتهمون جماعة الأمر بأنهم بهائيون في نسخة معدلة. لكن ذلك آخر ما يشغل باله، كان مهمومًا بفقد جده، ويريد أن يعيش حياته ببساطة، وأن يكون جزءًا من روح عصره، قال متحديًا:

- ما عدتُ أقرأ كتب الدين.

- لماذا؟ عليك أن تتمسك بالدين، لم ينجز البشر شيئًا خارج أسوار الدين!

ثم أضاف:

- هل تخيلت يومًا أن الجنة موجودة هنا، على كوكبنا؟ وأن مداخلها في جبال السراة، وأن الأئمة المعصومين يدخلونها من باب غير منظور في الكعبة، عند الركن اليماني؟

- أستاذ، لا يمكنني أن أتخيل الجنة على الأرض!

- يمكنك أن تنضم إلى جمعيتنا لتفهم أكثر.

- لست مهتمًّا بالأمر.

أفرج الأستاذ عن ابتسامة يائسة:

- لا عليك، يمكنك أن تنضم إلى منصتنا الإلكترونية.

في الأثناء، دخل عمه عباس، على جبهته ثفنة متغضنة لكثر ما سجد على الترب الحسينية. ارتبك الأستاذ غازي، واستأذن لينصرف سريعًا.

- هل ستشاركون في الانتخابات؟

لاحقه صادق بالسؤال قبل ابتعاده، ومن دون أن يلتفت وراءه، لوّح بحركة النفي.

العم عباس تفرّس وجه صادق بنظرات فاحصة، وأشار بيده:

- ذلك الأستاذ، ما اسمه؟ أليس واحدًا من جماعة السفارة؟

- إنه الأستاذ غازي، جاء يقدم واجب العزاء، وليست لديَّ أية صلة بجماعته.

قطّب العم عباس وجهه:

- اذهب ساعد أباك! إنه في المسجد، يوزع على الناس لحمًا وأرزًا. اذهب، الولد سند أبيه!

كلام يراه صادق غير معصوم، قاله الأولون في ظروف أخرى عن أناس آخرين، يقنعه أكثر ماركيز الذي كتب أن علاقة الابن بوالده ليست فطرية، تنشأ من كونه ابنًا، وإنما علاقة مكتسبة، تنبع من صداقة التربية.

- أي سند يا عم؟ هذا الرجل لا يحتاج إلى مساعدة من أحد!

- صادق، لا تخاصم أباك!

- ...!

- لا تكن مثل أبيك! لا تعادِ أهلك من أجل أفكار في الكتب.

- ...!

- إثبات الحجة على أبيك عقوق وإن كنت على حق، ولا تنسَ، لولاه ما حصلت على البعثة للدراسة.

- ما كانت حياتي ستنتهي بدون تلك البعثة!

أجابه صادق بعناد.

-٤-

تركت عمي عباس، وتوجهت نحو بيت جدي، البقعة الأثيرة التي أشعر فيها بوجودي. سرت في أزقة ضيقة، ملتوية بين بيوت متراصة البطن للظهر، كأنها سمك السردين المعلّب. دفعت البوابة الخشبية، واندلق بكاء بلا وقار، نساء ينتحبن تتقدمهن ملاية مدججة بمكبر للصوت، تلعلع بحزن كربلاء الأسطوري. عماتي، زهراء وخديجة وفاطمة، أشرقن بينهن بوجوه ناصعة البياض، أعينهن الخضراوات تلتهب احمرارًا، رأينني فاندفعن نحوي، العمة زهراء جاملتني:

- لا خلا ولا عدم منك! كان المرحوم يحبك أكثر منا جميعًا.

وقالت العمة خديجة:

- في أيام حزينة كهذه تنسى الرجال خلافاتها.

أما العمة فاطمة فقرصت أذني مازحة:

- الروايات التي قرأتها في بلاد الكفار أفسدت أخلاقك.

رسمتُ لهن ابتسامة فاترة صرت أجيدها منذ أن أشهرت خصامي لأبي.

فرشته زوجة أبي لوت فمها مستاءةً، من دون أن تنظر ناحيتي:

- الشاب إذا ترك صلواته ظهرت عيوبه.

لعلها شكّت أني شربت الخمر، أو انزلقت إلى الإلحاد. حقدتُ عليها إذ حدست ما يجري في حياتي، لكني لم أكترث للرد عليها، ورميت بنفسي في حضن خالتي حنان التي شهقت:

- رائحة أختي المرحومة!

بدت العمة زهراء متوترة، جرتني إلى غرفة العمة فاطمة، وأجلستني على حافة السرير:

- الابن لا يخاصم أباه!

وتفجرتْ عيناها بدموع غزيرة:

- هل ما زلت تحقد على أبيك بسبب زواجه على أمك؟

ثم أسرعتْ:

- خابرت أخي جواد أمسِ وسألته: ما سبب خصامك مع صادق؟ واستنكر:

- أنا؟ أنا لا أخاصم ابني أبدًا، هو الذي أخذ يبتعد عني منذ توفيت والدته، يعاملني وكأنني السبب في موتها، مع أن مرضها هو الذي فرّق بيننا، واتسعت الهوة بيننا، وتحولت

حياتنا إلى مباريات للشجار. نعم، كانت أمه تنظر إليّ بنفور، لكني لم أهمل ابني، بل هو الذي كرهني لأني تزوجت.

تجمد عقلي، شيء ثقيل من ذلك التاريخ المؤلم جثم على صدري:

- عمة، يؤلمني ما اقترفه أبي في حق أمي، لكن ذلك ليس سبب خصامنا.

- ما هو السبب إذًا؟

- .....!

- لقد تعبنا! لا نحتمل المزيد من الخصومات.

رفعتْ يديها نحو السماء، وقرأتْ دعاء جدها الملا السيد علوان الذي تدفع به العائلة الشرور:

- اللهم إنا نسألك باسمك الأعظم الذي إذا دعيت به أجبت، اللهم قِنا شر ما خلقت وذرأت وبرأت، اللهم قنا شر الظالمين، وحقد الحاقدين، اللهم إنا برحمتك نستغيث.

ازدردتْ ريقها:

- بعد نفي أبيك إلى لندن، استغل جدك كل ما في وسعه لكيلا تصبح مثل أبيك.

بكيتُ:

- شعرت بذلك في طفولتي، لكني لم أعرف كيف أعبّر عنه. أحيانًا أشعر بأني السبب في تدهور العلاقة بين جدي وأبي.

- أنت مخطئ! من الذي زرع هذه الفكرة في رأسك؟ أخشى أن يكون رحيل أبي هو البداية لتمزق جديد في العائلة.

-٥-

في اليوم الثالث للحداد، أفرغت العائلة ما بقي من دموعها على قبر الراحل، صادق بكى بحرقة، كأنه يعتذر لجده لكي يرجع إلى حياته في لندن، وفي الطريق إلى المطار قال له زاهر:

- يبدو أنك ستتخرج قبلي!

- لماذا؟

- شغلتني مباريات النادي، وانتخابات البرلمان.

- الانتخابات؟

- ليس للمشاركة فيها، إنما لمقاطعتها.

أجاب زاهر بابتسامة خجلى، رآها صادق في وجهه في زمن الشقاوة.

كانت ثلاثة أيام فقط، لكنها كافية ليدرك صادق كم صار الناس مسيّسون، ينظِّرون في كل اتجاه، ويستعرضون آراءهم السياسية بحرية، زاهر ينتقد الجمعيات السياسية المختلفة، من دون أية

معرفة حقيقية بأيديولوجيتها، وكبرياء المذهب المتضخم بفكرة أن الشيعة أصحاب الحق، يظهر في حديثه من دون أن يشعر. شرح له صادق الفرق بين الاشتراكي والشيوعي، العلماني والملحد، البعثي والناصري، لكنه لم يهتم ليفهم:

- لا يقلقني سوى جماعات من الشيعة تنوي المشاركة في الانتخابات القادمة.

وتنبأ:

- ربما أصبح أبوك حضرة النائب، إذا ما انضم إليهم.

- ديمقراطية ناقصة خير من لا شيء بالمرة.

قال صادق المقولة التي عبّر عنها مناضلو البلاد بطرق مختلفة.

- لن أشارك في الانتخابات القادمة، ولن أعطي صوتي لأي مترشح.

هتف زاهر محدقًا إلى عيني صادق:

- وإن كان أبوك!

صادق تفاجأ بابن عمه الذي استلبته السياسة إلى هذا الحد:

- أبي لا يعنيني في شيء.

- لماذا تخاصمه إذاً؟

- لأنه لا يطل على حياتي إلا نادرًا، وإذا فعل تتعقد إلى الأسوأ.

غاب زاهر قليلًا، ثم استطرد:

- تعرف صادق، لقد خسرنا كأس الخليج في العام الفائت!

- نعم، في المباراة النهائية أمام السعودية.

ما تزل هزائم المنتخب تؤذيه، لا يهتم بالدوريات ولا المسابقات العالمية، لا الدوري الإنجليزي الممتاز، ولا مونديال كأس العالم، لكنه يتفرغ لكأس الخليج، يتابع المباريات بمزاج ذلك الطفل الذي كان يتصنع النظر بشزر قبل أن يسدد الكرة بين النخلتين.

تسائل زاهر:

- من يصدق أن منتخبنا لم يفُز بكأس الخليج، ولا مرة واحدة؟

حلقت الطائرة فوق الجزيرة الصغيرة، شعر صادق بتفاهة الحياة وشقائها، سالت دموعه من جديد، دموع أثارت في طفولته فضوله، فتحسسها بأصابعه، وتذوقها بلسانه، واكتشف مبكرًا أنها شفافة مثل اللعاب، وساخنة مثل الشاي الفاتر، ومالحة مثل ماء البحر، وعرف من الموسوعة العلمية أنها تسيل من غدد دمعية مخفية تحت جفنيه العِلويين، وحين تمتلئ عيناه بالدموع يمر بعضها في قناة تصب في تجويف أنفه وتنزلق إلى بلعومه فيتذوق طعمها المالح، أو تخرج من فتحتي أنفه. ولا بد أن غدده الدمعية تضخمت مع تكرار حضور المناحات في المآتم، حسب نظرية استخدام الأعضاء، فأصبح دميعًا، سريع الدمعة، ودمَّاعًا، غزيرها، كما تقول المعاجم.

اكتشف صادق أن تلك القطرات المالحة لا يمكن أن تكون مجرد تعلق ساذج بالحياة، يتعاظم شعوره بأنه فهم ذلك البكاء، يكره أن تستولي على حياته دموع حمقاء، قرّر أن يقبض على ناصية مصيره، أن يجعل من عمره هدفًا لمشروع ما، لا يعرف ما هو بالتحديد، لكنه ليس خضوعًا أعمى لخطة مكررة عبرت هذه الدنيا.

رجع إلى جامعته وقد ازداد سمرة من شمس المنامة، لا يملك مزاجًا للمذاكرة، ولا الكتابة في الرواية التي قرر تأليفها، فشرع في كتابة سيرته الذاتية، كتب آلاف الكلمات أولى فيها أهمية بالغة لعذابات طفولته، ويأس مراهقته، والألم الذي ينخر عظامه في شتاء لندن، لكنه لم يفلح في تجاوز الفصل الأول.

الفصل الثامن

-١-

- صادق، هكذا هي الحياة، طلاب يأتون، وآخرون يتخرجون ويرحلون.

قالت جودي، تنظر إلى روب على فراش المرض، وسيزار جالس عند قدميه.

ودع صادق رالف في الجامعة بعناق حار، مع وعد بالتواصل بالبريد الإلكتروني، ومن نافذة الطائرة ودع لندن، لا ينوي الرجوع إلى بردها الذي يتغلغل في صميم عظامه. بعد ساعات، شعر بدفء يشع عبر النافذة، الطائرة تحلق فوق شبه جزيرة العرب، ثم أخذت في الهبوط نحو جزيرة صغيرة طافية على مياه الخليج.

زاهر استقبله في المطار، كعادته نابضًا بالحياة، يبتسم وسع فمه، يمسح بيده على رأسه الحليق كأنه بطيخة:

- محرم قادم، وسوف تنزف رؤوسنا حبًّا في الحسين.

في الطريق، ثرثر بما يزعجه، تأخره في التخرج، وقرار المعارضة

بالمشاركة في الانتخابات، وخسارة المنتخب أمام ترينداد وتوباغو، وقرب ضياع التأهل إلى مونديال ٢٠٠٦.

- حياتك يا زاهر تعصب لكل شيء، الدين والسياسة والرياضة، لم تتغير شيئًا!

واصل زاهر سرد ما ظن أنه فات صاحبه طوال سنوات دراسته الخمس، لم يسكت إلا حين أوقف سيارته عند البيت، ثم انطلق ليساند فريق نادي العاصمة لكرة السلة، وسوف يشجعه بأعلى صوت، من أجل الفوز على غريمه الأسطوري، نادي العجم.

بحقيبة بها الكثير من الكتب والقليل من الملابس، دخل صادق بيتًا مقفرًا، هواؤه ساكن وشقوق جدرانه عميقة، مأتم جدته يعبق برائحة الغبار، الزاوية التي نضحت بماء المعجزة غطتها خيوط العنكبوت، والسلم تآكلت عتباته، النخلتان يبس سعفهما، لا أثر للطيور التي كانت تسكنهما، حتى أن زوجي حمام بنيا عشهما في ميزاب سطح البيت. طاف بنظره على الغرف ورجع الماضي يتراقص في مخيلته، أمه تركض بكوب الشاي وراء أبيه قبل أن يمضي إلى عمله، جده يعلمه تهجية الكلمات في الصحيفة اليومية، وعصابة أولاد يلعبون معه، صبيان وبنات من أعمار مختلفة، وبلون بشرة واحد، لون جدته رائعة الجمال. وحين أرهف السمع جاءت أصوات من طفولة بعيدة، جدته تصرخ بحماسة المعلمة: ألف لا شيلة، زاهر يهتف مقلّدًا كابتن ماجد، إذاعة طهران تلعلع بأناشيد الثورة، ودهمت أنفه روائح قديمة، كافور مرهم الفكس اللاذع في

أنفاس جده، الزعفران في مربي جدته، وأبخرة البهار الهندية في عيش الحسين، وماء الورد في عيد الغدير.

- صادق، حبيبي، الطفل الذي رعيته صار رجلًا!

هتفت العمة فاطمة، الوحيدة التي تسكن البيت، سمعت خطواته وخرجت من غرفتها، العنوسة رسمت تجاعيدها في وجهها الصبيح، والزمن ملأ جسدها سمنة، احتضنته، تنثر دموعها على قميصه وتمسحها بيدها، من دون أن تستطيع السيطرة على نفسها، ولما رتبت ثيابه لاحقًا، تركت في بنطلونه مصروفًا له.

قدم صادق طلبات للحصول على وظيفة في وزارة التربية والتعليم، وعدد من المدارس الخاصة، ثم جلس مع عمته ينتظر بكآبة العاطل، وحدهما في البيت الكبير، لا يريان العائلة إلا يوم الجمعة، تأتي العمات والأحفاد وشغالات آسيويات يحملن قدور الأرز ومرق اللحم والسمك المقلي، وما عدا ذلك يخيم على البيت الهدوء الممل. حكى صادق لعمته عن الجامعة وجودي وروب ورالف، حكى عن أشياء دون أشياء.

وذات مساء اختنق بالملل فخرج يتمشى في الشوارع دون هدف، مضى إلى مقبرة المنامة، وجد الملعب مهجورًا، تملؤه شواهد قبور جديدة، ولا أثر لروحه السابقة. يتذمّر من الصيف كما لو أن القيظ حلَّ على البلاد بغتة، ولم يعهده طوال حياته، يشتاق إلى نسمات لندن الباردة، يمضي إلى شمال المدينة حيث يستلقي البحر على ساحل المنامة، اشتاق إلى تلك الذكرى من الماضي، حين يسير

على الرمل الرطب بقدميه الحافيتين، تداعبهما موجات ناعمة، بينما قرص الشمس يغطس وراء الأفق.

عبر شارع الحكومة إلى الساحل، لكنه لم يجد البحر، لقد رحل، ورحلت الأمواج التي يسمع هديرها مع رياح الشتاء، رحلت رائحة اليود، رحلت طيور النورس التي رسمها في درس الفن نتفًا بيضاء فوق ميناء المنامة، رحلت المراكب الخشبية التي تبدو في الصور راسية بين البيوت، رحل مدفع رمضان الذي يجلس عند الساحل، وعند الغروب يشق سماء المدينة بطلقة جبارة، وبسبع طلقات في ليلة العيد.

لم يتوقع صادق أن البحر سوف يبتعد عن المدينة إلى هذا الحد، مثل كل شيءٍ أصلي وثابت قدّر أنه سيبقى إلى أبد الآبدين، ويا لها من مفارقة ساخرة! بدل أن يهيج البحر ويبتلع المدينة، ابتلعت المنامة البحر وازدردت سواحله، فما عاد الشاطئ حنية رشيقة في خاصرة العاصمة، ما عاد فناءً خلفيًّا للأحياء القديمة، صار بعيدًا، تفصله عمارات تناطح السحاب، يسمونها الواجهة البحرية، منشآت حديثة للمدينة المتفاقمة بسكانها، وخلفها تقف الواجهة القديمة شاحبة، لم يبقَ من عمارتها الكولونيالية الناصعة البياض سوى مبنى المحكمة، وباب البحرين، البوابة التي كانت فخر البلاد في أزمنة الاستعمار.

بدت المدينة غريبة عليه، ليست المكان الذي نشأ فيه، لا ينتمي إليها، ولا يفهم أهلها الذين هجروا أحياءهم القديمة، تركوها

لبسطاء العمال من الهنود، حتى أن أحدهم أطلق عليها اسم الهند الصغيرة، لكن الأهالي ظلوا يزورون أماكن عبادتهم في المناسبات الدينية.

البلاد كلها تعيش طفرة اقتصادية، وتوسعًا أسمنتيًا هائلًا، الأبنية القديمة حلت مكانها عمارات حديثة، وشيدت طرق سريعة، مزدحمة بسيارات من أحدث الموديلات، ثمة مجمع تجاري في كل حي، به مقاهٍ حديثة، ومطاعم تقدم وجبات سريعة، ومحال تعرض بضائع لماركات عالمية بأسعار خيالية. أصبحت مظاهر الرفاهية عنوان المرحلة لأهل البلاد، فضيلة ابنة عمته خديجة تطالب أباها بسيارة جديدة قبل أن تنهي المرحلة الثانوية، وأخوه غير الشقيق، عمار ذو العشرة أعوام، يشعر بأن امتلاكه لهاتف نقال حق طبيعي له.

عادات أزعجت صادق، ثقافة لم ترُق له، شعر بالإحباط، صار يحن إلى لندن وغرفته في سكن الجامعة، أخبره رالف في إحدى الرسائل أنها أعراض الصدمة الثقافية التي تصيب المغتربين حين يرجعون إلى أوطانهم بعد مدة. قاوم صادق ذلك التهافت على الحياة الاستهلاكية، يكفيه مصروف بسيط، وحاسوب مستعمل أهداه إياه زاهر، ورجلان يجوب بهما المدينة، ليس لأنه عاطل عن العمل فحسب، وإنما بسبب ما تعلّمه من جودي وروب في العيش دون تبذير.

أخبره زاهر أن أعضاء فريق الرافدين يعيشون في سعة، ويركبون سيارات فارهة، حارس المرمى راشد السمين ازداد سمنة، وأصبح

معلقًا وصحفيًّا رياضيًّا، يملك شقة حديثة في عمارة تقع على الواجهة البحرية. علي العملاق يعمل في قطاع العقارات، ويملك سيارة مرسيدس ينكشف سقفها أوتوماتيكيًّا، ولأجلها يدفع للمصرف الوطني أقساطًا شهرية باهظة. آغا سهراب الذي يتمنطق بالأحزمة العريضة، ويعلق السلاسل على رقبته، صار رجلًا ناضجًا في لباس شركة النفط الكاكي، لكنه اقتنى دراجة هارلي ديفيدسون النارية التي يحلم بها. أما زكي، أبو لمعة، فأصبح لاعبًا في الفريق الأول لنادي العاصمة، ويتوقّع زاهر أن يتم اختياره في المنتخب الوطني، وهو يعيش مرفهًا مع زوجته في بيت في مدينة سار، وقد بلغ به البطر أنه جلب شغالة فلبينية قبل أن يرزق بالأولاد.

سأل صادق عن جعفر، الكرة المثقوبة، الذي كان يراه شخصية مثيرة، غير مبالية، ردود أفعالها غير تقليدية.

- لدى جعفر ما يؤهله ليكون بطل رواية!

- جعفر! بطل رواية؟

أطلق زاهر صفيره المعهود من تحت لسانه:

- ما من سر أنه يدخن الحشيش!

وحكى أنه تعاطاها في البداية ليحتمل اكتئاب المراهقة، لكن النبتة سيطرت على حياته، وكانت السبب في فصله من المدرسة، ومن عمله غير مرة، لأنه يتاجر بها، ومن أجلها أصبح نزيلًا مقيمًا في السجون.

- إنه الآن هيكل عظمي، وما يزال يصر أن الحشيش لا يسبب الإدمان.

- ماذا يعمل؟

- لم يعرف لنفسه طريقًا في الحياة، لا في التعليم، ولا الرياضة، ولا الوظيفة، يكسب قوته من غسل السيارات، وبلغ به الفقر أنه لا يملك سيارة!

-٢-

- جعفر!

ناديته قبل أن يدخل بيته، كان يمشي بخطوات وئيدة، يحمل دلوًا وعدة غسيل السيارات، عظامه نافرة من تحت قميصه، وجهه شاحب، عيناه حمراوان، كأنه مريض.

- صادق! ماذا تفعل هنا؟

- كما ترى، أنا عاطل عن العمل.

- ماذا فعلت في لندن؟ قالوا إنك درست الإنجليزية؟

- لا، درستُ الأدب الإنجليزي.

- أدب؟ ما الوظيفة التي يمكنك أن تحصل عليها بالأدب؟

- ربما عملت مدرسًا، أو مترجمًا.

فرقع جعفر لسانه في سقف فمه:

- تعرف، ذلك أفضل من ملا!

ما يزال مصدقًا الشائعة التي راجت في طفولتنا بأني أردت أن أصبح ملا.

التقيته مرارًا، لا أراه إلا مخدرًا، في حالة انتشاء غير مبررة، أو مكتئبًا في مزاج سوداوي، يسفّه أهل الحي في هذيان مريض، همس لي ذات مرة:

- هل تعلمت تدخين الحشيشة في لندن؟ أم أدبر لك شيئًا أقوى؟

وحين أجبته بالنفي استاء، وبدا واضحًا أن الحشيشة كانت خطته لصداقتنا الجديدة.

أكلتِ الأيام بعضها بعضًا من دون أن أحصل على وظيفة، لم يستهوِني عالم السياسة الذي يسيطر على أهواء الناس، ولا قراءة صحف مشحونة بآراء الجمعيات السياسية. حضرت فعاليات في أسرة الأدباء، لكن الانقسام الذي بدأ مع الغزو العراقي للكويت، صار شرخًا لا سبيل إلى علاجه، القوميون الذين باركوا غزو العراق للكويت منذ زمن، عارضوا حرب الولايات المتحدة على العراق في ٢٠٠٣، أما المعارضون لغزو الكويت فقد احتفلوا بسقوط نظام صدام. كانت الأمسيات في أسرة الأدباء فاترة، يحضرها جمع قليل، ويغيب عنها الصحفيون، أبحث عن وجوه بعينها، الأستاذ غازي والشاعر قاسم حداد وآخرين، لكنهم هجروا المؤسسة العريقة التي هرمت، واقترح أحدهم تندرًا أن يكون اسمها: أسرّة الأدباء، بشدة على الراء، في كناية إلى شيخوختها.

سئمت التسكع في الأسواق، والجلوس أمام بحر صار بعيدًا، سئمت حضور الندوات في أسرة الأدباء، جذبتني مجالسة المتسكعين، رجال بعينهم ألفتهم في صغري بعد أن تغضنت وجوههم. لكل حي في المنامة دكته، ودكة حينا تقع عند تقاطع خميس، مقابل مدرسة فاطمة الزهراء للبنات، مصطبة من أسمنت يلتقي عندها رجال متقاعدون، يجتمعون عصرًا للترفيه عن أنفسهم، يراقبون المارة كما لو أنهم يحرسون الحي.

أصبحتُ من جلّاس الدكة، أتربع على ركنها ضجرًا، أشارك الرجال الحديث، أو لا أشاركهم، أشهد على ما يدور من أحداث، أتصيّد كلامًا بين رجال لا تستقر على ألسنتهم شائعة. سيد بحرين تاجر خردة، تقاعد من دكانته في سوق المقاصيص دون أن يتزوج، وما يزال يلبس نظارة شمسية داكنة، ويرتدي بنطلونات ضيقة، موضة ولَّت منذ زمن بعيد. وأبو آدم سائق سيارة أجرة، قاتل إلى جواري في عركة المقبرة لما كسر العجم ثنيتي، يدَّعي أنه البحراني الوحيد الذي تخافه فتوات العجم، لأنه أوجعهم ضربًا في سيرته الحافلة. وأبو جميل العجوز الذي تستهويه تعابير العرب البائدة، والأحاجي الشعبية البذيئة، يتحدى كل من يجلس على الدكة:

- حي يدفنونه وميت ما يكفنونه؟

لا يدري أنه نشر الأحجية في الحي كله، وأن الرجال يعرفون أن الجواب هو ذكر الرجل.

أما أبو سعيد الخمسيني فيتمتع بصوت جهوري وذاكرة رهيبة،

يحفظ عن ظهر قلب قصائد طويلة في مدح الأئمة المعصومين ورثائهم، ويفخر بخاتم في بنصره، عليه فص شفاف من در نجفي، هدية حصل عليها من السيد السيستاني، المرجع الأعلى في النجف، بعد أن تجشم عناء الانتظار في طابور طويل للسلام على سماحته في بيته.

أبو رائد هو أغرب الرجال في تلك الجوقة، رائق المزاج وله حس فكاهي، لا أحد يعرف سر ثقافته الواسعة، لأنه يكره القراءة، اشتهر بقوله إن الحقيقة الصافية لا تخرج إلا من عقول لم تلّوثها الكتب. يستخف بالعادات الاجتماعية، ويسميها عاهات سخيفة، يقتحم أي حديث ليبدي شكوكه في التاريخ والدين، ويؤكد أنهما السبب في تخلف البشر. ينتصر للعلم على الدوام، معتقدًا أنه الرب الوحيد الذي ينبغي أن تدين به البشرية، يمتدح الاكتشافات الحديثة، مثل التلفون والسيارة ومكيف الهواء، يقول مستفزًّا الرجال:

- الحمد للعلم.

وفي كل مرة يخرسونه:

- قطع الله لسانك!

- ألا تعلم أن العلم نفسه من فضل الله؟

- كافر!

سيد بحرين ردّ عليه ذات مرة:

- اخرس يا ملحد!

وردّ عليه أبو رائد:

- أتفق معك، الإلحاد أسهل علينا معشر الشيعة، لأننا قطعنا أشواطًا في الخرافة!

واستغربتُ كيف أجاز لنفسه تلك الجرأة، ولعله بالغ في الفصاحة، لأن رجال الدكة لم يفهموا كلامه، أبو سعيد المدافع العتيد عن الطائفة، كانت على وجهه ابتسامة خرقاء.

رغم بساطته، يستطيع أبو رائد أن يكون صادمًا، وينبغي على من يريد الاستمتاع بالجلوس على الدكة أن يتحمل هرطقاته. أعجبت بأبي سعيد لأصالته، لكني أعجبت أكثر بأبي رائد، بعد مدة استطعت أن أنفذ إلى أعماق الشخصية الشعبية، وما عدا تساؤلات أبي رائد الوجودية، يميل رجال الدكة إلى الحديث عن الأمور البسيطة، حزازير ومرويات تضفي على الجلسة جوًّا من البهجة، ولعلهم يرغبون أن يكون النقاش عبثيًّا، وتافهًا، وأن يستمر بلا طائل، مثل الحلوى البحرينية التي اختلفوا بشأنها، ومر أسبوع ولم يتفقوا إن كان أصلها عراقيًّا، أو عمانيًّا، أو هنديًّا.

مدرسة البنات التي يجلسون قبالتها كل يوم، يتفق كثير منهم أنها كانت فيما مضى بستانًا جميلًا، تملكه عائلة ميسورة من السادة، لكنهم لا يعرفون كيف حوّلته الحكومة إلى حديقة عامة اشتهرت باسمها الفارسي: الباغشة، ولا كيف بنت عليها مدرسة فاطمة الزهراء للبنات، لذلك شاع في الحي أنها بُنيت على أرض مغصوبة، لا تحل الصلاة فيها، ولعله من قبيل الاعتراض أن أهالي الحي لا يمرون

بجنائزهم على شارع المدرسة. أما ما مثّل إشكالية بالنسبة إليهم فكان حدود ساحل المنامة القديم حيث طال حديث الرجال عنه بعد أن تذمر سيد بحرين من عمليات دفن البحر، وأقسم بأغلظ الإيمان:

- كان شاطئ المنامة فيما مضى يبعد أمتارًا عن دكانة جدي في السوق.

واحتج الرجال:

- مستحيل!

- هراء!

- لا، ... لا يمكن!

وتجاذبوا حدود الشاطئ مدًّا وجزرًا، من دون أن يقدم أي منهم دليلًا واحدًا.

ولم أجد الفرصة للتعليق بكلمة في زحمة صراخهم المنفلت، ولم تحسم المسألة رغم كل ما هذروا به أسبوعين كاملين، حتى أن الأمر أصبح نكتة، يكفي التلميح للبحر، ليسخروا من سيد بحرين بتعليقات مازحة.

جماعة الأمر، أو جماعة السفارة كما اعتاد البعض تسميتها، هي الموضوع الوحيد الذي يتفقون عليه، يتمنون لو تختفي الجماعة ليهنؤوا بالسلام، المناصر الوحيد للجماعة هو أبو رائد، ليس لأنه يؤمن بالإمام المهدي، أو بغيبته، بل لأنه يستمتع بالحدث ليؤكد أن للناس الحق في أن يعتقدوا بما يشاءون، يجادل:

- لا أراكم تنتقدون التطبير، أغرب شعيرة دينية في العالم، مثلما تنتقدون جماعة السفارة.

أتذكر أنهم في البداية، لما جلست على دكتهم، وجّهوا إليَّ نظرات مريبة، لم ينسوا سابقتي مع الأستاذ غازي قبل خمس سنوات.

- صادق، هل أنت من جماعة السفارة؟

سألني أبو رائد بكل هدوء، وأجبته بالهدوء نفسه:

- كلا، اتهمني الطلاب في مدرسة النعيم زورًا.

اقتنع أبو رائد في الحال، ولا أدري حال بقية الرجال، لكن الموضوع انتهى عند ذلك الحد، وتعجبت لماذا لم تكن المسألة بهذه السهولة مع أبي!

الطرافة والتعليقات الساخرة من طبعهم، لكنهم ليسوا عدوانيين، ولا نمامين، الكلمة يقولها الرجل بكل وقاحة في وجه صاحبه، حتى إن أدت إلى خصام، يهينون بعضهم بعضًا على رؤوس الأشهاد، وإذا سخروا من أحد، ضحكوا عليه أمام أنفه. اندمجتُ في ذلك العالم الصغير وصرت أفهم نكاتهم حين يتلاعبون بالكلام، يبدلون المذكّر بالمؤنّث، والمؤنّث بالمذكّر، أو يقولون شيئًا ويقصدون به آخر، لا سيما حين يرمزون إلى جماعة الأمر. أحيانًا تكون وقاحتهم أكثر صراحةً، وسخريتهم أكثر لسعًا، وإذا ما غضبوا على أحدٍ قصفوه بذخيرة هائلة من الشتائم، ولأن شتيمة العرب لا تكون مكتملة الأركان إلا إذا وُجهت نحو المرأة، فأهل الشام يسبون

الأخت، وأهل مصر يسبون الأم، فإنه ولسبب غير معروف، يميل رجال البحارنة إلى سب الأم والأخت معًا، وتكون الابنة في أمان من ألسنتهم. بالمعاشرة اليومية اكتسبت مكانة على دكة الحي، الرجال يوقرونني، ويصغون لأحاديثي بانتباه، لأني فككت حرف المستعمر، وقرأت تاريخ بلادي في وثائقهم في أرشيف الإمبراطورية البريطانية. تجاسرت ذات يوم وتحدثت عن رحالة أوروبيين وصفوا العاصمة في كتبهم، بعضهم رسم لها خرائط بدائية، ولم تكن حينها سوى ميناء صغير، بنيت حوله السوق القديمة، قلت:

- ظهرت المنامة للمرة الأولى باسم منعمة في مراسلات حاكم جزيرة هرمز، وبسبب النطق الفارسي تحول الاسم إلى منامة.

قاطعني أبو رائد كعادته:

- أية وثائق؟ وأي هراء؟ كيف تثبت أن ذلك التاريخ الذي قرأته ليس محرَّفًا؟

أبو آدم الذي يدّعي أن فتوات العجم تخافه، لوح بيده معترضًا:

- اغرب عن وجوهنا! اسم المنامة ليس عجميًّا!

واستمر جدل عقيم، سار على أهواء الرجال وأمزجتهم، وعبثًا حاولت وضع نظام للجلسة، وتعليمهم أصول الحوار، أرفع يدي معترضًا إذا ما أساء متحدث إلى كرامة أحدهم، لكن الرجال الذين امتازوا باستعداد عجيب لمقاطعة المتحدثين، لم يتغيروا، وما زدتهم

إلا مادة إضافية للتندر. انتهت عاصفة الاسم منعمة بعد أيام، واستطعت أن أتابع:

- كان البحر رزق أجدادنا، وطريقًا لتجارتهم، وهو نفسه نقطة ضعفهم، منه جاءت أساطيل الغزاة، فرس وعمانيون وبرتغاليون وإنجليز.

- ماذا قلت؟

- فرس وعمانيون؟

- اعلم أن العمانيين جاءوا قبل الفرس!

وقامت وقعة أخرى، ارتفعت فيها الاعتراضات والتعليقات.

أبو رائد ضرب يدًا بيد:

- تاريخكم كله ملفق، أساطير صارت حقائق ثابتة، وعلمًا لا يناقش، والحق أن جلجامش لم يأتِ إلى هذه الجزيرة من أجل نبتة الخلود، والإسكندر المقدوني لم يمر من هنا، لا هو ولا جيوش المسلمين، ولم يمر ذلك الرحالة ابن بطوطة، وما كتبه عن جزيرتنا ربما سمعه من مسافرين سكارى، أو رآه في أحلامه.

ومرر يده في الهواء كأنه يقطع شيئًا:

- تاريخكم كله كذب في كذب.

-٣-

هلَّ هلال رمضان، وما زلت عاطلًا على الدكة، أتابع تقليعات الرجال، في أواخر ليالي رمضان، انشغلوا بإقامة أعمال ليلة القدر، أبو رائد تفرغ لمسألة الاستهلال لعيد الفطر عند المراجع، ينتصر للسيد فضل الله اللبناني، لأنه يعترف بالعلم والتلسكوبات لتحديد أهِلَّة الشهور، وللسيد خامنئي لأنه يؤمن بوحدة الأفق، فيثبت لديه العيد إذا ما ثبتت رؤية الهلال في أي بلد مسلم، لكنه ينتقد المرجعية في النجف:

- لا تعترف إلا بالعين المجردة، وتميل إلى الاحتياط، فلا يثبت لديها العيد إلا في اليوم التالي لعموم الشيعة.

- الزم حدودك!

لم يسمح له رجال الدكة بانتقاد مرجعية النجف، لكن الرجل سليط اللسان، وقال في نفس واحد:

- ربما كان طبيعيًّا أن يحتفل شيعة إيران بالعيد في يوم، ويحتفل

شيعة البحرين في اليوم الذي يليه، لكني أستنكر عليكم أن تقيموا العيد هنا، بينما جيراننا في حي المخارقة يصومون آخر يوم من رمضان.

- وما المشكلة في ذلك؟

- للناس حرية الاعتقاد فيما يشاءون.

- كل مؤمن يتبع فقيهه!

أبو رائد أجابهم من دون أن يبلع ريقه، وتناثر اللعاب من فمه:

- وماذا عن أفراد العائلة الواحدة الذين يحتفلون بالعيد في أيام مختلفة، لأنهم يقلدون فقهاء مختلفين؟

تابعتُ حديثه معجبًا بجرأة لا نظير لها في الحي.

أبو سعيد وقف غاضبًا:

- إنها مسألة معقدة، لن يفهمها ملحد مثلك!

سيد بحرين اقترح على أبي رائد:

- إذا اختلف العيد في بيتك، فيمكنك أن تقطع بالسيارة مسافة ٤٤ كيلومترًا ذهابًا وإيابًا، وهكذا تحصل على المخرج الفقهي فيجوّز لك أن تفطر، وتحتفل بالعيد مع ذويك.

واستنكر أبو رائد:

- حيلة شرعية! وأين المنطق في كل هذا؟

هلَّ شوال، واحتفل الرجال بالعيد الثلاثاء، بعضهم الأربعاء، وفي عصر الخميس جلسوا على الدكة يتأملون الهلال الجديد، ويتجادلون في عمره، أبو سعيد الذي يقلد مرجعية النجف أشار إليه فوق بيوت المنامة:

- انظروا إلى حجمه الصغير، لا يمكن أن يكون ذا أربع ليالٍ، كيف رأوه يوم الاثنين؟

- رأوه فلكيًّا، بحسبة علمية.

رد أبو آدم، لا بد أنه يقلد السيد فضل الله.

قال سيد بحرين:

- رآه المسلمون في مختلف البلدان، ففطرنا لرؤيتهم.

وعرفتُ أنه يقلد خامنئي.

واحتدم بين الرجال سجال وقور، على غير عادتهم، دافع كل عن فقيهه، ومن دون الإساءة إلى بقية الفقهاء، وبعد شد وجذب قال أبو سعيد مازحًا:

- من فطر الثلاثاء، عليه صيام يوم.

وضحك الرجال راضين، وسرعان ما مالوا إلى سوالفهم اليومية، ناسين خلافات العيد، كأنها لم تحدث.

غربت الشمس، وأقبلت أم جعفر نحو الدكة، ما ظلّ إلا اليسير ليدل أنها كانت فاتنة في أحد الأيام، وصرخت في فزع:

- ابني جعفر لم يرجع البيت منذ البارحة! الله يطول في أعماركم، خذوا ثواب فيّ، ساعدوني!

همس أبو سعيد:

- في آخر مرة رأيته، كان مشوشًا، يترنح في مشيه.

وتفرقنا نبحث عن جعفر، ذهبتُ إلى مواقف سيارات السوق، وسألت عنه في مركز شرطة المنامة، وفي مستشفي الإرسالية الأمريكي، ولم أجد له أثرًا. الرجال سألوا عنه في المستشفى الحكومي، والعسكري، في اليوم التالي، طغى على الدكة مزاج كئيب، ورأينا أم جعفر تهرول أمامنا، عباءتها تحلق في الهواء وراءها، ولحقنا بها ولم نتوقف إلا حين جمدت أمام ابنها ممددًا على مصطبة من الأسمنت، بجسده الهزيل الذي استحق لأجله لقب الكرة المثقوبة، نظرتْ إليه بحنان، ثم أطلقت صرخة رهيبة زلزلت غرفة غسيل الموتى في مقبرة الحورة، ففي الرابعة والعشرين من عمره مات جعفر مخدرًا بجرعة زائدة، مات جراء كآبة مزمنة لم يشخصها طبيب، مات ولم يذرف دمعة واحدة على الحسين، مات كما أرادت له الأقدار أن يكون على الدوام: غريبًا عن الجميع.

- مات جعفر بذاك الشيء!

دار همس رجال الدكة.

دخلت أم جعفر الحي تلطم وجهها، تصيح بأعلى صوت، وخرجت لها النساء وواسينها في موكب مهيب من عباءات سود.

دفنّا جعفر وجلسنا في مجلس العزاء في المأتم، نحتسي الشاي، ونتحسر على جعفر وشبابه.

كلما سمع الناس تردد: البقاء لله. تمتم أبو رائد بعبارته الأثيرة: البقاء للأقوى، وأصر أنه لا شيء هناك بعد الموت، وقبل أن يغادر المأتم صافح أهل الفقيد، وبوجوه محتارة سمعوه يعزيهم:

- الناس قصص، ولكل قصة نهاية، أتمنى لكم الصبر والسلوان، ولجعفر الذكرى الطيبة بين الناس.

ومثل نكتة طازجة، حمل الرجال تلك المقولة إلى دكتهم، وسمحوا لأنفسهم بالضحك على أبي رائد الذي دافع عنها بكل عزيمة، مدعيًا أن الموت حدث طبيعي، ثم وقف واضعًا يديه على خصره، كعادته قبل أن يفجر قنبلة:

- هيا كونوا رجالًا! تعاملوا مع الموت بعقلانية، لا تروّجوا للأباطيل.

هجم عليه أبو سعيد:

- أنت مغرور بنفسك وبأفكارك.

رد أبو رائد بالإجابة الجاهزة على لسانه:

- وأنتم كسالى! توقفتم عن التفكير، وصرتم تقلدون الفقهاء!

قال أبو سعيد بثقة:

- عليك أن تفهم أن التقليد اختيار يسبقه تفكير.

واستمرا في نقاش لا طائل منه، ولعل أرسطو، المعلم الأول لأهل الدين وأهل الإلحاد، لا يستطيع أن يحكم بينهما.

غابت هرطقات أبي رائد في طيات المزاح، وأخذ الرجال يتسلون بسيرة جعفر:

- رحمة الله عليه، لم نشاهده في المسجد قط!

- لم يشاركنا في جنازة ولا دفن ميت!

- لم يتطوع يومًا لخدمة الحسين.

شعرت أنه من واجبي أن أدافع عنه:

- لم يبكِ جعفر على الحسين، لأنه لا يمتلك تلك القدرة!

واستنكر أبو سعيد:

- وهل يحتاج البكاء على الحسين إلى قدرات خاصة؟ إنه أمر طبيعي.

-٤-

- الحاج جواد، سوف تنتقل إلى مسكن في وسط المنامة.

جاءته التعليمات من جمعيته السياسية، وانتقل من شقته في حي الحورة إلى شقة في حي الحمّام، وترشح للبرلمان ليمثل الدائرة الثانية في محافظة العاصمة. تزاحمت صوره مع صور منافسيه عند تقاطع خميس، لكنه واثق بفوزه، يحرض رجال الحي على المشاركة في الانتخابات:

- مارس حقك الدستوري! صوّت لمن تشاء!

- إذا تعد نفسك مواطنًا صالحًا، ينبغي أن يكون لك صوت فيما يحدث.

- لقد جربنا المقاطعة، دعونا الآن نجرب المشاركة.

استعرض المترشحون براجمهم في الحملات الانتخابية، الناخبون كذلك ارتفعت أصواتهم، بعضهم ندد بصور الخميني في المآتم، قوميون بالغوا في مشاعرهم العروبية، وادعوا أنها تمثل ولاءً لدولة

أجنبية، طالبوا بإزالتها وخلقوا بلبلة أحرجت الإسلاميين الشيعة، الحاج جواد دافع عن الصور، قال إن الخميني لا يمثل إلا زعامة دينية، وإنه فقيه يقلده كثير من البحارنة. لكن صور الخميني أزيلت من بعض المآتم، من دون أن يؤثر ذلك في شعبية الحاج جواد الذي فاز في الانتخابات، واحدًا من ثمانية عشر نائبًا ينتمون إلى جمعيته المعارضة، ومارس العمل السياسي تحت قبة البرلمان بنوع من الورع الديني، حتى أنه استكثر راتبه، وأقنع زملاءه النواب، وتبرعوا بنصف رواتبهم لصالح جمعيتهم السياسية.

شارك صادق في الانتخابات، صوّتّ لأحد منافسي أبيه، بعدما أصبح خصامهما قرحة مزمنة، تنغص على العائلة أفراحها، ولأن نائبًا في البرلمان ينبغي أن يظهر بصورة المحبوب بين أهله قبل ناخبيه، هبّت العائلة تصلح بينهما، العمة زهراء وبّخت صادق:

- خصامك لأبيك يضر بمستقبله السياسي.

العمة خديجة قالت:

- كيف ستتقدم إلى خطبة فتاة بدون مباركة أبيك؟

وافق صادق، وجلس أمام رجال العائلة في شقة أبيه، ارتجل العم عباس خطبة وعظية، تلا فيها عددًا من آيات تحث على بر الوالدين. صادق لم يتفوه بكلمة، تقدم نحو أبيه في أداء ركيك، وقبّل رأسه بفتور، فهتف الرجال في صوت واحد:

- اللهم صلِّ على محمد وآل محمد.

كرروها ثلاثًا بينما العم عباس يمسح دموع التأثر.

التهم الرجال خروفًا مشويًا مع أرز متبل، وفاحت من المجامر أدخنة أعشاب عطرية يحرقونها لطرد الشر من البيت، ودارت أكواب الشاي، عمه عباس نصحه بصيام شهر شعبان ليتقبل الله توبته، أما الرجال فاقترحوا صورة تشهد على الصلح تجمع الأب بصادق وإخوته غير الأشقاء، عمار وباقر وآخرون ولدوا على غفلة من العائلة. اعتذر صادق، تلوى في مكانه من فرط الإحراج، وأخذه أبوه في عناق بحركة متكلفة، فعانقه بحذر، معتقدًا أنه استطاع أن يرسم ابتسامة رضًا أمام الكاميرا، لكن الالتواء في شفتيه ظهر في الصورة أقرب إلى الامتعاض. زاهر قاطع الاجتماع، أصبح عدوًّا سياسيًّا لعمه النائب، نامت خصومة في العائلة، واستيقظت أخرى.

بعد شهور من تسكعه على دكة الحي، حصل صادق على وظيفة مدرس لغة إنجليزية في مدرسة خاصة، لا يعرف عن مكالمة أجراها أبوه النائب مع مدير المدرسة الذي كان زميل نضال قديم. استقر مزاج صادق في التدريس، يستمتع بتقديم دروسه، ويستدرج الروايات إلى فصله، وبعد أول راتب، انتقل إلى شقة في حي العدلية، استاءت عماته من حياته في العزوبية المنفلتة على الطريقة الغربية.

شرحت له العمة خديجة:

- الرجل في مجتمعنا لا يترك بيت أبيه إلا في حالتين، زواجه أو موته.

واحتج صادق:

- أنا لا أترك بيت أبي، بل بيت جدي الذي مات منذ سنين.

-٥-

احتضنتني عمتي فاطمة:

- صادق، ستتركني وحدي مرة أخرى في هذا البيت الكبير؟

وعدت أن أزورها كل خميس، فقد اجتزت امتحان رخصة القيادة، واشتريت سيارة ألتيما مستعملة، بقرض من المصرف الوطني بضمان راتبي، لكنني لم أفِ بالوعد إلا نادرًا. أخدم نفسي بنفسي في شقتي، بينما المكان يمتلئ بأثاث مستعمل مع راتب كل شهر، طقم جلوس، وطاولة طعام، وتلفزيون، وجهاز استقبال فضائي ثبّته زاهر بنفسه فوق سطح البناية، آماله متعلقة بكأس الخليج القادم، بعد أن خسر منتخبنا التأهل إلى مونديال ٢٠٠٦:

- إنها الدورة الثامنة عشرة، رقم الحظ الذي سيجلب لنا الكأس هذه المرة.

سخرت منه:

- تتنبأ مثل مشعوذي الكرة!

- ليست نبوءة من رأسي، إنها عنوان لمقالة نشرها راشد السمين.

أعلم أن حارس مرمانا في فريق الرافدين صار صحفيًّا رياضيًّا، لكن المفاجأة التي لم أعلم بها أنه تزوج بسمية التي كنا نهرب من المدرسة من أجلها، والتي كان الكثيرون يظنون أنهم المقصودون بابتساماتها.

أضاف زاهر:

- صارت البنت من نصيب راشد، وأنجبت له مبارك، صبي سيكبر ويفخر حين يناديه الناس سوشي!

- سوشي؟

- ألا تعرف معنى سوشي؟ كم غرّبتك لندن يا صادق! سوشي اختراع بحريني، اختصار للكلمتين سني-شيعي، لأن أبا مبارك سني، وأمه شيعية.

بث زاهر الحياة في منزلي الجديد، وساعدني في تعليق صوري طفلًا بإطاراتها الدائرية التي كانت في غرفة جدي، وترتيب الروايات في مكتبة صغيرة في طابورين، واحد للعربية، وآخر للإنجليزية.

ربيت قطة دلمونية صغيرة، أسميتها سوزي، لم ترُق لأبي عندما زارني، ولم أستغرب، حياتي كلها لا تعجبه، ينتقد مشاهدتي مباريات كرة القدم، يقول إن سياسة إلهاء الجماهير لا ينبغي أن تنطلي عليَّ، ويذم رواياتي، ويسخر من ممارستي اليوغا، ولا أعرف كيف أحتمل

انتقاداته، أحيانًا أفكر في أن أصرخ في وجهه: اغرب عني، مثلما يفعل رجال الدكة حين يغضبون، لكنني أصبر لكي أحفظ ما بيننا من سلام هش.

رأت سوزي العجب العجاب أثناء مباريات دورة الخليج، ففي اللحظات التي تفصل بين فرحة النصر وخيبة الهزيمة، أتعصّر على الكنبة، وأركل الهواء برجلي، ويصرخ زاهر ويقفز على شاشة التلفزيون، وفي المباراة الحاسمة لمنتخبنا، حدث أن فرّت سوزي بعيدًا عن زاهر لأنه قذف بجهاز التحكم على الحائط وحطّمه. طار كأس الخليج من أيدينا للمرة الثامنة عشرة، لم يكن ذلك الرقم أفضل حظًّا من سابقيه كما تنبأ راشد السمين.

تعلمت من محنتي مع ضياء أني لن أملك حريتي كاملة بدون استقلال مالي، لذلك عشت حياة لا رفاهية فيها، أوفر جزءًا من راتبي كل شهر، أخشى أن آلف الترف، ويصعب عليّ لاحقًا أن أتخلى عنه.

- صادق، حان الوقت لتكمل نصف دينك.

نصحتني عمتي زهراء، ولم أعلّق بشيء، لا نية لدي للزواج.

بعد مدة أغرتني:

- تحتاج امرأة جميلة تؤنس وحدتك.

بعدها ذكرتني بالأمر المحبب عند الرجال:

- ألا تحب أن ترى أولادًا يشبهونك؟

ولمَّا لم تنفع حيلها، قالت بصراحة:

- الناس تشك في شذوذ رجل أعزب في عمرك!

لم تبالغ، خبرت ذلك مع رجال الدكة.

اعتقدت عماتي أني سوف أضيع في الحياة بلا امرأة، وصار تزويجي مشروعهن الخاص، يستمتعن به في تحالف نسوي، ذات اجتماع للعائلة يوم الجمعة عرضن عليَّ صورًا في هواتفهن المحمولة لفتيات جميلات، واقترحت عمتي زهراء:

- إذا لم تعجبك بنات المنامة، نخطب لك من قرى البلاد.

امتقع وجه عمتي فاطمة، وعلّقت بجملتها الشهيرة:

- حلايل، قرويات، هذا الذي ناقص!

ما زال بحارنة المنامة، وجلهم من التجار وأصحاب المناصب في الحكومة، يسخرون من بحارنة القرى الذين يعملون في فلاحة الأرض وصيد السمك، ويصفونهم بالحلايل، لفظة ما عادت مجرد نسبة إلى الحلة، البلدة أو القرية، إنما صارت ذات مدلول طبقي.

عمتي خديجة أكثر حصافة اجتماعية، قالت:

- لسنا نفرق بين بنات المنامة والقرى، أهم شيء أن تكون العروس ابنة أصول.

تابعت ذات مرة عمر الشريف في مقابلة تلفزيونية قديمة يتحدث عن قصة حبه الشهيرة، قال بثقة العاشق الخبير إنه عاش

الحب مرة واحدة في حياته، مع فاتن حمامة. وقد أحببت أن أقتنع بتلك الحقيقة، كي أفلتَ من عماتي، رغم أني اضطررت إلى محادثة فتيات بالهاتف، متمنيًا أن أستعيد ذلك الحب الذي عشته من قبل، لكن العلاقات لا تستمر، إذ سريعًا ما أشعر بالضجر، وأختلق الحجج لأنهي كل شيء، لا أنكر أن خيال ضياء يظهر لي من ذاكرة بعيدة، لأقع في فخ مقارنات تسبب لي ضيقًا بصدري، لا يزول حتى أنسحب إلى حياة انعزالية تكيفت معها، ليس تمامًا، ثمة ليالٍ مزعجة ينتفض فيها جسدي بنيران الرغبة، ليجد لنفسه طريقًا في الأحلام. استمرت سيرتي كعازب، أخترع الأسباب لعزوفي عن الزواج، أعترف أن بعضها يبدو سخيفًا، مثل ادعائي أنني سأتزوج عندما أبلغ الأربعين، لكنها كانت خلاصًا من حصار عماتي.

الفصل التاسع

-١-

في المدرسة ينادونه **سلمان**، وفي حي مشبر **سهراب**، اسمه العجمي غير الرسمي الذي تصرخ به أمه سكّون مذ كان صغيرًا. وسرعان ما انجذب الفتى إلى عالم الفتوات، شبان أجسادهم فولاذية بعضلات بارزة تكاد تمزق أقمصتهم الضيقة، أذرعهم منتفخة، وموشومة برسوم جماجم ومسدسات، بعضهم أعضاء في عصابات لها سمعة معتبرة في مخالفة القانون، تأتي سيارات الشرطة إلى الحي لاعتقالهم، تعودوا أن يحتلوا دكانة الحي وما حولها، يستعرضون كلابهم الشرسة، ودراجات نارية تبث أغاني بوب مارلي، ويتنمرون على المارة المسالمين، لكن ما إن يلوح هلال محرم حتى يمسون ملائكة، يبكون على الحسين كالأطفال، ويلطمون صدورهم متحسرين، بعضهم يتطوع لإعداد طعام الحسين.

تنتمي عائلة سهراب إلى جماعة تتمسك بأصولها الفارسية. سكّون التي تقول إن أجدادها وفدوا إلى الجزيرة أيام الفوضى التي تلت سقوط القاجاريين، ما تزال ترتبك حين تذكر فارس وتعتبرها

وطنًا. إنهم شيعة مثل البحارنة، لكنهم يختلفون في طريقة الحياة، يستمعون إلى أغانٍ فارسية، شايهم يحتسونه في أكواب عليها صورة شاه إيراني وسيم، ويفاخرون بأن قلعة المنامة بنيت بأمر من نادر شاه إفشار، حين كانت فارس إمبراطورية جبارة ترهب ممالك الشرق.

وحده الحزن على الحسين في محرم يوحّدهم مع شيعة المنامة، البحارنة والأحسائيين والباكستانيين، إلا أن العجم يقيمون شعائرهم في مآتم خاصة بهم، يوزعون على الناس مرقة اللحم مع الأرز، وليس الرُّبيان المجفف المطبوخ مع الأرز مثل البحارنة، خطيبهم ينعي الحسين بالفارسية، المعزون يسيرون في مواكب العزاء متعاضدين، وبيارقهم تحمل صورة أسد يرمز إلى الإمام علي، ويقال إنه مستوحى من الشعار الإيراني القديم للأسد والشمس.

شهد سهراب في طفولته معارك عنيفة لأهل مشبر، فتاة تشعل النار في جسدها من أجل حب ممنوع، أبناء ضالين يضربون أباهم لأنه هجر أمهم، وعركات يومية تسيل فيها الدماء لأسباب خرقاء، في بقعة من العالم، ربما احتاج سهراب إلى طبيب نفساني، ليفهم ما يجري حوله من قسوة، لكنه لم يملك سوى سكّون، أمه التي تعطف على أهل الحي حتى أنها ملكت نفوسهم، كانت عاشقة للحسين، مؤمنة بأن شرور العالم إنما تحدث بسبب قلة الإيمان، الإيمان الذي يستقيم بحب الرسول وأهل بيته، وهي الوحيدة في الحي التي تملك الشجاعة لمواجهة الفتوات حين يتعاركون، تقف بينهم فيخضعون لها، ويخفضون رؤوسهم، ولا تتردد في تعنيفهم:

- أين ياد گرفتي از إمام حسين؟ هل هذا ما تعلمتموه من الحسين؟

أمية، لا تملك بلاغة التعبير، لكنها استطاعت عبر السنين أن تعلم كثيرًا من أبناء الحي أن حبهم للحسين ينبغي أن يكون شرطًا لحياتهم، وأنهم به ينالون السلام، ويمكن القول إن سهراب نشأ محميًّا من شرور الحي بفضلها وما سوى ذلك اكتسبه بمواهبه الطبيعية.

بعد وفاة أبيه، الحارس في بنك ملي إيران، تدبرت سكّون أمر العائلة من خياطة الثياب لسيدات ثريات يتعاطفن معها، وقد عرفت مكانتها في الحي حين أغمي عليها ذات يوم، فامتلأ بيتها بالناس، وأخذها جارهم غلوم بسيارته القديمة مع حشد من أطفالها، إلى مركز النعيم الصحي. وبعد فحص عينة من دمها، قالت لها طبيبة تبالغ في كحل عينيها:

- السكر مرتفع عندك يا مدام!

رجع سهراب إلى البيت مطمئنًّا أن أمه لن تموت، لكنها صارت تبلع حبوبًا صفراء مرتين في اليوم، تشعر بالغثيان فتتذمر من الطبيبة:

- تلك الساحرة، ابنة الفراعنة، لا تعرف شيئًا.

تقول ذلك مؤمنة بأن حب الحسين الذي يستشري بين ضلوعها هو الحافظ لها، أحيانًا تتحسر على الدكتورة لكشمي، طبيبة هندوسية عاشت في الحي، وأكلت مرارًا من حساء الآش الذي تصنعه سكّون

في شهر محرم، لأنها نباتية، وقد اعتاد الأهالي أن يروها تمضي صباحًا إلى المركز الصحي، بكرشها المتدلي من تحت الساري، وفي الصيف تسير بمظلة فوق رأسها، مشهد أثار سخرية الأطفال وضحكهم. وفي يوم صيفي حار، سقطت على الأرض مغشيًّا عليها، واندلق بطنها على الشارع، كانت ضربة شمس قوية، لأنها نسيت مظلتها، فعرف الجميع سر مظلتها. ورغم حبهم لها، لكن سهراب لم يتذكر لها سوى واقعة طفولته التي داس خلالها مسمارًا أثناء إحدى شقاواته فتورمت قدمه، وفي المركز الصحي، قالت الدكتورة لكشمي بعربية مكسرة:

- يجب زرقه بإبرة ضد التيتانوس.

فرّ من حضن أمه على الفور، عوى مثل ضارٍ جريح في غرفة المعالجة، لكن سكّون قبضت عليه مثلما تصطاد دجاجة في قن، أجلسته عنوة، أحاطت جسده الصغير بساقيها المكتنزتين، وأنزلت سرواله، فرفس برجله وركل ليتجنب الإبرة. الدكتورة لكشمي فهمت رعبه من الألم والفضيحة، فنزعتْ سرواله، وأطلقته في الغرفة كما وُلد، ثم وضعت يديها على خصرها الذي يكشفه الساري، وحدقت إليه، واثقة بأنه سيذعن للإبرة ليستر عورته. كان مهتوك العرض، ينظر مرةً إلى إبرة تقطر في يد الدكتورة، ومرةً إلى باب الغرفة الموارب، يفكر بين خياري الإبرة والهرب، بين الألم والعار، والاثنان في المؤخرة.

- نه، ... نه! لا، ... لا!

حضر لسانه الأصلي غصبًا عنه، أطلق صرخة من ذلك الغضب الفارسي الجموح، دفع الباب وهرب ركضًا، غادر يعرج برجله المتورمة في الشارع المزدحم بالسيارات، لم يتوقف لحظة واحدة، يمناه على شيئه الصغير، ويسراه على مؤخرة ناصعة البياض، لم تمسسها شمس، يشعر بالغضب أكثر مما يشعر بالخجل، ركض لاهثًا بين السيارات، وتوارى عن الأنظار في الأزقة الضيقة حتى وصل البيت منهكًا، وجهه ملطخ بالدموع، كأنه معتوه هرب من دار المجانين. عدا أمه، لا أحد في الحي يتذكر تلك الحادثة، ولحسن حظه لم يعرف بها الفتوات.

ما من شيء استطاع أن يمنع سهراب أن يكون واحدًا من الفتوات حين شبّ، ونبت في وجهه شعر غزير، يشذبه حسب مواسم الحزن وصيحات الموضة، أمه تتغزل في عينيه السوداوين، وتمسح على شعر رأسه السابغ:

- انظروا إلى هذا الفحل الفارسي الأصيل!

بدأ قبضايا ناشئًا، مولعًا بأناقته، يرتدي حزامًا عريضًا، وحذاءً عالي الكعب، وتتدلى من عنقه سلسلة عريضة، وعلى معصمه سوار بهلوان، أما ذراعاه فلوحة أوشام.

وليس سهراب عفيفًا كما تتصور أمه، فقد جرب الحشيشة، في المرة الأولى قدمها إليه فتوة حقيقي، أقسم بسيف ذي الفقار الموشوم على زنده بأن الحشيشة ليست حرامًا، مجَّ منها نفسًا، وزفر دخانها في وجه سهراب:

- إنها مجرد سيجارة! لكنها ستمنحك السلام والثقة بالنفس والسعادة الحقيقية.

سهراب شمّها برهبة، وشيئًا فشيئًا شعر بدوار لذيذ، سحب نفسًا بتردد، ودوخته النبتة، حلق عاليًا كما لو أن رئتيه أصبحتا منطادًا، وتوالت أنفاس كثيرة، وتعلم أن يخفى احمرار عينيه عن أمه، وصاحبه ما يزال يحرّضه:

- الفرس أمة لا تقاوم متعة ذلك الترياق.

تخرج سهراب في مدرسة أبو بكر الإعدادية، ثم المدرسة الصناعية، وحصل على وظيفة في شركة النفط، وكرّس نفسه للعمل، تدعو له أمه عند كل فجر، قبل أن يصعد حافلة العمل بزي الشركة الخاكي. من رواتبه الأولى، كافأ نفسه بدراجة هارلي ديفيدسون نارية مستعملة، بعدها توقف عن التبذير، وتعلّم من زملائه الإنجليز فن التوفير، حتى استأجر مسكنًا أفضل لعائلته في حي الزنج القريب من حيهم. يوم غادرت سكّون بيتها المستأجر القديم، انهارت وبكت، ودخلت الشقة الجديدة كأنها تدخل قبرًا، جاراتها العجميات باركن لها:

- **درود بر شما باد خانه نو، منزل جديد مبارك.**

أما البحرانيات فغنين:

- **ها النزل مبروك والله عليكم**

تنزله الملايكة تبارك عليكم

تنزله الزهرة والنبي العدنان

وحيدر الكرار رفيع الشان.

لكنها عاشت تعيسة، تزور جاراتها في حي مشبر كلما أمكنها، ولما هلَّ محرم، وتخيلتْ السواد ينشر على جدران المنامة، لم تطق صبرًا، زفرت ضيقًا ملأ صدرها:

- سأذهب إلى الحسين، سأقيم في مأتم آغا.

لن ترجع حتى يزول السواد من الجدران، وتنقضي آخر الأحزان، بعد مرور ذكرى وفاة الرسول الأعظم في الثامن والعشرين من صفر.

-٢-

لا أحد في الجامعة يمكنه تخيل فضيلة ابنة الحاجة خديجة، التي تقود سيارة جولف، وتخالط الشبان في فصول الدراسة، تصير في محرم فتاة تقليدية، تنذر نفسها للحسين، تتطوع للعمل في بيت قديم يصنع فيه العجم مرقة اللحم، تقطّع البصل والبطاطس، وتغسل قدورًا كبيرة، لا تسمع من النساء سوى: الله يعودكن! دعوة مخلصة لكل شيعي لكي يحضر محرم، ويتطوع لخدمة الحسين، ويشارك بحزنه في الملحمة المعادة كل عام. تخدم فضيلة مع النساء، أحيانًا تناول الخضراوات المقطّعة لشبان يديرون الطبخ، يتنقلون بين قدور عظيمة تصلى نيرانًا حامية، ذات مناولة جفل قلبها حين وجدت نفسها وجهًا لوجه أمام سهراب، منذ مراهقتها الأولى لفت نظرها، تراقبه يتدرب على ركل الكرة أمام بيت جدها، مع صادق وزاهر ابني خاليها، ثم فتنها لما كبِر وصار يستعرض دراجته النارية، يعب من سيجارته وينفث الدخان في الهواء. قضت نهارها ساهمة تحلم به، تداعب شعرها أمام المرآة، تتأمل جسدها الممتلئ، سألت زينب ابنة خالتها زهراء:

- هل أنا بعافية؟

أجابتها على الفور:

- فضيلة! أنت سمينة.

- حسنًا، لست رشيقة مثلك، لكني أحمد ربي لأن درويش المخبول عشقك أنتِ.

وانطلقتا في الضحك.

تأجج قلب فضيلة بمشاعر منسية، فارقها النوم وسهر معها سهراب الليل، في الصباح صلت ودعت أن يمنحها الله الجرأة للقيام بأمر سيحدد مصيرها إلى الأبد. ذهبت إلى المطبخ الحسيني، وقطّعت البصل، وبعينين حمراوين رأت سهراب خلف بخار كثيف يفور من القدور الضخمة، همت بأن تكلمه، لكن أحدهم يظهر في كل مرة، ويرمى في القدور بطاطس مقطّعة أو بهارات، فتتراجع مترددة، حتى حزمت أمرها، وتجاسرت:

- متى ولدت؟

أدار سهراب ملعقة ضخمة في القدر، وردّ بابتسامة بلهاء:

- في يوم قائظ كادت أمي أن تموت فيه من الحر.

فرحت فضيلة، الحر يعني الصيف، قد يكون من مواليد برج الأسد؟ تفحّصت وجهه في لهفة:

- في أي شهر؟

ومن دون أن يفهم المغزى من الأسئلة:

- في العاشر من أغسطس.

خفق قلبها مع اقتراب نبوءتها من التحقق، إنها تقع في حب رجل من مواليد الأسد، برجها السماوي نفسه.

-٣-

لا أحد يراقب أجرام السماء مثل فضيلة التي تؤمن أن الأبراج تؤثر في حياة البشر، وتعتقد أن القمر هو سيد الليل ينمو تربيعًا وأحدب، يكبر حجمًا ونكبةً، يتمدد مثل ساعة تسير بالزمن سيرة مشؤومة، وتجره جرًّا نحو لحظة الفجيعة في العاشر من الشهر، حين يستبد بالسماء تضج المآتم بنعي الحسين، وتفيض الشوارع بمواكب العزاء، شبّان تلهث أرواحهم مفجوعة، يلطمون صدورًا عارية، على إيقاع أهازيج تخرج من حناجرهم الغاضبة، ترتفع إلى عنان السماء، تتحدى القمر السافر في نبوءته. وليست مشاهدة المواكب الحسينية فرجة عادية، إنها شعيرة تستعد لها نساء الحي بالأسود، يبكين من وراء النوافذ والشرفات، وخلف الأبواب المواربة، فضيلة اعتادت أن تتفرج عليها عند تقاطع خميس، مقابل مدرسة البنات، المكان نفسه الذي عرفته مذ كانت طفلة، حجابها الأسود يلف رأسها الصغير، تحملها أمها خديجة على ذراعها لتشاهد المعزين من فوق رؤوس النساء، ولما يتقدم الليل تنام في حضن جدتها حسينية.

يدخل موكب العزاء الحي فتلتزم النساء بصرامة الحداد أكثر من الرجال، يثبتن في أماكنهن بلا حراك، يتوقفن عن الكلام، ويذبن في المشهد الحزين، سكّون التي تملك ذلك الاستعداد الروحي المرهف، أكثرهن كمالًا حسينيًّا، لأنها تتحرر من جسدها، تتحرر من صنمها، ومن زمنها، تسافر إلى كربلاء مخطوفة الأنفاس، تعيش مأساة الحسين كما لو أنها تنظرها بأم عينيها، وتردد بلا وعي: سلام الله على الحسين. فضيلة تتمتم بالسلام لكن عينيها مشغولتان، تبحثان عن طلة سهراب بين حشود يجوبون الأحياء بالخيول والجمال، يضربون الطبول والصنوج، يملؤون الأزقة هتافًا غاضبًا، ولطمًا موجعًا، حتى أن القطط التي تملك ليل الحي الهادئ، أمست مرعوبة من الكرنفال الديني، لا تعرف أين تلوذ بأنفسها، تختبئ تحت السيارات تراقب في خوف خيولًا في ملابس الحداد السوداء.

وليست القطط فقط تخاف الخيول، فضيلة كذلك تخافها، تخاف أعينها الجاحظة، تعتقد أنها تخصها بنظرات حاقدة، ذات مرة كانت جالسة عند تقاطع خميس، لما قُرعت طبول بقوة، فانتاب الهلع حصانًا كان يسير في وقار، فصهل بصوت هادر، وشبّ على رجليه الخلفيتين، وأفلت من يد يافع يمسك لجامه، ثم ركض يضرب الأرض بحوافره بلا هدف، ويخب خببًا بين حشود تتناثر على جنبيه، وسرت موجة من تدافع الأجساد في الشوارع لمسافة طويلة، بعضهم يهربون دون أن يعرفوا السبب، ووجدت فضيلة نفسها أمام البهيمة الهائجة، وركضت مع الراكضين، لا تجرؤ على النظر وراءها، أمامها وجوه

فزعة تصرخ. وبعد جهد جهيد، سيطر الرجال على الحصان بعد أن خلَّف فوضى، وجرحى، وعدد كبير من نعال الهاربين وأحذيتهم. فضيلة غطت شعرها المنكوش بحجابها الذي سقط على كتفها، كانت حافية، ووجهها ممرغ بالدموع، وسط بشر مروعين، وعلى بعد مئتين متر من تقاطع خميس.

تأمّلت فضيلة سماء ليلة السابع من محرم، مؤمنة أنها واقعة تحت تأثير الأبراج، وأن كوكبة السرطان تدفعها نحو قدر الحب المحتوم، لم يبهرها مشهد القمر، ليس في منظره بشارة ترتجى، رغم أنه بدا مضيئًا بياضه الناصع يذكر بصاحب الليلة، قمر بني هاشم، العباس بن علي الذي حضر المنامة على ألسنة الملالي، يخوض معركة كربلاء على المنابر، اخترق بشجاعته حصار الجند على مخيم الحسين، وجلب الماء من المشرعة إلى أطفال الحسين، وفعلها ثانية في يوم العاشر، وفي طريق رجوعه حاصره الجند وقطعوا يديه، أراقوا الماء من قربته، وضربه جندي بعمود على رأسه فسقط شهيدًا، ونعى الحسين نفسه: اليوم انكسر ظهري.

ليلة حزنها كثيف، الشوارع ممتلئة بالمعزين، رؤوس الأعلام تحمل كفوف النحاس، المواكب والدواب تمور في تقاطع خميس، أمام كتلة من عباءات سود، بينهن فضيلة تبحث بعينيها عن سهراب، ثم رأته يتقدم بصدره العريض مع مفتولي العضلات من الفتوات، راقبته مبهورة بتفجعه، كان ضائعًا في حب الحسين، ووجهه يقدح غضبًا، يهتف مع بني قومه بالفارسية، يرفع قبضته بين غابة الأيدي

المرفوعة في الهواء، كأنها لكمة في وجه القاتل، ثم يهوي بها، ويلطم صدره ويضرب الأرض بقدمه، لا يشعر بألم، لا يشعر بنفسه، ولا بمن حوله، تحرر من صنمه.

تنوح فضيلة وتبكي، ورغم ذلك لم تفارق عيناها سهراب، الذي ينتبه إلى وجودها من دون أن يسيء إلى حرمة الشعائر، فلمحت وجهه يرسم طيف ابتسامة، ابتسامة لا يلحظها الناظر إلا بالتأمل العميق.

مر موكب العجم بكامل صخبه، وقبل أن يمر الموكب التالي، انتشر أطفال يوزعون قناني ماء، فضيلة خطفت قنينة وقدمتها إلى سكّون:

- اسقي عطشك، أنا فضيلة بنت الحاجة خديجة.

شربت سكّون جرعة، ووضعت يدها موضع القلب من صدرها:

- رحم الله جدتك حسينية، كانت خادمة مخلصة للحسين.

قالت بعربية مكسرة، لكن فضيلة فهمت رطنها، ولما مرت المواكب ساعدتها على الوقوف:

- سأرافقك إلى البيت.

- بيتي بعيد، في حي الزنج، لكني أنام في مأتم النساء، لا تكلفي على نفسك يا ابنتي، الدنيا أمان ببركة الحسين.

كانت الشوارع عامرة بالناس، والمنامة لا يمكن أن تكون أكثر

أمانًا من ليالي عاشوراء، لكن فضيلة أظهرت شهامةً ورافقتها، ولم يخطر ببال سكّون شيء تقوله سوى عن ابنها:

- جانم سهراب، حبيبي سهراب، هدده الإنجليز في الشركة ألا يتأخر عن أوقات عمله في ليالي عاشوراء.

- وماذا فعل؟

- طلب إجازة بدون أجر.

- أصيل! لم يقصر.

وباتت فضيلة ليلتها تفكر في سهراب الذي كبر في عينيها، وصارت أكثر إعجابًا به. في الليلة التالية، ليلة الثامن، جلستْ عند تقاطع خميس وقد أمست فتاة أخرى، أكثر تصميمًا على تحقيق نبوءة برج الأسد التي آمنت بها منذ مراهقتها. جاءت سكّون تحمل كيس حلوى، إنها ليلة الشهيد القاسم، العريس الذي استشهد في كربلاء قبل أن يدخل بعروسه.

مرت مواكب العزاء مثل كل ليلة، مرت الخيول والرايات وزفة أولاد يحملون صينية عليها ورد وشموع، سكّون تغرف من كيسها وتنثر على الزفة حلوى ودموع. وفي موكب مأتم ابن كاظم، وكما هي العادة في هذه الليلة، تقدمت فرس بيضاء، يمتطيها غلام يرتدي عمامة خضراء، ويحمل بيده سيفًا ملطخًا بالدم. العجم الذين اشتهروا بأنهم أول من قام بالتمثيليات الحسينية في أزمنة السلاطين الصفويين، اعتنوا بقصة زواج القاسم أكثر من غيرهم، تقدم موكبهم

شبان أشداء يحملون هودجًا يغطيه حرير شفاف، بداخله عروس في عمر الطفولة، مغطاة بوشاح أخضر، ويهتز جسدها من البكاء.

- ها هي العروس، سكينة بنت الحسين، وقد استشهد عريسها القاسم قبل أن يدخل بها!

صرخت سكّون التي تحمل اسم العروس نفسه، لكن الناس في الحي ما عادت تتذكر تلك الحقيقة، صاحت بالعويل، وذرّت على الهودج حلوياتها، وارتفع صياح النساء كأنهن ثكالى كربلاء.

تلوت فضيلة أسىً على الفتاة الأرملة، وانتفضت لمنظر سهراب يشارك في حمل الهودج المنكوب، وحين اقترب الموكب غرفت حلويات من كيس سكّون، ورمتها على الهودج، وعلى سهراب، ولاحظت طيف ابتسامته الخفية على وجهه من جديد.

لا تعرف فضيلة كيف نامت ليلتها، لكنها حين استيقظت كانت في نشوة تكتنف روحها، تتخيل سهراب بابتسامته الوادعة، هل يتذكرها، وما جرى بينهما من حوار؟ انتظرت المساء بفارغ الصبر، لم تلتفت إلى القمر كعادتها، تعرف إنه ماض في سعيه، وبحثت عن سهراب وسط الجموع والمواكب التي خرجت تصرخ: **طلع شاب من الخيم، بيده الراية والعلم**. وليس الشاب الذي ينعونه سوى علي الأكبر ابن الحسين، أكثر الناس شبهًا بالرسول، والذي قال قبل أن يستشهد: ألسنا على الحق؟ إذًا لا نبالي أوقعنا على الموت، أو وقع الموت علينا.

انتظرت فضيلة مرور موكب العجم بطوله، حتى آخر طفل يلطم صدره وقد أخذه النعاس، من دون أن ترى لسهراب أثرًا.

- لعل ابنك في عمله الليلة، ينصاع لأوامر رؤسائه الإنجليز!

أسرعت الأم بالإجابة، على وجهها ابتسامة فخر:

- أبدًا! جانم، حبيبي، لا يفوته من شعائر محرم شيء، إنه يؤدي نذرًا عليه بخدمة المستمعين في مأتم العجم.

وشعرت فضيلة بفراشات ترفرف في بطنها، لا تفهم كيف ازدادت تعلقًا به، حتى أن معرفتها بما يجري في حياته يسعدها. تقلبت على فراشها كثيرًا، وندمت لأنها لم تسأل سكّون إذا ما كان سهراب سيؤدي نذرًا آخرًا في ليلة العاشر من محرم.

-٤-

بزغ قمر يبث حمرةً في سماء المنامة، هي السماء تبكي دمًا على الحسين. **اشتدت العشرة**، يقول الناس في هذه الليلة، يقصدون اشتد الفقد، والوجع، والبكاء. عند تقاطع خميس، أنشد رادود كأنه يخاطب معشر النساء: **الليلة عاشر ضجن النسوان، قوم يا حسين، من للأيتام؟** بكت فضيلة وهي تتابع أجناسًا من المواكب بانتظار موكب العجم، مرّت مواكب بحارنة يلطمون صدورهم، مرّت سلاسل تهوي على الظهور، مرّ باكستانيون ينعون الحسين بلسان أردو، ويسوطون ظهورهم بسلاسل من سكاكين محنية، مرّ أحسائيون يسيرون في مجموعات كأنها كتائب عسكرية، مرتّ جحافل من مارة، أجانب ومتفرجون وصحفيون ومصورون وفضوليون، مرّت خيول مخيفة، مرّت جمال تتمايل بهوادجها وتمط شفاهها متململة، مرّت بيارق الأحياء متتالية؛ راس رمان، الحطب، الحمام، حاجي عباس، مدن، القصّاب، بن سلوم، بن زبر، بن رجب، مرّ النائب جواد مع أخيه الحاج عباس يحملان بيرقًا، مرّ زاهر وقد نزع قميصه وسط شبان

يغلون بالغضب الحسيني، ويلطمون بعنف على إيقاع مرثية قديمة: **هذا الوداع يا حسين، ودعتك الله يا حسين.** لم يتغيب من عائلة فضيلة سوى صادق الذي تأزمت علاقته بالمآتم.

وحين أطلّ بيرق الأسد الذي يحمل سيف ذي الفقار، رأت فضيلة من بعيد فرس ذي الجناح، شبيه فرس الحسين في كربلاء، تسير برداء أبيض ملطخ بالدماء، وتخترقه السهام، كانت المرة الأولى التي لم ترتعب فيها من حصان، ذاك أن لجامه في يد فارسها سهراب. ناحت سكّون ورفعت ذراعيها ناحية السماء تلعن قاتل الحسين: **أَلَا لَعْنَةُ اللهَّ عَلَى الظَّالِمِينَ**، فضيلة لعنته باسمه، شمر بن ذي الجوشن، ذلك الأهوج الذي ما كان التاريخ ليعرفه، لولا أنه حز رأس الحسين.

باتت فضيلة ليلتها تسترجع محاسن سهراب، وتعد نفسها لرؤيته في الغد، تتساءل: هل يشج رأسه بالسيف؟ مثلما نطحت السيدة زينب بنت علي رأسها بمقدم المحمل، حين رأت رأس الحسين على الرمح. استيقظت فضيلة منكسرة، بعد أيام من مشاهد الدم وتمثيليات الشهداء تراكم الأسى في نفسها، لكنها سترى اليوم سقوط أبي الشهداء، إنه فجر كئيب، يهتف المؤذن بصوت مفجوع، كأنه يصرخ: اليوم قُتل الحسين! كانت السوق مغلقة، وكذلك المحال والمطاعم والدوائر الحكومية، كل شيء في المنامة مغلق، إنه يوم إجازة رسمية، لا شيء متاح غير المآتم، إنه يوم العبرة فيه لدم الحسين، لا رمز ولا غمز، الخطباء ينتحبون، يصفون جراح الشهيد وسقوطه مضرجًا

بدمائه، حتى لحظة احتزاز رأسه. رجال الحي حاسرو الرؤوس، يبكون مفجوعين، كأنهم للتو سمعوا أخبار كربلاء.

ليست المنامة كربلاء، لكن كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء، عند تقاطع خميس، سمعت فضيلة قرع طبول، تشعر بذلك الحزن اللذيذ الذي يغمرها كل عام، وثمة عواطف أخرى تنتابها، سهراب يشغل بالها، تخاف عليه من سيوف المطبرين. وتقدم موكب التطبير، واحتشد الناس ينتظرونه على أطراف الشوارع، شرطة المرور تنظم حركة السيارات، ومسعفون من المستشفى الحكومي متعلقون بأبواب سيارات الإسعاف، على أهبة الاستعداد لإخماد أي جرح ينزف أكثر مما ينبغي، أو انتشال من يسقط فاقدًا وعيه من هول المنظر. سكّون سبقت الجميع عند زاوية النساء، عيناها منتفختان من فرط البكاء. وحين اقترب قرع الطبول، انعقدت الألسنة، واشرأبت الأعناق، وتعلقت الأعين بسيوف تتأرجح في الهواء بلمعان مخيف.

أقبل المطبرون في أكفان مضرجة بدمائهم، يحركون سيوفًا حنياتها موجهة إلى رؤوسهم، ويصرخون بغضب: **حيدر...، حيدر...، حيدر**. وبين الحين والآخر، يعيدون مشهد الاستنفار في المعركة، يتقابلون ويدورون في حلقات. فضيلة تعلق بصرها بسهراب، رأسه ينز دمًا طازجًا، يتدفق على جبهته، ويلطخ كفنه حتى أخمص قدميه الحافيتين، شعره الأملس ملبد بالدم، وجهه صفحة حمراء، وجفونه العليا نصف مغلقة من ثقل الدم المتخثر، يلوِّح بالسيف في الهواء، ويضرب بيسراه على رأسه، وينثر دماءه في الهواء.

قاومت فضيلة شعورها بالدوار، لم تفقد وعيها قط من منظر التطبير، كما يحدث عادة للفتيات والأجانب، لكنّ دماء سهراب أمر آخر، شعرت بغثيان، وفقدت توازنها، مادت الأرض تحت قدميها وكادت أن تسقط، بحثت بيديها في الهواء عن سكّون التي كانت غائبة في اللحظة، تلطم رأسها، وتردد مع المطبرين مثل المنومة: **حيدر**...، **حيدر**...، **حيدر**. وكان ذلك آخر ما رأته فضيلة، وهوت على الأرض. ولما أفاقت وجدت نفسها ممددة في حضن سكّون التي تدفع الهواء على وجهها بيدها، تسمع ضجيج الصرخات والطبول مثل صدى يأتي من بعيد، وترى بقعًا حمراء تتحرك على الجدران، أنوار سيارة الإسعاف تسير وراء الموكب.

قالت بعينين زائغتين:

- سكّون، الله جاء بك لي.

حين صحت مساءً كانت المدينة صامتة، مظلمة، ثكلى، خارت قواها لكثرة ما ناحت، الشوارع خالية، موحشة، كأن أهلها قد ماتوا مع الحسين، اختفى آلاف المعزين، وحشود المتفرجين، وموزعو الأطعمة عند نواصي الشوارع، اختفى الملالي والخطباء والرواديد، ولم يعد من أثر للخيول والجمال والهوادج، وعاد القائمون على المآتم لتخزين السيوف، والسلاسل، والطبول، والصنجات، والأعلام والبيارق والرايات، ومكبرات الصوت، والأسلاك الكهربائية، ومواقد الطبخ، والقدور. سكتت المنامة، لكنها ستنفجر من جديد في العشرين من شهر صفر، لمّا تتوجه الأفئدة إلى كربلاء في أربعينية الحسين.

كانت رائحة الدماء ما تزال عالقة في أنف فضيلة، تناولت قرصًا مهدئًا لعلاج صداع، وخرجت تحمل أحزانها في شمعة، بين شموع أخرى كثيرة، تنير الأزقة المظلمة في مسيرة ليلة الوحشة، موكب فريد في طقسه، الوحيد الذي تشارك فيه النساء، وتشعر فيه فضيلة بالاطمئنان لأنه بلا خيول. عند مأتم العجم، كان سهراب بقلنسوة من شاش أبيض على رأسه، يكنس الشوارع مع متطوعين، يجمعون فضلات الناس، علب ماء فارغة، فضلات طعام، وقطع شاش طبية، وبقايا أكفان ملطخة بالدماء.

-٥-

- فضيلة، تقصدين سهراب صاحب الدراجة النارية؟ إنه عجمي!

- زينب، أنت لن تفهمي أبدًا؟

قالتها فضيلة بنبرة خاوية، تنم عن عاطفة غير متزنة، وراحت تصف سهراب لابنة خالتها:

- تأسرني طلته، وعضلاته المنتفخة، وشعر صدره الذي يطل من تحت فتحة قميصه.

- استخفت فضيلة!

ضربت زينب كفًّا بكف وهي تسمع ابنة خالتها تصرح بافتتانها بشاب بتلك الطريقة الفاحشة، ولم تسرف في حكمها، فضيلة التي اشتهرت بالمرح والنكتة الجاهزة على طرف لسانها، تغيرت إلى فتاة ساهية، حتى أنها لم ترد على تعليق ابنة خالتها، وظلت تنظر إلى البعيد، على وجهها ابتسامة حالمة.

- تتزوجين عجمي؟

صرخت أمها خديجة:

- عليك أن تخجلي من نفسك لأن هذا خطر ببالك!

انتحبت فضيلة في عاصفة من البكاء لأيام، بعدها تمالكت نفسها، وبعينين ممتلئتين بالدموع جادلت بعناد أن البحارنة لا يمانعون زواج أبنائهم ببنات العجم، لكنهم يرفضون لو تقدم عجمي للزواج ببناتهم، وقالت بصوت مختنق بالبكاء:

- نعم هو ليس بحراني، مثله مثل بيبي حسينية المحمرية، وفرشته زوجة عمي جواد العجمية، وجدي الأحسائي!

أمها الحاجة خديجة أغضبها أن تسمع تلك الحقائق على لسان ابنتها، وتقافزت الشياطين أمام وجهها:

- لن تتزوجي ذلك العجمي! ولا في أحلامك!

بدا أن الحديث عن الموضوع قد انتهى، وترك جفاءً حادًّا في النفوس، استغلته الأم لقمع العاشقة الولهانة التي حبست نفسها في غرفتها. تبكي كل يوم، تدافع عن اختيارها، تقول إن سهراب نضج، تغيّر، غيّرته رغبته في الزواج بها، فهجر صحبة الفتوات، باع دراجته النارية، ترك لبس السلاسل والأساور، وصار يغطي أوشامه بقمصان طويلة الأكمام، وفي أربعينية الحسين كان واحدًا من السبعة عشر مليونًا الذين ساروا على أقدامهم إلى كربلاء، في أكبر مسيرة راجلة في العالم.

مرت الشهور، وفضيلة يبح صوتها لإقناع أمها، وغاب عنها مرحها، وفقدت شهيتها للأكل، دون أن تغيب عنها نوبات البكاء، وفي إحدى هذه النوبات تقيأت ما في جوفها وأغشي عليها، حملها أبوها إلى المستشفى، قال الطبيب إنه هبوط حاد، وحقن أدوية في وريدها، عادت إلى البيت مهزومة، واهنة، لكن تعاستها لم تُلِن قلب الحاجة خديجة، هذه المرأة الحنون ما كان أحد يتخيل أن تتصرف بتلك القسوة، حتى أنها لم تنزع أسود محرم بسبب حزنها، رغم دخول رجب. كما لم يتخيل أحد عناد فضيلة، التي أظهرت تلك القوة الهائلة التي تمكنها من الوقوف وحدها ضد العائلة. لم يعاضدها سوى ابن خالها صادق مستنكرًا أن تمنع عمته زواج ابنتها بسهراب لمجرد أنه عجمي، متناسية أن أخاها جواد قد تزوج بفرشته العجمية. أما زاهر فارتاح لسهراب لأنه مثله، من المؤمنين بشعيرة التطبير، لكنه لم يستطِع أن يتعاطف معه أكثر من ذلك، لأنه يؤيد نادي العجم، المنافس الأزلي لناديه الرياضي.

- يا لفضيحتنا! سنكون علكًا في حلوق الناس!

استنكرت الحاجة خديجة وهي تشكو لأخيها النائب:

- صَدَقَ علينا المثل: المغازل في محرم، والعرس في ربيع.

مارس النائب سلطته فأمر بمصادرة هاتفها، ومنعها من الخروج من البيت، لأي سبب سوى الجامعة، لكن فضيلة لم تستسلم.

-٦-

ترسل فضيلة بريدًا إلكترونيًّا إلى سهراب كل يوم، لا تنام قبل أن تتسلم منه كلماته الناعمة، ودفعها اليأس لمراسلة عرّافة على صفحات الإنترنت، ادعت أنها متخصصة في العلاقات العاطفية والزواج. وقرأت العجوز صورة كفّها، وأخبرتها بأنها لن تعود تلك الفتاة الجريئة التي كانت عليها، وأن الحياة تكافئ الجريء وتتجاهل الجبناء، قالت العرافة: ستكون النهاية سعيدة، ليس من دون ألم في البداية، وسيكون بكرك صبيًّا جميلًا مثل فلقة القمر.

النبوءة الأخيرة أدهشت فضيلة حد الجنون، لأنها تعتقد أن شرارة الحب انطلقت ليلة السابع من محرم، ليلة العباس، قمر بني هاشم، أشارت إلى شاشة الحاسوب:

- زينب، انظري ماذا كتبت العرافة؟ فلقة القمر!

وبسبب تلك النبوءة بالذات، تلقفت بحماسة كل كلمة تنبأت بها العرافة، وأطلقت لخيالها العنان، لا ينتابها شك في أنها ستتزوج سهراب. لم تفلح صرامة خالها النائب جواد، ولا استجواباته

المتكررة في السيطرة عليها، واستمرت تتواصل مع العرافة، وتقابل سهراب سرًّا في كافتيريا الجامعة، حتى اكتشفت أمها رسائل الحب الإلكترونية، فقطعت خدمة الإنترنت عن المنزل، لكنها شعرت بالذعر حين تحدتها فضيلة:

- ستكونون مسؤولين عمَّا سيحدث!

-ماذا تقصد هذه الطائشة؟ هل ستعلق نفسها في مروحة السقف؟

طمأنها زوجها ساخرًا:

- إنه مجرد تهديد أجوف، ربما قصدت أنها لن تتزوج أبدًا، مثل خالتها فاطمة.

لكن الأم لم يغفُ لها جفن، ركبتها الوساوس وأخذتها إلى غرفة فضيلة عند الفجر، دفعت الباب ودخلت على أطراف أصابعها، فوجدت ابنتها ممددة في سريرها، شعرها الأشقر منثور على الوسادة يغطي وجهها، هزتها فلم تستيقظ، فصرخت بأعلى صوتها:

- ماتت ابنتي!

انتفضت فضيلة في رعب، عيناها حمراوان من طول السهر.

وغمغمت الحاجة خديجة:

- الله يخزيك!

وعاشت فضيلة في البيت صامتة، معاندة، تسألها أمها كل يوم:

- هل عقلت؟

فلا تحر جوابًا.

أحيانًا تعيّرها:

- لو بلغ حبك للحسين ذلك المبلغ لكنتِ وليّة من الوليّات الصالحات!

جاء رمضان وما ضر فضيلة الصيام، لأنها لا تملك شهية للطعام، انخفض وزنها، وظهرت عظام كتفيها، أجرى خالها تحرياته عن أخلاق سهراب، وسمعته في الحي، وسلوكه في العمل، وقدم تقريرًا إلى أخته خديجة، وقال إنه وجد في سهراب عيوبًا ثلاثة، الأول أنه يطبر في محرم، والثاني أن ذراعيه مليئتان بالأوشام، لكن رجل دين طمأنه أنها طالما بقيت في الذراع فلا تبطل الوضوء، أما الثالث فتاريخه مع الفتوات الذي انتهى أخيرًا، يثبت ذلك تواجده في المسجد. وختم تقريره بأن أشاد بمستقبل سهراب الواعد، فقد عرف من أصدقاء له في شركة النفط، أن مديره الإنجليزي ينوي ابتعاثه إلى إنجلترا ليدرس الميكانيكا.

تململت الحاجة خديجة وقد صارت أكثر تصديقًا أنه لا توجد قوة قادرة على إخضاع ابنتها سوى الموت. ومع هلال محرم، فوجئت فضيلة بأمها، تذكر عرضًا أن تطبير سهراب عيب شائن، لكنها لم تتطرق إلى أصله، بل سمحت لابنتها أن تحدثه في الأمر، فقرر في الحال الامتناع عن التطبير. وبعد تلك الواقعة وغيرها، غالبت الحاجة خديجة عزة نفسها وقالت لفضيلة:

- ما أثقل دمك عندما تعاندين! كأنك دبس حساوي! هذا ما ورثتيهِ عن أجدادك الحساوية.

ثم تابعت بنبرة جادة:

- فليأتِ أهل سهراب لخطبتك في الربيع.

-٧-

مادر، أمي، البسي فستانًا ملونًا.

قال سهراب لأمه سكّون، يسكنه هاجس أنه مرفوض لا محالة، وأن عائلة آل كاظم لن توافق على زواجه بفضيلة.

سهراب، تعرف أني لن أنزع الأسود!

ردت بنبرة صارمة، ليس من السهل عليها أن تنزع الأسود الذي تلبسه حزنًا على زوجها المتوفَّى قبل عشرة أعوام، وحدادًا خالدًا على الحسين، لن تتغير الآن من أجل ابنها، ولا من أجل آل كاظم، ولا حتى إكرامًا لجدة فضيلة، الملاية حسينية، والحقيقة أنها لم تهتم لموافقتهم، وكانت تفضل لابنها عروسًا فارسية، رغم أن سهراب لا يعرف بالضبط ماهية تلك المزايا.

وفي ليلة الخطبة، أوصل سهراب أمه إلى بيت آل كاظم، وراح يذرع شارع عمّار بن ياسر جيئةً وذهابًا. سكّون دخلت اجتماع النساء بملابسها السوداء، قبّلت فضيلة التي عادت الحياة إلى جسدها

الخائر، وتحدثت بلهجة عربية حروفها مكسّرة، غير أن نساء آل كاظم حفظن لها مقامًا اكتسبته من حب الحسين وعاملنها بوقار.

مر الاجتماع على نحو مكهرب، سكّون انتقدت رجال البحارنة لأنهم أكثر ميلًا لتعدد الزوجات، وترحمت على الراحل الحاج عبدعلي، جد فضيلة، وأشادت به لأنه لم يتخذ زوجة ثانية حتى بعد أن ترمّل، وقالت:

نحن العجم لسنا أفضل ناس، وربما فجر رجالنا، أو دخّنوا الترياق، لكنهم لا يتزوجون على نساءهم.

في كلامها شيء من وجاهة، أعجبت فضيلة بمنطقها الذي ذكّر الحاضرات بالزواج الثاني للنائب جواد، وتوجهت الأنظار ناحية زوجته فرشته التي استفظعت الحديث بهزات من رأسها.

أخذت سكّون تمرر خرزات في سبحتها، وتحدثت بكلام أرادت له أن يكون صريحًا:

- ولدنا يطلب ابنتكم، وما لنا من عزّ سوى خدمة الحسين، ومهما حدث فلن تجدوا سهراب ينسى الحسين.

صمت الجميع، وحدّقن في الحاجة خديجة التي لم تجد الكلمات المناسبة لترد على سكّون، ثم أطلقت العمة فاطمة زغرودة تبعتها زغاريد طويلة.

تقافز سهراب في الشارع فرحًا، وركض ناحية بيت آل كاظم، على وجهه ابتسامة من الإذن إلى الإذن، وجد أمه عند الباب مشرقة

الوجه، تدمدم بالصلاة على النبي محمد، رأته فرفعت سبابتها في وجهه:

- في ذمتي نذر للحسين.

كانت الحاجة خديجة عند الباب، والنساء من خلفها، وصرح لها سهراب في توتر:

- أنا سعيد أن أكون جزءًا من هذه الآعلة.

أراد أن يقول العائلة، لكن لسانه الفارسي لن يلفظها بالنطق السليم، ولو تدرب آلاف المرات.

ابتسمت الحاجة خديجة راضية، وأخبرته فضيلة لاحقًا أن خطأه المشين سيدوي كنكتة أبدية في ذاكرة آل كاظم.

بالمشاعر الحسينية المشتركة، استطاعت عائلة آل كاظم أن تتجاوز أصول سهراب الفارسية، وتوافق على زواجه من فضيلة، من دون أن يعلق أحد على سيرة حبهما، ما عدا صادق الذي قال بجرأة، كأنه يكتب عنوان رواية:

- سهراب وفضيلة جمعهما حب الحسين.

-٨-

وافقت الحاجة خديجة أن تعلن فضيلة عن مفاتنها، للمرة الأولى، ومن أجل خطيبها. في ليلة جلوتها، جمّلتها الحفافة، أزالت شعر وجهها الزائد، حفت حاجبيها على شكل قوسين، طلت خدودها بالألوان، حنت أصابع قدميها وخضبت يديها. وأقامت الحاجة خديجة حفلًا في فناء بيت الجد، وحضرت نساء الحي وفتياته. فضيلة التي أسعدها قمر كبير في السماء لبست فستانًا أبيض، وعقدًا بسيطًا من ذهب، هدية سهراب. أجلستها زينب بين النخلتين، وقادت الحفل تتمايل طربة على أغانٍ شعبية: **لو لا دلالش ما تعنينا، طابت خواطرنا وغنينا.**

أحيت الجلوة ملاية بارعة، تلميذة سابقة للجدة حسينية، تعودت أن تُبكي النساء في شهر محرم، لكنها جاءت الليلة لتبهجهن، وبصوت مبحوح، إثر حزن مستديم، غنّت:

بدينا بالصلاة اعلى محمد

معي صلوا على المحبوب أحمد

وثانيهم أمير المؤمنين

وثالث فاطمة بنت الأمين

ورابع الحسن ويا الحسين

سهراب احتفل به الرجال في مأتم آل كاظم، يسردون عبر مكبرات الصوت قصة ميلاد الرسول ومناقب أهل البيت، يطلع المرتل بصدر البيت: **بآل محمدٍ عُرفَ الصوابُ**، ويكمل الحاضرون عجزه: **وفي أبياتِهم نزلَ الكتابُ**. مدحوا النبي محمد نور الثقلين، وعليّ الذي ردت الشمس له مرتين، والحسن المجتبى، والحسين الشهيد، وعليّ السجاد أبو البكائين، ومحمد باقر العلوم، وجعفر الصادق، وموسى الكاظم، وعليّ الرضا شمس طوس، ومحمد الجواد سراج الحرمين، وعليّ الهادي النقي، والحسن العسكري التقي، ومحمد المهدي، الإمام الغائب.

خرجوا بسهراب وطافوا به في الحي في زفة صاخبة، غنوا له وصفقوا، هزجوا ثملين بعشق إمام المتقين:

حبُ عليٍّ ابن أبي طالبِ

أشهى من الشهدِ إلى الشاربِ

ومن وراء أبواب مواربة، ونوافذ عالية، نثرت النساء الحلوى على زفة الرجال، شيء من اعتبار لأم العريس، خادمة الحسين سكّون. عند بيت آل كاظم، علا هرج الزفة ومرجها، غالبت فضيلة دموعها لما رأت سهراب متألقًا في بدلة رمادية لمّاعة وربطة

عنق حمراء، يحمله الشبان على الأكتاف، وبكت سكّون من فرح، حين اقترب سهراب رشت على رأسه ماء ورد، وأنشدت:

صلّوا على محمد وأبو الزهرة، ولدنا هالليلة سلّم مهره.

انتشر خبر الخطوبة في الحي:

- فضيلة بنت الحاج إبراهيم بو عجّان أخذها عجمي!

- ما أخذت حساوي من أهل أبوها؟

- لو انتظرت أخذها بحراني!

الفصل العاشر

-١-

تقول الحاجة زهراء إنه في وقت ما من طفولة ابنتها زينب، قبل أن تتشكل لها ذاكرة، مالت إلى زاهر، حين كان اسمه عبدالزهراء، أكلت معه من الخبزة نفسها، مرغت خدها بخده، واعتاد الأهل أن يشجعوهما:

- زينب، هيا، احضنيه!

وفي خلوة من خلواتهما في غرفة الألعاب، سألها ذاك السؤال الفضولي والبريء:

- زينب، من أين جاءت أختك الصغيرة؟

الطفلة التي لم تعِ ماهية الخجل بعد، أخرجت إبهامها من فمها، وأشارت بسبابتها الصغيرة إلى ما بين رجليها:

- من هنا.

أنزل عبدالزهراء سرواله يبحث بين رجليه عن شق أو فتحة، وانكشف شيئُه الضئيل، فدهشت زينب، ليس لديها شيء مثله، ومن

دون تردد رفعت فستانها وأنزلت سروالها تنظر إلى الأسفل، واكتشف الاثنان أن شيئيهما مختلفان، وحاول كل منهما استجلاء الآخر، عاجزين عن النطق بشيء، زينب اكتفت بالابتسام، عبدالزهرة لم يقاوم مغامرة اللمس.

مرت تلك الحادثة من دون علم أحد من العائلة، وبعد سنين حاول عبدالزهراء طرد صور الحادثة من مخيلته من دون فائدة، بأثر رجعي كان خجلًا مما حدث، أما زينب فحبستها في أعمق أعماق ذاكرتها، لم تعترف بها لأحد، وظلت شذرات من الحادثة تعبر في مخيلتها وتختفي بسرعة، حتى أنها شكت أنها لم تكن سوى حلم.

صار عبدالزهراء أكثر وسامة، تقول أمه إنه ورث محاسن جدته حسينية. بينما تجنّبت زينب محادثته، غير أن عيونها ظلت تلاحقه خلسة، ورأته ذات يوم ينقش اسمه على جذع النخلة الشمالية في بيت الجد، فشعرت بالغيرة، وبالعناد الذي ينتاب المراهقين ولا يفهمون سببه، نقشت اسمها على جذع النخلة الجنوبية. بعد أيام نقش عبدالزهراء اسمه بجانب اسمها، وفعلت زينب الشيء نفسه على النخلة الأخرى، ومن يومها أمست نظراتهما لبعضهما مختلفة.

لكن عبدالزهراء لم يدلِ باعتراف صريح بحبه، يغضب كلما رآها مع زملائها في قسم الهندسة الكهربائية، يهب لمساعدتها بدافع النسب، ويبارك لها نجاحاتها مجاملًا مثل زميل. في يوم تخرجها، لملم قواه واعترف لها على الهاتف، ولم تشعر زينب بالذنب لأنها على

علاقة بابن خالها، الحب يتفوق على الدين في قلبها، ويطمئنها أنها علاقة بريئة، ليست سوى وعد بالزواج حتى يتخرج عبدالزهراء.

لم يكن عبدالزهراء يحسن التعبير عن عواطفه، ذات مرة قال لها أحبك ألف مرة، في البداية نطقها بملء فمه، بنبرات مختلفة، بحماسة، بحروف ممدودة، وبصوت مرتفع، ثم انكمشت الكلمة إلى صوت خفيض، ومكرر، مثل حنحنة آلة، رغم ذلك طربت لها زين، حتى آخرها.

-٢-

- صادق، أنا أحب زينب!

- زينب ابنة العمة زهراء؟ أتذكرها طفلة بشعر أشقر قبل أن ترتدي الحجاب.

- إنها الآن فتاة فاتنة، لو تنزع حجابها، وتسرح شعرها، وترسم شفاهها بالأحمر، لظهرت أجمل من نجمات هوليوود.

تخرجت زينب بشهادة الهندسة المدنية، وتوظفت في العام نفسه في وزارة الأشغال، أما زاهر فتأخر تخرجه بسبب إهماله، ولسوء حظه نال شهادته في العام الذي ضربت العالم أزمة اقتصادية، مشاريع البناء في البلاد أصيبت بالشلل، العمال سُرّحوا من دون أن تدفع رواتبهم، عمارات ضخمة تحنطت في هيئة هياكل أسمنتية، وكتبت صحف البلاد عن شبح البطالة القبيح.

عاش زاهر حياة العاطلين، في نادي العاصمة، كرس وقته لتشجيع فرقه الرياضية. بدأ طبالًا في رابطة المشجعين، وسرعان

ما أصبح زعيمها، يحول المناسبات الرياضية إلى فسحة للمرح والترفيه، وبصوت رخيم يذكر بقراءة جدته الملاية، ينشد الأهازيج الشعبية، أو الحسينية، مثل بقية البحارنة الذين يتبركون بذكر أئمتهم في الحزن والفرح، فيهزج زاهر مشجعًا فريقه الرياضي: **شيء لله يا أبا الحسن شيء لله، ردّت الشمس لعلي بعد الصلاة**. ذات مرة ردد داخل المدرجات ومن خلفه جموع المشجعين في صوت واحد: **يا لايم خف لومك عليّ، أنا حبي وغرامي للهادي ووصيه**. هي لطمية لرادود مشهور، لحنها بسيط ومحبب، وفاز فريق نادي العاصمة في تلك المباراة، وتفاءل زاهر باللطمية التي جلبت لناديه الحظ، وصار يهتف بها في المدرجات كلما صعب عليهم الفوز، وفي مباراة حاسمة أنشدها حتى آخرها: **أنا حبي للحسين والحسن قرة عيني، وروح الله الخميني، والزهرة الزكية.**

أحبها الجمهور وضربوا بأقدامهم على المدرجات، لم يتوقفوا حتى فاز فريقهم. في اليوم التالي، احتج الصحفيون الرياضيون في أعمدتهم اليومية، قالوا إن ذكر الخميني في المحافل الرياضية سابقة في تاريخ البلاد، المعلق الرياضي راشد مبارك، حارس مرمى فريق الرافدين، انتقد ما حدث، وكتب في عموده أنه من المألوف أن يستقوي جمهور البحارنة الرياضي بأئمتهم، لكنه ليس مقبولًا أن يذكروا رمزًا سياسيًّا مثل الخميني. اتحاد كرة اليد اعتبر ما حدث مخالفة، وعاقب النادي بتغريمه مبلغ ألفي دينار، ومنع جماهيره من دخول الصالة الرياضية حتى نهاية الموسم الرياضي.

النادي بدوره أقال زاهر من رئاسة رابطة المشجعين إلى أجل غير مسمى.

منع من حضور المباريات، فتابعها على شاشات التلفزيون في المقاهي، مع عاطلين لا همَّ لهم غير مقاطعة ما يجري في البلاد من استعدادات لخوض الدورة الثالثة للانتخابات النيابية، ودفعهم العناد إلى المشاركة في احتجاجات تقوم أحيانًا في القرى، وصار زاهر يكره حقيقة أن عمه جواد أصبح نائبًا في البرلمان، يستخف به ويطلق عليه لقب السيناتور، يشعر بالضيق حين يرى صوره في الصحف. ساءت علاقة زاهر بأبيه الذي يشارك في الانتخابات، وبعمه النائب جواد، وتعقّدت مع صادق الذي يحذره من المشاركة في الاعتصامات، واشتهر عنه أنه الأكثر قدرة على تحمل الغاز المسيل للدموع، وحرقة العينين والحلق، مأثرة يحفظها لها رفاقه، ويعزون سببها إلى عينه اليسرى الكسولة نصف المغلقة، لكنه يجد رأيهم سخيفًا، ويعتقد أن قوته تكمن في دمائه العربية الحارة التي تجري في عروقه.

وفي احتجاج من الاحتجاجات المتكرّرة، وغير المرخصة، اعتصم زاهر مع شباب في إحدى القرى، طالبوا بإطلاق سراح زعيم محتجز، فحضر مع رجال الشرطة عدد من نواب المعارضة لتهدئة الموقف، بينهم النائب جواد الذي نصح الشباب بالتفرق واستخدام طرق قانونية للاحتجاج. كانت رائحة الغازات قد تلاشت مع الريح، لكن المحتجين ما يزالون يسعلون، ووجوههم ملطخة بالمخاط

والدموع. قال زاهر من خلف لثامه: **لا نقبل وساطتكم!** وتحمس المحتجون ولوحوا بأيديهم رافضين ما قاله النائب جواد الذي انسحب مكسورًا، وعادت الأدخنة البيضاء تملأ المكان.

ازدادت الاحتجاجات عنفًا، إحراق إطارات السيارات وتعطيل المرور، نشبت في إثرها حملة اعتقالات طالت عددًا من المحتجين، وخشي زاهر من السجن، فقرر المبيت في شقة صادق، وعدم الخروج نهارًا، وإذا خرج مضطرًّا تنكر بنظارة شمسية وقبعة.

فاز الحاج جواد في الانتخابات للمرة الثانية، بسبب جمعيته السياسية التي تلقى دعمًا من أغلب البحارنة. وبانتهاء الانتخابات، زال خطر الاعتقال، وخرج زاهر إلى الشارع من دون أن يتخفى بنظارة أو قبعة.

-٣-

في يوم لن يُنسى من تاريخ البلاد، دعت زينب بكل ما لديها من رصيد حسنات لدى السماء كي يفوز منتخب البحرين على نيوزلندا في مباراة التأهل لكأس العالم، وهي التي ما شاهدت مباراة واحدة قبل أن تحب زاهر. بينما مضى الأخير بصحبة صادق إلى الإستاد الوطني الممتلئ بالجماهير، ومع صفّارة الحكم الأولى، هتف بأعلى صوته مع الجماهير: **إلعب يا بحرين سجل إلنا هدف**، يرفرف بألوان الوطن ويغني أناشيده. عندما تقترب الكرة من مرمى البلاد، يصبح في غير حال، يبسمل ويرفع يديه نحو السماء، ورغم آلاف الأيادي التي ارتفعت إلى السماء في ذلك المساء، سجل النيوزيلنديون هدفًا، وانتصبت الجماهير البحرينية على أرجلها ساخطة، زاهر لعن الحظ، وشتم الحكم، ولم يقو على النظر إلى الوقت يسيل من ساعة الملعب الكبيرة بلا رحمة.

- يا رب، نحتاج إلى هدف التعادل!

توسل إلى الله من دون شعور:

- هدف واحد يكفينا لنذهب إلى مونديال العالم في جنوب أفريقيا.

أوشكت المباراة على الانتهاء، ودوى صفير استهجان صاخب لا يحتمل، صادق غطى أذنيه بيديه، لكن الدقائق مرت بسرعة، وانتهى الوقت الأصلي، ثم الإضافي، وصفّر الحكم وتبخر الحلم، وأصابته الصدمة كما أصابت غيره، فاندفع بعضهم يحطمون المقاعد.

وفي اليوم التالي نشرت الصحف تقارير ومقالات تستنكر أحداث ما بعد المباراة، وجاء عمود راشد مبارك الأشد حدة، أبدى أسفه للعبثية التي تملكت الجماهير، وحلّت مكان الروح الرياضية، وأدت إلى عدد من الإصابات. قبضت الشرطة على زاهر، وزجت به في حبس التوقيف. ذهب النائب جواد إلى مبنى التحقيقات، بصحبة صادق الذي صرح لضابط التحقيق:

- زاهر بريء، أشهد على ذلك، كنت معه في الإستاد الوطني.

ابتسم الضابط:

- زاهر ليس محتجزًا بسبب أعمال الشغب في الإستاد الوطني، إنما لمشاركته في احتجاجات غير مرخصة.

النائب جواد لم يجد صوتًا في حنجرته، وخرج من مكتب الضابط يمط أذنه:

- زاهر متهور! لا يمكن التنبؤ بما سيفعله.

وعيّن محامٍ للدفاع عنه، والذي أكد أن إلغاء قانون أمن الدولة،

يعني أن المحكمة ستعقد خلال أسابيع، وأنه لا يتوقع حكمًا يزيد على ستة أشهر.

وبينما كانت زينب تذبل جراء غيابه، والعائلة مهمومة بمتابعة أخباره، لم يكن سفر فضيلة بصحبة سهراب إلى لندن بالأمر الشاغل، ولم يتكلّف أحد مشقة توديعهم في المطار، فقد كانت الأمزجة معطوبة، والقلق يتملك الجميع.

ومع مرور الأيام وطول الغياب دخلت زينب نوبة ممتدة من الحزن والبكاء، دون أن تشفع لها أدعية أمها، وقلق أبوها:

- سوف آخذها إلى الطبيب.

مطت الحاجة زهراء شفتيها:

- طبيب من أجل حفنة دموع؟

ثم سمحت لنفسها بابتسامة رغم كآبتها، وذكرته بأنهار الدموع التي نزفتها بعد ولادة زينب، وشخّصتها الدكتورة لكشمي على أنها حالة كآبة طبيعية تمر بها الأم بعد الولادة، ووصفت لها أدوية مهدئة، لكن الأم امتنعت عن تناولها، ولأسابيع تعلقت زينب الرضيعة بثدي أمها، تنهمر عليها الدموع. وعددت الحاجة زهراء مآثر البكائين في عائلتها، الجدة حسينية التي بكت لشهور عندما غادرت المحمرة للمرة الأولى، وبكي الحاج عبدعلي بعد تقاعده من شركة النفط، وبكي الحاج عباس عندما حصل على بيت الإسكان من الحكومة، وبكت العمة فاطمة عندما انهت امتحانات الثانوية،

وبكي النائب جواد بعد رجوعه من المنفى، حتى أنه لم يستطع أن يصرح للصحافة بكلمة لكثر ما خنقته العبرة، وبكي زاهر في جميع الدورات التي لم يفز فيها منتخب البلاد بكأس الخليج.

ثم رفعت رأسها:

- بكينا كثيرًا، وسنظل نبكي ما دمنا على قيد الحياة.

أبو زينب هز رأسه غير مقتنع:

- وهل نتفرج على ابنتنا تبور؟

- لها الله!

قالت الحاجة زهراء وقررت أن تقيم الصلوات في أحد المساجد التي تحكي المرويات الشعبية أن بها أثرًا للمهدي المنتظر، كي يفك الله عوق زاهر، لبست عباءتها، وذهبت مشيًا إلى مسجد الوطية في قرية الماحوز القريبة من المنامة، تتمتم مع كل خطوة: لا يرد القضاء إلا الدعاء. وعند المقام الصغير، تشبثت بالشبّاك الحديدي، واستحضرت كل ما لديها من عزيمة بكاء، فانتحبت حتى استحمت بدموعها، ثم فتحت دفترًا من دفاتر أمها حسينية، وقرأت دعاء زيارة الإمام الحجة.

أما الحاج عباس فيجلس أمام زوجته في يأس، يهذر بما يطوف برأسه من صور حول سجن ابنه، ويذرف الدموع.

- ادعُ ربك بدلًا من البكاء!

توبخه أم عبدالزهراء، كما يصر أهل قريتها على مناداتها بدلًا من أم زاهر، مؤمنة على طراز حوزوي، تصبّر نفسها، وتقول: الله كريم. تشغل خوفها بقراءة الأدعية، تستيقظ من نومها فزعة، فتهرع إلى سجادة الصلاة.

-٤-

أتابع على شاشة التلفزيون حفل افتتاح الدورة العشرين لدورة كأس الخليج في عدن، أداعب سوزي في حضني، وأفتقد زاهر، أشعر بالذنب لأني لم أنصحه كفاية، أتخيله الآن خلف القضبان يدلي بتنبؤاته مثل كل دورة.

بلد الكرام مهد السلام، ...

عاشت مملكة البحرين.

رددت كلمات النشيد الوطني، واحتقنت الدموع في عيني، ثم أخذتني أحداث المباراة بصوت راشد السمين، أفضل معلقي البلاد، يصف للاعبين سنة وشيعة، عجم وهولة:

- صخرة الدفاع من نسل الرسول من قرية المالكية.
- الأطراف يحميها ظهيران، حسينيان، حسين بابا من العاصمة، وحسين علي من بلدة جدحفص.
- في الوسط يراوغ سالمين والدخيل من جزيرة المحرق.

- الهجوم يحلق بجناحي ابني حبيل من جزيرة سترة.

- الفريق يقوده الكابتن المرزوقي من مدينة الرفاع الغربي.

تعادلنا مع عمان، وخسرنا أمام العراق، وبينما كنت أتحدث مع تلاميذي بالمدرسة عن مباراتنا المنتظرة مع الإمارات، فوجئت بأبي يشير إليَّ عبر إحدى نوافذ الفصل الدراسي لأخرج بشكل طارئ، ورأيت في وجهه علامات الفزع:

- ستغادر البلاد فورًا.

- لماذا؟

- اعترف زاهر أمام ضابط التحقيق أنه اجتمع مع رفاقه في شقتك عدة مرات.

- في شقتي؟ ليس لديَّ علم بتلك الاجتماعات!

- أعرف أنك ما كنت لتوافق على إقامة تلك الاجتماعات في شقتك، وأنك كنت في العمل حين حدثت.

وبنبرة تحمل خبرة عشرات السنين من النضال السياسي أخذ يلقنني ما سأصرح به، لو جلست أمام ضابط التحقيق.

صارت أفكاري مشوشة، الأمور تتعقد سريعًا، ربما دفعت ثمن تهور زاهر، مثلما حدث في طفولتي في يوم الطردة التاريخية، يوم كسر زجاج نافذة العمة فاطمة، وتلقيت العقاب بدلًا منه، لكن ما يهم الآن، كيف أحمي نفسي، دون الإضرار بموقفه؟

رجعت الشقة أشعر بأني مراقب، الخوف يؤرّقني ويذهب النوم من جفوني. مهما اختلفت أنا وأبي وتخاصمنا، فإنه لن يرضى أن أُسجن. في المساء جاء إلى شقتي، فتشها مثل ضابط أمن، متصورًا أن زاهر ربما أخفى ما يضرني، وحينما لم يجد شيئًا، وضع أمامي كومة أوراق، وحسب تعليمات المحامي رسمت له توقيعي على طلب إجازة من العمل، وخولت له التصرف في حسابي المصرفي، وتوكيل للمحامي، وإخطار بإنهاء عقد الشقة.

قال بمزاج معكر:

- إنها تحويلات من باب الاحتياط فقط، ستغادر لمدة شهر واحد لا أكثر!

وافقت مجبرًا، وتأملت كتبي على الرفوف، وصوري طفلًا في إطاراتها الدائرية، تحسرت على حياة بالكاد تعوّدت عليها، وعليَّ الآن أن أتركها وأرحل.

-٥-

يستعيد زاهر شريط الأحداث، يرى العالم يتداعى فوق رأسه، الأفكار سوداوية تفزعه من المستقبل، رغبته عارمة في البكاء، يخجل أن يظهر ضعيفًا أمام رفاق يتطلعون إلى كتابة أسمائهم في سجل النضال، لكنه سرعان ما قدر أن البكاء في السجن ليس بهذا السوء، إذ سمع ذات ليلة نحيبًا متكررًا من زنزانات مجاورة، وقدّر أن الدموع في السجن ليست بذلك السوء، إذا ما ذُرفت بوقار، إذا ما سالت حزنًا وليس خوفًا، وهكذا تغلب على عقدة البكاء أمام الرجال، وبكى دموعًا منحته راحة، وفي لحظة إلهام عابرة، فكر وكما لو أنه يكلم نفسه: أنا أبكي إذًا أنا موجود. وخطر بباله أن ينقش العبارة على جدار الزنزانة، إلى جانب شعارات أخرى حفرها مناضلون سابقون.

ثمة ليالٍ عانى فيها الشوق إلى زينب، يتأمل سقف الزنزانة وكأن صورتها هناك، كان لديه متسع من الوقت ليفكر وينضج، والمرء ينضج سريعًا في السجن، فكر في كل ما كان في وسعه أن يفعله، وندم لأنه ورّط صادق في مغامراته.

زملاء الزنزانة ملؤوا رأسه بالثرثرة عن أيديولوجيات سياسية لا تعنيه، ليست لديه قناعات سياسية مثلهم. وحين أخذت حماسة الأحاديث تفتر، أدرك أنه لاحق آمالًا لا يمكن تحقيقها، وأنه ما كان ينبغي أن يناصب عمه العداء، تغير مزاجه، وصار يمازح السجناء ويعلّق على قصصهم التي تبدأ بعبارة: عندما أخرج من السجن، وأكون حرًّا. قرر أن يتزوج زينب بمجرد خروجه من السجن، نمت الفكرة في وجدانه مثل أمل يعيش من أجله، صار تعلقه بها بمثابة الضمانة، فلم ينزلق في أهوال اليأس والهذيان. وعندما وصلت أخبار كأس الخليج إلى السجن، استعاد شخصيته الكروية، وملك المساجين بالحديث عن مغامراته في مقبرة المنامة، وعن أهازيج رابطة المشجعين، وضرب صحبة خاصة مع حارس الزنزانة، يسأله كل يوم عن نتائج مباريات المنتخب، وحين علم بتعادل المنتخب مع عمان قفز في الهواء فرحًا، حتى أن مساجين حسبوا أنه خبر إطلاق سراحه. ثم جاءت الأخبار السيئة، وتلوى ألمًا حين عرف بهزيمة المنتخب أمام العراق والإمارات، انتهت دورة الخليج، وخرج منتخب البلاد خاسرًا بلا كأس، للمرة العشرين.

الفصل الحادي عشر

-١-

إذا لم تتدخل في السياسة، فإن السياسة سوف تتدخل فيك. تأكدت لي مقولة لينين في طريقي إلى المطار. أعطاني أبي قنينة مليئة بتراب جمعه من تحت النخلتين في بيت جدي، لو خيّرني لفضّلت تذكارًا للوطن ماءً عذبًا من عيون طبيعية، أو قواقع بحرية من سواحل جزيرة المحرق، أو قميص كرة القدم الأحمر لمنتخب البلاد، أو حرزًا من مقام ولي. شعرت بالامتنان لما فعله أبي، وتلاشت ضغائن الخصومة، لم يبقَ منها سوى ندوب لا تؤلم. لم أجد كلمات مناسبة أودعه بها، فانزلقت بعض دموعي رغمًا عني، ورأيته ينظر إلى ثنيتي المثلومة، كأنه يلاحظها للمرة الأولى، ولعله خجل أن يسألني عن سببها.

وصلت لندن مبعثر المشاعر، مشتت الأفكار، حللت ضيفًا طارئًا على فضيلة وسهراب، كانت شقتهما صغيرة، قريبة من حديقة بطرسي، ينام الزوجان مع رضيعهما في حجرة النوم الوحيدة، أما أنا فأقيم على كنبة في الصالة، تتحول في الليل إلى سرير.

- أثبتت الأيام أنك رجل يعتمد عليه!

ابتسم سهراب، فضيلة قالت إن محاسن زوجها ترجع إلى كونه من مواليد برج الأسد، وأكدت:

- ألم يقل بنفسه: يشرفني أن أكون جزءًا من هذه الآعلة!

وضحكنا، لا يمكن أن ننسى خطأه التاريخي.

لست في لندن للسياحة ولا للدراسة، والأيام تمر كئيبة، يشبه بعضها بعضًا، زرت صديقي رالف في الجامعة، أصبح أستاذًا، ولم تتغير ابتسامته الرائقة، لكنه صار يضع غليونًا في فمه، يواكب به درجة مساعد بروفسور. أخبرته كيف قذفتني أمواج الحياة مرة أخرى على هذه الجزيرة، وضحك كأنه يحكي نكتة:

- تزوجت زميلة أيرلندية، واتفقنا على عدم الإنجاب.

ثم نفث دخانًا من فمه:

- ليس في هذا العالم سلام يغري لكي ننجب أطفالًا.

أخذت قطارًا على سكة بيكاديللي، زرت جودي ووجدتها حزينة، مات سيزار وحل مكانه كلب بيغل صغير، من فصيلة الراحل نفسها.

- أين روب؟

- إنه هناك مع أصحابه.

قالت جودي وأشارت إلى قنينة زجاجية تسند نسخة قديمة لكتاب **أصل الأنواع**، تحوي ترابًا رماديًّا، رفات روب بعد أن

أُحرق جسده حسب وصيته. نفرت من المنظر وغادرت البيت من دون أن أنظر ناحية المكتبة، مستفظعًا فكرة أن يقيم الميت في مسكنه.

أجبرتني الشقة الصغيرة أن أكون قريبًا من ابن فضيلة، رضيع جميل ليس برونق بيبي حسينية ولا جدته العمة خديجة، ولكن بشمائل فارسية، وجهه أبيض، شعره غزير ينبت من منتصف جبهته، وعيناه كحيلتان مثل أبيه.

- ما شاء الله! وجهه دائري كالقمر!

- نعم، تنبأتْ بذلك منجمة باهرة.

ردت فضيلة:

- أردت أن أسميه عباس، على اسم قمر بني هاشم، و...

قاطعها سهراب:

- رفضت اسم عباس! لأنه اسم كبير الفتوات في الحي، شخص لا أريد منحه أية مكانة في حياتي الجديدة، واخترت لابني اسمًا يليق بدمائه الفارسية.

ينام مسعود هادئًا معظم الوقت، ويبكي بمجرد أن يصحو، أحيانًا يصرخ، تتطافر من عينيه الصغيرتين دموع كثيرة تثير فضولي، راقبته محاولًا فهم ظاهرة الإسراف في ذرف الدموع لدى أفراد عائلتي، اقتربت منه ذات مرة، تفحّصت وجهه وهو يبكي حتى هدأ، ولما لاحظ قربي، جفل وانفجر باكيًا مرة أخرى، وركضت فضيلة تصيح:

- ولدي! ماذا فعلت به؟

شرحتُ لها اهتمامي بالظاهرة العجيبة:

- لا بد أن كثرة الدموع خصلة وراثية، لا يمكن أن تكون مكتسبة.

فضيلة حملت ابنها وهدأته، ثم أكدتْ نظريتي، هي نفسها تعاني من بكاء غير مفهوم، تجلس على حافة سريرها بعينين تائهتين، تنهمر الدموع منهما، بينما مسعود يمص إصبعه ويراقبها بفضول. طمأنتها طبيبة إنجليزية في عيادة حكومية أنها دموع طبيعية، تعاني منها السيدات في العادة بعد الولادة، لكن فضيلة لم تصدقها، وفسرت حالتها بأنها دموع حزن كامن في عقلها الباطن، ففي ذروة عاطفتها المتهيجة فضّلت وليدها خديجًا ظهر إلى الدنيا في برج القوس الطيب، على أن تلده كاملًا في برج الجدي الذي تمقته.

ما عدا برجه، فضيلة سعيدةِ برضيعها، يسكن على ذراعيها طوال النهار، في الليل تقمّطه مثل قطعة شوكلاتة، ولكي ينام تهدهده بألحان قديمة عبرت إليها من بيبي، تغني له مثل العجائز:

- عساك السعادة، وزيارة علي وأولاده.

أتأملها معجبًا بأمومتها، أنجبت مرة واحدة، لكن عاطفتها تضخمت، وأصبحت أمًّا متمرسة على حين غرة.

رتابة الأيام تكرّس الملل، أهرب من بكاء مسعود، ومن فضيلة وأغانيها ونظرات الشفقة في عينيها، أنتظر رجوع سهراب من الكلية

عند بوابة العمارة، يمد إليَّ سيجارة ويقترح أن نذهب إلى السينما، يذكرني بماضينا المشترك:

- لا أحد يمنعك الآن!

أتناول منه السيجارة، أتذوق طعمها القديم، وأعتذر عن السينما، وبدلًا من ذلك أهيم في الشوارع، أتسكع في مدينة لم تتغير سماتها، الكادحون ما يزالون يهرعون صباحًا في الأنفاق مثل قطعان مطارَدة، يرتادون قطارات تجري في أخاديد الأرض كأنها ثعابين مسحورة، وبعد الظهيرة يرتاحون في الحانات عند نواصي الشوارع، في أيديهم كؤوس بيرة، أو يمشّون كلابهم وقططهم في الحدائق، أما الأثرياء فيتناولون طعامهم في مطاعم فاخرة. السياح كذلك لم يتغيروا، يسلّون بطاقاتهم الائتمانية في شارع أكسفورد، ويشهرون كاميراتهم في الميادين لتصوير التماثيل البرنزية، وفي حي سوهو يتقدمون طوابير المسارح والعروض الترفيهية.

تبعثرت حياتي في لندن، وصار سهلًا أن أفلت في العربدة، أو أضيع في إدمان عادة سيئة، أو تعاطي مادة تخدر مشاعري، لكن الوحدة منحتني شيئًا من سلام داخلي، نظرت إلى أعماقي، وذكرت نفسي بأن عمري لا ينبغي ان يهدر سدًى، أما مآسيه فأحتملها بموهبة البكاء، ورتبت مشاعري تجاه أبي المتعصب لفكرة تفوق المذهب الشيعي، وتقبلت عقليته غير القادرة على التفكير بشكل مختلف، وتعلّمت أن أقدره كصديق، ليس أفضل صديق، فقط أشعر بأني مدين له بشيء، من دون أن أبالغ في تبجيله.

يحدث ذلك بينما العرب يعيشون احتجاجات شعبية واسعة، سمتها الصحافة العالمية ربيعًا، وتطورت الأحداث على نحو أفزع رؤساء دولهم، فهرب التونسي، وتنحى المصري، ومايزال اليمني يقاوم بضراوة. لم يتوقع المحللون أن تصل موجة الاحتجاجات إلى دول الخليج المدللة بفائضاتها النفطية، لكن ما من شيء يوقف عدوى استشرت في جسد واحد. تابعت أحداث الوطن بحماسة، فقد أفرج عن المعارضين الذين استنشق زاهر من أجلهم الأدخنة المسيلة للدموع، زاهر كذلك أطلق سراحه قبل أن يكمل السنة التي قررتها المحكمة.

-٢-

- السجن للرجال!

قال النائب جواد فاتحًا ذراعيه لزاهر الذي رمى بنفسه في حضنه، متناسيًا خصومة عابرة، ودموع الاعتراف بالجميل تغسل وجهه. دخل بيت جده، عانقته عماته عناقًا كاد أن يقطع أنفاسه، وباتباع تقاليد العائلة الأبدية، بكى آل كاظم، أمه فقط لم تبكِ، أما زينب فحملت سوزي، القطة التي تركها صادق لابن عمه قبل سفره، احتضنتها بقوة وانعقد لسانها لا تجرؤ على النطق بشيء. حكى زاهر ما جرى في مئة وسبعة وعشرين ليلة قضاها في السجن، يقلّد لهجات السجناء، أهل **كرزكان** الذين يقولون إمي، بدلًا من أمي، وأهل **الديه** يقلبون الجيم ياءً، وأهل سترة يلوكون الكلام بغلظة. يسرد طرائف الزنانزين، دون أن يكمل نكتة حتى آخرها، كعادته يغرق في دموع الضحك، لكن دموعه في ذلك اليوم كانت مشوبة بالخوف.

احتشد أهل الحي أمام بيت آل كاظم، وحمل الشباب زاهر على أكتافهم، أعلن النائب جواد أن المحامي صاحب المناقب الوطنية

الشريفة، الذي ترافع عن زاهر في المحكمة، تنازل عن رسوم أتعابه، وصفق بعض الرجال، لكن متدينًا صاح مطالبًا بالصلاة على النبي وآله، فارتفعت الصلوات ثلاثًا.

- مسكني الحكم في وضعية تسلل! لكن التسلل لا يستوجب الطرد من الملعب، مهما تكرر!

قال زاهر لصادق عبر الهاتف، معتذرًا عمّا سببه له، وكشف حقيقة ما جرى. وحين طالبه صادق أن يكف عن تهوره، اقتبس زاهر عبارة راجت على ألسن الناس الذين شاركوا في الانتخابات:

- لن أضحي بمستقبلي من أجل برلمان لا أعرف من سيملأ كراسيه.

أرادت أطراف من المعارضة أن تجعل من زاهر بطلًا، لكنه لم يفكر إلا في إعادة ترتيب حياته، والتخلص مما لصق بها من شهرة مع الاحتجاجات وغازات مسيلات الدموع، أفاده أنه ليس عضوًا في تنظيم قانوني أو غير قانوني، وانقطعت علاقته برفاق السجن من تلقاء نفسها، وعقد زواجه بزينب، بلا احتفال ولا زفاف، كانت فرحة عارضة مرت وسط أمواج الحزن التي عصفت بالبلاد جراء احتجاجات وأحداث مؤسفة.

وعند اتصاله بهما ليبارك زواجهما، داعب صادق ابنة عمته:

- مبروك، زاهر أفضل من المخبول درويش.

وانفجرت زينب في الضحك.

بعدها تعقّدت الأحداث على نحو مخيف، وفي واحدة من لحظات التاريخ النادرة، أُعلنت حالة الطوارئ في البلاد، وللمرة الأولى جابت دبابات الجيش شوارع العاصمة، وانسحب من البرلمان نواب المعارضة، في مقدمتهم النائب جواد.

-٣-

- صادق، لا تستعجل رجوعك!

نصحني أبي بصوت مكسور لا يشبه صوته.

أجلتُ فكرة العودة، وفي قلبي مخاوف أن تتحقق نبوءة عمي عباس: الولد غصبًا عنه يصير مثل أبيه، وكأن منفيًّا واحدًا في تاريخ العائلة لا يكفي!

فضيلة التي تبكي بلا سبب، صارت تذرف دموعًا غالية من أجل وطن يتألم على شاشة التلفزيون، تحمل مسعود على ذراعها، وتجلس بيني وبين سهراب، جميعنا مشدودون إلى أخبار الربيع العربي على المحطات الفضائية، لا نعرف ماذا نصدق وماذا نكذب، كل دولة تناصر احتجاجات في ساحة، وتستنكر أخرى في ساحة أخرى، والحقائق لا تبث إلا بعد أن تعاد صياغتها في غرف خاصة.

تلطخ الربيع بالدم، وبدا المستقبل قاتمًا، ورجعت إلى عادتي أيام البطالة، أمشي في الشوارع بلا هدف، أعد نقودًا قليلة في جيبي،

مدخراتي التي أرسلها أبي تتبخر سريعًا بسبب غلاء لندن الفاحش. لا تستهويني شوارع التسوق الفارهة، أقضي جُلَّ وقتي في المحلات الشعبية على شارع بورتو بيلو، أقلب في طبعات قديمة لروايات إنجليزية، أشتريها بأسعار زهيدة، وأقضي ساعات أقرؤها بخشوع تحت ظل شجرة، أو على حافة نافورة، أضيف إلى حياتي نتفًا من أرواح شارلز ديكنز، وجويس، وأوسكار وايلد، شغلت نفسي بمجالسة الأدباء في روتين أصبحت وفيًّا له، أحيانًا أشعر بالضياع، وأذرف الدموع بصمت، لكني لا أعتقد أن روحي تبكي، مثلما وصف كازانتزاكيس **زوربا اليوناني**، أدرك أنه تعبير مجازي، غير أني لا أستسيغه، مثلما لا نستسيغ القول إن الروح تعطش، أو تتثاءب، لأن البكاء فعل جسدي تقوم به غدة دمعية.

حل الصيف وتكدست لندن بأفواج من السياح، اكتسحوا الحدائق العامة، ودهموا المتاحف، أغاروا على المطاعم، انقضوا على المحال التجارية، استحوذوا على عتبات نافورة شافتسبري في ميدان بيكاديلي، ورفعوا كاميراتهم في وجه الأميرال نيلسون في ساحة الطرف الأغر، وهجموا على بوابة قصر باكنجهام، لم يتركوا ميدانًا في المدينة إلا احتلوه. هربت من ضوضائهم إلى هدوء جامعة إيست لندن، زرت بروفسور رالف للمرة الثانية، وبحت له:

- أنا تائه في هذه الدنيا! وربما طال بي المقام في بريطانيا!

- صادق، يمكنك أن تتقدم إلى الحكومة بطلب لجوء.

- لجوء؟

لم تخطر الفكرة ببالي، وتساءلت: هل أستطيع أن أعيش هنا بشكل دائم؟ ثمة عادات بريطانية ترسخت في سلوكي، أحترم الوقت والمواعيد، أصطف راضيًا في طوابير الانتظار، وأعرف مكانة الكلب الأليف في العائلة، وأستمتع بالمشي معه في الحدائق، وأتأكد من أحوال الجو قبل خروجي من البيت، وفي الأيام الغائمة أحمل مظلة للمطر، وأعرف أن الطير ماجباي هو غراب متنكر، وأرتاد قطارات الأنفاق من دون الرجوع إلى خريطة، وأقف في القاطرة ممسكًا بأقرب قضيب حديدي، أو أجلس على كرسي، أقرأ في كتاب أو صحيفة، وأعرف أخبار الملكة، وفضائح عائلتها، وأتابع أخبار الحزب الحاكم ودسائسه، وأفهم تعليقات الناس الساخرة، ونكاتهم السياسية المبطنة. ورغم ذلك، هناك شيء في داخلي يرفض فكرة اللجوء:

- أنا مثل نخلة صغيرة نبتت في غابة كثيفة، تغرقها الأمطار كل يوم، وتخنقها أشجار عملاقة تحجب عنها ضوء الشمس.

- هكذا هي لندن، تسكنها الناس، من دون أن تعشقها!

أكدت:

- لن تكون لندن وطني أبدًا!

تقلصت ابتسامته:

- وأنا كذلك أعتقد أن أيرلندا هي وطني، مع ذلك تراني أعيش هنا.

ثم ذكّرني بالمثل الشهير:

- الإسكتلندي لا يمكن أن يصبح إنجليزيًّا.

غادرت مكتبه لا أعرف ما الذي ينبغي عليَّ فعله، تجولت في حديقة الجامعة، فريسة لمشاعر هربت مني في زحمة الحياة، ومثل نائم يسير مغمض العينين، انجذبت إلى البقع التي حلقتُ فيها بالحب، تنزهت بين أشجار السرو والدردار، قطفت وردة كاميليا، استرحت على الكرسي الخشبي تحت شجرة الزيزفون العملاقة، وتحسست التمثال البرنزي للمرأة التي تقرأ في كتاب مفتوح، وكما لو أن في الأمر سحرًا فاضت ذاكرتي بضياء التي لم تظهر غيرها امرأة في حياتي، ولا حتى سراب لأخرى.

بإيمان أن الحب ليس رذيلة، رجعت أفتش في تاريخي المكنوس، أتلصص على حياة ضياء وصورها على صفحتها بالفيسبوك، أتأملها وقد انفتح جرحي مجددًا. انتفضت لما رأيت أنها تزوجت برجل بدا أوروبيًّا ثريًّا، ما خاب ظني، الجميلات يتزوجن بأثرياء، وليست ضياء بلا ثروة ليخطفها شخص عادي مثلي. وفي صورة أخرى رأيت اسم زوجها على كعكة عيد ميلاده: شوقي. الرجل بهائي إذًا، جنتلمان إنجليزي اعتنق البهائية مثل كثيرين رأيتهم في المركز البهائي في لندن، وربما كان له اسم مسيحي، وبدّله تكريمًا لشوقي أفندي، الرجل الثالث في الديانة البهائية. أظهرت الصور أن الاثنين سافرا كثيرًا، وأن ابنهما الرضيع مثلما توقعت، بعينين عسليتين مثل عيني أمه. وفي صور مرت عليها سنون، ظهرت ضياء يافعة في

فستان أنيق في حفل زواج أخيها سرمد في كنيسة بإيطاليا، وحزنت لأنها ذكرتني أن سرمد استطاع أن يتزوج من حبيبته المسيحية، ولم تستطِع ضياء الزواج بحبيبها المسلم.

ليس هناك ما يدل أن ضياء درست الدراما في نيويورك، أو أنها شرعت في احتراف التمثيل كما حلمت، تظهر في الصور أمًّا ناضجة، اكتنزت شحمًا، لكن فيها الكثير من الفتاة التي أحببتها في الجامعة. شعرت نحوها بانجذاب ذي نكهة مختلفة. أما هي فبدا أن الزمن مرّ متصالحًا معها، كانت سعيدة، تضحك إلى حد الحماقة في بعض الصور، تخرج لسانها من فمها مثل مهرجة، هكذا هم السعداء دائمًا، مجانين وسكارى! أكتشفت أن حياتي توقفت منذ ست سنوات، زمن سُرق من عمري، مر عقيمًا أجوف، لم يثمر سوى مهارات تأمل اكتسبتها من ممارسة اليوغا، ومن قطتي سوزي التي تجلس أمام النافذة في هدوء الفلاسفة، تراقب الحياة في شوارع المنامة.

تكررت زياراتي إلى صفحتها، وعندما لم أجد لها صورًا جديدة، نفد صبري وحدثتني نفسي بمكالمتها، كما لو أن حياتي المبعثرة ليست كافية لأزيدها تعقيدًا، وبالعبثية التي تتملك العشاق تناولت هاتفي النقال، ظهر اسم جوليت على الشاشة، وقبل أن أنقر على زر الاتصال تخيلت عماتي ينظرن إلى ضياء بشزر، ويتهامسن فيما بينهن بذلك النعت القبيح، وطردت الفكرة من رأسي على الفور، لكنها ظلت تشاغبني لأيام، ماذا يحدث في حياة ضياء؟

-٤-

رتبت أمها لقاءها بشوقي، مشروع خطيب أنيق يزورهم في أجواء من الألفة، أرادت ضياء أن تهرب من تعاستها، فقالت إنها تحبه، وهي تعرف أن قلبها لم يخفق حين نطقت الكلمة.

تم الزواج سريعًا بعد تخرجها، في حفلة باذخة أقيمت في حديقة المنزل الفسيحة، كان حفلًا بهائيًّا، حضره أخوها سرمد وزوجته ميري، وأصدقاء يزورون آل زنجاني في الضيافات التسع عشرية، ومدعوون من أعضاء المركز البهائي، وشهد على الزواج مندوب من المحفل البهائي في لندن.

سافر الزوجان إلى الولايات المتحدة، وبعد عام رزقا طفلًا ذا بشرة زرقاء تبين أن سببها ثقب وراثي في جدار قلبه، تمامًا مثل الثقب الذي أصلحه جراح شهير في إنجلترا في قلب السيد زنجاني، وكان على الرضيع أن ينتظر حتى يقوى عوده، ليحتمل إجراء عملية جراحية لترميم العيب.

وكان باستطاعتها تقبل قدرها راضية، لولا ما أبداه زوجها

الذي اعتاد تجريحها بالتلميح إلى الجينات الفاسدة في عائلتها، وحين مات الطفل أبدى مزيدًا من الوحشية، إذ قدّر أن جميع أبنائه منها سيحملون العاهة نفسها، وقرر عدم الإنجاب، متذمرًا من حياته التي ستستمر بلا وريث، كان متزمتًا، صارمًا في آرائه دون مراعاة لمشاعر زوجته، مصرًّا أن تبتلع أقراص منع الحمل أمام ناظريه قبل أن يمارسا الحب.

شعرتْ بالمهانة، وكرهت نفسها، أهملت جسدها فازداد وزنها، وتخيلت نفسها تفقد موهبة حواء في خلق الحياة، حقدت على زوجها، وقدرت أنها لن تستطيع أن تكمل الحياة معه، لا تشعر بأنهما نفس واحدة، كما قررت البهائية، تلاشت الألفة، واستحال بيتهما موطنًا للكآبة، حتى واجهته:

- لطالما أدركت أنني لن أحصل على رفيق مثل أبي، لكنني أستحق رجلًا أفضل منك.

رد شوقي بعجرفة، وهمّ ليغادر البيت، فلاحقته:

- أريد الطلاق.

زفرت الكلمة، وهي تنظر بتحدٍّ إلى عينيه، لكنها حين صارت وحدها بكت إشفاقًا على نفسها. وسرعان ما عادت إلى إنجلترا. وتأثر أبوها لمأساتها، شيء من منطق زوجها أصاب قلبه المرمم، فمات كمدًا. وتسلمت خانم جوهر نصيبها من الإرث وهاجرت لتعيش مع ابنها في إيطاليا. بينما حصلت ضياء إلى جانب رزمة وثائق

محفوظة مع وصية أبيها، على بطاقة عضوية صادرة عن المركز البهائي الوطني، في المملكة المتحدة، صعقها الاسم على البطاقة، وفي الحال راودها شعور بأن كل ما فعلته في سنواتها السابقة كان عبثًا. وبيدين مرتعشتين، قلّبت بين الوثائق، لتعثر على بطاقة أخرى، وقرأت: **أقر بأني مؤمن ببهاء الله، الموعود من الله، وأقر بالباب المبشر به، وأقر بعبد البهاء مركز العهد والميثاق. وأتقدم بطلب تسجيلي في المجتمع البهائي، مدركًا أن بهاء الله قد أرسى العقائد المقدسة، والقوانين، والمؤسسات التي ينبغي عليَّ أن أطيعها، كما أني أقر كبهائي أن تطبق عليَّ القوانين البهائية فيما يخص الدفن.**

التوقيع: صادق عبدعلي

قررت الاتصال به، استجمعت قواها ونقرت رقم هاتفه، بعد لحظات تراجعت وقطعت المكالمة، لعله الآن بصحبة زوجته وأبنائه. كانت فكرة أليمة، قاومتها وعاودت الاتصال وهي تتخيله ينظر إلى شاشة الهاتف ويشغل نفسه عن الرد، قطعت الاتصال للمرة الثانية، وخمنت أنه حذف اسمها أو نسي رقم هاتفها.

بعد لحظات رن هاتفها:

- هلو! ضياء؟

- نعم، أنا ضياء، صادق لم أعرف عن الوثيقة البهائية إلا بعد وفاة أبي.

- توفي أبوك؟ رحمة الله عليه.

انفجرت ضياء في بكاء حار:

- لقد فشلت في زواجي!

- لكنك كنتِ سعيدة في الصور على الفيسبوك.

كفكفت دموعها:

- حياتي الحقيقية كانت تعيسة في أمريكا، وهي أتعس الآن في لندن.

- أنت في لندن؟ وأنا كذلك! ماذا تفعلين هنا؟

- ماذا تفعل هنا؟

انتظرته في مقهى ستار بكس، تراقب سياحًا في ساحة ترافلغار يتسلقون تمثالي الأسدين البرنزيين، ورأت انعكاس صورتها في زجاج المقهى، مسربلة بالسواد، سمينة في قميص فضفاض، شاحبة كأنها بعثت من الموت، شعرها قصير وملفوف بلا اهتمام، مظهر مبكر لسيدة في منتصف العمر. احتست كوبين من القهوة، قلقة، تتقاذفها أفكار متناقضة.

-٥-

رأيتها من خلال زجاج المقهى، لم تزَل جميلة، باهرة في ألقها الفارسي، أشعل مرآها شعورًا قديمًا داخلي، جلست أمامها كأن روحي تعود الآن، وأشعر بها بين شفتي:

- ضياء، لم أنسَكِ قط، لم تدخل قلبي فتاة غيرك.

أدرك أن اعترافي في هذا العمر يعني الزواج، قلت ذلك متناسيًا أني هارب من ورطة قانونية، وأن أحكام الإسلام والبهائية لم تتغير. كان في وجهها فرحة حذرة، تصغي إلى بَوحِي بعينين تتألقان:

- لا أعرف كيف أفسر لك ما يحدث حولنا، أعرف أني أحبك، وأطلب الزواج بك، من أجلك أنت، متيقن أنك لست كافرة. لا أنوي الرجوع إلى بلادي، يمكننا أن نعيش هنا، أو نهاجر إلى الولايات المتحدة، أو كندا، أو أي مكان آخر.

قفزت إلى المستقبل البعيد دون أن أشعر، ضياء أرجعت ظهرها إلى الخلف، ووضعت يدها على بطنها.

طمأنتها:

-سوف نلجأ إلى العلم لنتأكد من صحة كل جنين نرزقه، سننجب أطفالًا، أو نرضى بما كتب الله لنا، لسنا نخاف المستقبل، ولا ما يخبئه لنا القدر، لسنا نخاف الألم، ولا ذرف الدموع.

ترقرقت الدموع في عينيها:

- انتهى زمن مجاملة العائلة، لن يهمني تهديد أمي، وإن خاصمتني طول العمر، لن يصرفني عنك شيء. صادق، مرت أربعة عشر شهرًا بهائيًّا منذ انفصالي عن زوجي، وبعد خمسة أخرى سأكمل سنة الاصطبار، وبعدها يصبح طلاقي ساري المفعول.

- خمسة وتسعون يومًا ليست دهرًا.

فكرتُ أن زواجي بها يجعل من وجودي في بريطانيا شرعيًّا، باعتبارها تحمل الجنسية البريطانية.

مرت الشهور مترعة بالحب، ولاحظت فضيلة التغيير الهائل في مزاجي، أما سهراب فيذكّرني بقرب انتهاء مدة تأشيرتي. انقضى الصيف، وانسحبت جحافل السياح إلى بلدانها، وغامت السماء بسحب ملبدة تنبئ بليال من الأمطار.

خابرني أبي يحثني على الرجوع:

- زال خطر الاعتقال، وشُطبت قضيتك من مكتب الادعاء العام، زاهر يعيش حياة عادية، وانتهت الأحداث الأليمة.

وأضاف بنبرة مهزومة:

- وأنا اعتزلت السياسة!

استمعت إليه من عالم آخر، من عالم ضياء، وأعلنت:

- ظهرت لي ضياء ولن أتخلى عنها مرة أخرى، لن أضيع في مستقبل لا عائلة فيه.

انقضت سنة الاصطبار ولم يستطِع المحفل البهائي في لندن أن يزيل سوء الفهم بين ضياء وزوجها، فشل في إقناع زوجها بالتراجع عن قراره بعدم الإنجاب، وهكذا تم الطلاق بعد أن انتفت أسباب الزواج، وحصلت ضياء على وثيقتها، وسرعان ما أينعت ثمارها من جديد، انطلق شعرها يمرح على كتفيها، وانتعشت أحلامنا بحماسة الحب، نخطط بجنون محموم لحياتنا القادمة، أسرعُ إليها كل يوم، تحملني رجلاي خفيفًا في أنفاق القطارات، ناسيًا غربتي المزعجة، لاهيًا عن الحنين إلى الوطن.

-٦-

- تعرف بروفسور رالف، في طفولتي حذرني جدي الراحل من العجم، وها أنا أتزوج من فارسية!

قال صادق، وأشار إلى ضياء في إعجاب:

- انظر إليها، من مثلها يملك هذا الجمال والذكاء والمرح؟

إنه نهار بهي، الشمس معلقة فوق نهر التايمز، والعاشقان منتعشان بحريتهما، بعدما قررا أن يتزوجا في ملتقى حبهما الأول، جلسا على الكرسي تحت شجرة الزيزفون الجبارة في حديقة جامعة إيست لندن، البروفسور رالف وقف إلى جانب تمثال المرأة التي تقرأ في كتابها البرنزي، هبتْ نسمات باردة داعبتْ أوراق الأشجار. أخرج صادق من جيبه الخاتم ذا الياقوتة الحمراء، ودسّه في إصبع ضياء، التي تملكها سحر اللحظة الباهرة وضمت يديها إلى صدرها:

- قبلتك زوجًا.

- قبلتكِ زوجة.

في المساء، احتقنت السماء بالغيوم، ثم هطلت أمطار غزيرة. تأبط بروفسور رالف زوجته، ومشيا تحت مظلة مطر في حي كنجستون، ودخلا مطعم محسن، حيث موسيقى فارسية تسبح في المكان. ضياء التي اختارت المطعم والموسيقى والطعام، استقبلتهما عند طاولة لستة أشخاص، على محياها ابتسامة مشرقة، تنبع من سلام داخلي، بشرتها البيضاء تلمع مثل عملة جديدة، جسدها وافر، صدرها راسخ، شعرها الكستنائي يستريح على كتفين عاريين، بدت أصغر من عمرها، ترفل في فستان ضيق، امتدحتها زوجة البروفسور:

- الأحمر يمنحك الألق الذي تستحقينه كعروس.

ضياء ابتسمت في خجل:

- إنها المرة الأولى التي أنزع فيها الأسود منذ توفي أبي.

دخل صادق يطوي مظلة مطر، نزع معطفه، وتقدم نحو الطاولة حليق الذقن، يرتدي بدلة رصاصية وربطة عنق، للمرة الأولى في حياته، وعرّف زوجته بفضيلة ابنة عمته المستترة بحجاب، وزوجها سهراب، ورضيعهما مسعود النائم في سلته. امتلأت الطاولة بالأطباق الإيرانية، دجاج في صلصة دبس الرمان، ورز بالزعفران، ولحم ضأن مشوي، وخبز ساخن خرج فورًا من فرن جيري، وكؤوس لبن برائحة النعناع.

قص رالف بدايات القصة الغرامية للزوجين:

- أرى صادق كل يوم يترقب ضياء بوجه متعرق في مكتبة

الجامعة، ثم اختفى الاثنان فجأة من المكتبة، ولم أعد أراهما إلا في الحديقة، قريبين من قبلة مخاتلة.

ثارت رغبة فضيلة في معرفة برج العروس الفلكي، فاستغلت هدنة في جلبة الكلام، وسألت بإنجليزية ركيكة:

- هل أنتِ من مواليد برج الميزان؟

تلكأت ضياء للحظات ثم أجابت:

- ليست أبراج الحظ سوى خزعبلات، خرافات الإنسان الأول تُقدم للإنسان العصري في قالب حديث.

فضيلة لم تتأثر، ربما لأنها لم تستوعب ما سمعت:

- في أي شهر ولدتِ؟

- ولدتُ في السابع من الشهر الثالث عشر، لسنة ١٤١ حسب تقويم البديع البهائي.

ردّت ضياء وتركت فضيلة في حيرة تتطلع إلى الفراغ.

سكتت الموسيقى الفارسية، وسمع الجميع لندن تئن في الخارج تحت قصف الرياح والرعود.

- في بلادنا لا بد لحفلة كهذه من خطبة.

وجه البروفسور كلامه إلى العريسين، فنهض صادق وقد حلت فيه جرأة غير معتادة، ابتسم وانكشفت ثنيته المثلومة، وقال بإنجليزية قريبة من لكنة أهل لندن:

- أعزائي، أنا لست سياسيًّا مثل أبي، ولست منفيًّا مثله، غادرت الوطن بمحض إرادتي، في البداية فرارًا من السجن لأني بريء، والآن عودةً إلى أحضان حبيبتي لأني عاشق.

البروفسور أعجبه الكلام، أدخل إصبعه تحت لسانه وصفّر مثل الهيبيين، جفل الرضيع بين ذراعي فضيلة فجرت به إلى دورة المياه لترضعه، الزبائن على الطاولات المجاورة أحنوا رؤوسهم مقدرين للعروسين الاحتفال البهيج. وهمت ضياء لتقول شيئًا لكن الدموع غلبتها فاختنق صوتها، تأثر الجميع، وحاول سهراب أن يكسر حاجز الحزن الذي خيم فجأة بإشاعة جو مرح.

صفت السماء من الغيوم في الصباح، البروفسور رافق صادق وضياء على شارع ريجنت المغسول بعد مطر البارحة، يحملان جوازي سفرهما، دفتران فاخران يحملان بعض البيانات الهامة، صورة الوجه، تاريخ الولادة ومكانها، والجنسية، والديانة، الأخيرة زائدة لم يهتم بها كاتب عدل الذي عقد زواجهما المدني، وشهد عليه البروفسور.

خارج المكتب، أشار البروفسور إلى طائر ماجباي وحيد، يستريح على غصن شجرة بلوط، ينفض ريشه من بلل المطر، وألقى عليه التحية متصنعًا أنه يتقي شرّه:

- صباح الخير مستر ماجباي.

صادق يعرف الأسطورة، لكنه لم يحيي الطير، علّق قائلًا:

- لست أؤمن بأساطير الإنجليز ولا العرب!

سأله البروفسور:

- هل ستستقر في بريطانيا؟

- بريطانيا بلاد أحتملها، لكنها لا تحتملني، تُسكنني لا تحتضنني، تأويني لا توطنني.

- صادق، هنا لا ينبغي أن تخشى على نفسك شيئًا.

- ما يعنيني الآن هو ألا أعيش تابعًا لجماعة، وألا تضيع حياتي في سجال الجماعات.

لم يعرف البروفسور ما ينوي صادق فعله على وجه التحديد، لكنه سمعه يحاول أن يعرّف الوطن.

الفصل الثاني عشر

-١-

- ما من شيء أهم من الإنسان، حتى الوطن لا يرقى أن يكون أسمى منه.

قال العجوز الأيرلندي مقررًا أن يستقر في لندن، ليكون بالقرب من صديقته الملكة إليزابيث.

بهذه العبارة وضعت نقطة النهاية لروايتي الأولى **The Head of the Church of England**، **رئيسة كنيسة إنجلترا**، التي تناولت قصة إنسانية تعرض واقع أيرلندا السياسي والديني. من يصدق أن صادق الذي دربته بيبي حسينية ليكون ملا، وحلم به الجد عبدعلي طبيبًا، وتمناه النائب جواد محاميًا، أصبح روائيًّا؟ من يصدق أن ما كان لهوًا طفوليًّا، أصبح مهنة سترافقني إلى الأبد؟

أرسلت نسختين إلى لندن، واحدة إلى بروفيسور رالف، الذي راجع مسودة النص، لا سيما أني استلهمت شخصيته في الرواية، جاعلًا منه ابنًا عاقًّا للعجوز الأيرلندي. والأخرى إلى جودي التي

أرسلت بطاقة بريدية تقول إنها استمتعت بقراءتها مع شاي العصر والبسكويت، ثم أسندتها إلى رفات الراحل روب في المكتبة.

دشنت الرواية في موطني الجديد، تورنتو المدينة ذات الرياح الجليدية، آخر بقعة في العالم تلائم دمي الذي تتكسر كراته الحمراء عند البرد، غير أني انجذبت إلى بحيرتها الزرقاء، ونوارسها التي لا تكف عن النعيق، وشواطئ في متناول القدمين، في الصيف تصبح حارة، رطبة، ينقصها ملوحة في الهواء لأتخيل نفسي في المنامة.

أمام جمهور قليل، ذكرت بين المزاح والجد أن أول تجربة أدبية لي كانت قصصًا استوحيتها من معركة كربلاء، نقحتها بيبي، وأضاف إليها جدي جميع اللامات الشمسية المنسية، وتجرأت لأقول:

- حسب فهمي المعاصر للقصة القصيرة، كتبت بيبي حسينية قصصًا جيدة، رغم بدائية أسلوبها.

ثم قرأت إهداء الرواية:

- إلى أبي الحقيقي، جدي عبدعلي الذي كان معي عند أول عتبة للمعرفة، وعلّمني الفتنة التي يمتلكها قلم الرصاص.

- كيف انتهى بك الطريق إلى كندا؟

أجبت في حماسة:

- لم تنتهِ الطريق بي هنا! ثمة طريق جديدة بدأت هنا، ليست حياتي سوى طرق أخوضها، أخرج من واحدة وألج في أخرى، وكان اليتم أول طريق لي في السابعة من عمري.

صفّقوا وانتهت الأمسية من دون أن أحكي قصصًا خططتُ لذكرها عن بيبي التي لم ينجُ من جيناتها أي من أبنائها وأحفادها، وورثت منها، أكثر من أي شخص آخر، سهولة البكاء، العادة التي أعتبرها فضيلة.

ضياء الغيورة على حياتها الخاصة تحدثت عني فقط، وصرحت للجمهور أن حياتي كانت مضطربة على الدوام، باليتم والغربة والهجرة، لكنها، لم تحوّلني أبدًا لأكون شيئًا آخر غير كاتب.

رغم تحرري إلا أنني حملت تراث البحارنة من دون تعصب، ألبس الأسود في محرم، وأقرأ القرآن في رمضان، وأصلي العيد في المسجد الجامع. وجاهدت لكي تظل قرارات ضياء نابعة من إرادتها، حتى أن قرار اعتزالها الفن، رغم أنها لم تبدأ مشواره، اتخذته من أجل الأمر الذي طالما تضرعت إلى الله من أجله، فتحقق مرادها، وصارت أمًّا، أناديها أم حسين، وتناديني أبو حسين.

حسين يشبه أمه، كبر وصار له وجهها ناصع البياض، وجبهتها الشامخة، وعيناها العسليتان، وأقبل على الحياة بقلب مفتوح على الدعاء مثلها، وبعينين حاضرتين للبكاء مثلي. وجدتُ دماءه فارسية أكثر منها عربية، ضياء رأت العكس، فقد حمل عطبًا في أعماقه، ليس ثقبًا في القلب مثل طفلها الأول، إنما فقر الدم المنجلي. كان حاملًا للمرض، ليس مصابًا به، وقال الأطباء إنه خلل وراثي جاء من مكان بعيد في الشرق، ربما اندس في جينات جدته السمراء أمل من إفريقيا. ومهما يكن، لم يجرؤ أي منا على القول إن دماء حسين بهائية،

أو مسلمة، مقتنعين على نحو لا جدال فيه أن الدين لا ينتقل إلى الأولاد مثلما تنتقل الأمراض الوراثية.

ذات صباح، استيقظت ضياء مبكرًا على غير عادتها، أعدت مائدة فاخرة، بينما غيوم رمادية تطبق على تورنتو، حتى أظلم النهار، وتطايرت ندف ثلج في السماء.

قفز حسين ناحية النافذة:

- لقد اختفت الشمس!

- ليس كل ما لا تراه العين غير موجود.

قلت له، ما زلت وفيًّا لذكرى الأستاذ غازي، أتذكر ماضيَّ بمزاج من خرج منه منتصرًا، لا أحمل ضغينة تجاه أحد.

حسين لم يفهم، عيناه تبحثان عن الشمس وراء الغيوم، شرحت له:

- غدًا ستشرق الشمس كما قرر الخالق منذ الأزل.

هو يوم البهاء، الأول من شهر البهاء، للسنة ١٧٦ حسب التقويم البديع، أكملت ضياء إعداد السفرة، واحتفلنا بعيد النيروز.

- نحن قوم يحصل أطفالنا على هداياهم في أول يوم في الربيع، وليس من بابا نويل في عيد الكريسماس.

لقنته أمه ذلك الدرس المهم، وأهدته صنارة سمك تمناها، ومد يده أمامي فنقدته خمسين دولارًا، وضعها في حصالة نقوده.

كبر حسين وأصبح سؤولًا، مثلي حين كنت في عمره، تثيره أمور عجائبية في بيتنا الشيعي-البهائي، مثل سؤاله المتكرر عن التراب في القنينة الموضوعة على رف الكتب، لكنني لم أقل له إنه تراب الوطن، تعلمت من البهائيين أن العالم برمته وطن الإنسان، ما عدت أتعلق بأرض الأجداد، رغم أني أشعر أحيانًا بمرارة الغربة، وأطمئن نفسي بأني وزوجتي سندفن كما ينبغي حين نموت، جسدي في مقابر المسلمين، وجسدها في مقابر البهائيين.

وعلّمت حسين ما يصنع بتراب القنينة:

- ضعه في قبري، وتأكد أن يكون تحت رأسي.

وشرحت له كيف وضع أبي تربة كربلاء تحت رأس جدي عبدعلي في قبره في المنامة.

هز حسين القنينة بفضول:

- من أين هذا التراب؟

- إنه ترابنا الذي لا يشبهه أي تراب آخر في العالم.

وحين يكبر، سوف أشرح له أنه تراب عادي، مجرد تذكار، لأنه التراب الذي عشت عليه في بيت جدي، وليس لأنه مقدس، أو مبارك، أو أنه يفوق طهارة أي تراب آخر.

-٢-

تراجع الحاج جواد إلى مواقع خلفية، شيئًا فشيئًا تقاعد عن السياسة، أصدرت محاكم البلاد أمرًا بغلق جمعيته السياسية المعارضة، والصحيفة المعارضة التي تعوَّد أن ينشر فيها آراءه، لكن نزاهته بقيت لا يرقى إليها الشك، يسير رافعًا رأسه، واثقًا أن نضاله وسجنه ونفيه ودخوله البرلمان ما كانت إلا محطات لا بد منها في سيرة حياته. ولعل سياسيًّا متقاعدًا، ونائبًا سابقًا في البرلمان مثله، ينبغي أن يؤلف كتبًا، أو يكتب في الصحافة، أو يحاضر في المؤتمرات، وبدلًا من ذلك يقضي جل وقته في مأتم آل كاظم، يجلس على الجانب الأيمن من المنبر، في الزاوية نفسها التي جلس عندها أبوه الراحل.

توغل في أعضائه داء السكري، فسرّع من شيخوخته وانكمش جسده، عدا كتفيه العريضتين، رضخ لسلطة الزمن، فما عاد يخاف الموت، لكنه مايزال يخاف الفضيحة، رفض زواج ابنه عمار بفتاة يسارية، وهدده بالمقاطعة، فهاجر الابن إلى الكويت بحجة العمل. أما ابنه الآخر باقر، فكان نسخة من أبيه، يبكي على الحسين ويستلهم

منه الجسارة على المعارضة، كان في الثانوية حين استسهل الاعتراض على قرار حكومي، وجلس على الأرض في اعتصام عام مع عشرات الرجال، رافضين اعتقال أحد رجال الدين، وحين دهمتم الشرطة بقي مع قلة ألقي القبض عليهم، وحكم عليه بالسجن لعدة شهور، مدة لا بأس بها، ترضي جموح معارض صغير.

تألم الحاج جواد لسجن ابنه باقر، لكن غربة صادق وعمار كانت أكثر ألمًا، تكفيه الإشارة إلى كندا ليشعر بالعار، ففي أقصى لحظات شيخوخته تعاسةً، حين تطقطق عظامه وهو يصلي، يتذكر صادق، ويحزنه أنه صار مشهورًا في كندا باسم صادق عبدعلي، من دون اسم جواد، ومن دون لقب العائلة آل كاظم. وبشعور أنه لم يبقَ له إلا قليل من روح، يهاتفه:

- ولدي، ارجع مع عائلتك إلى الوطن، امنحني فرصة أخيرة لأتعرف بابني الذي شغلتني الدنيا عنه.

ثم ينفجر باكيًا:

-ولدي، ارجع وامنحني سعادة أن أحتضنك قبل أن أموت.

يعتذر صادق:

- أرجوك أن تتقبل قراري، غايتي هي حماية مشاعر زوجتي وابني من ألسنة الناس.

-٣-

نال سهراب درجة الماجستير في إدارة المصانع، ترقى في شركة النفط وأصبح مديرًا لقسم الصيانة، ويسكن مرفهًا في عوالي، المدينة المخصصة لكبار موظفي الشركة، ليس يشغل باله بقضايا الشيعة، مغمورًا في عمله، وفي إجازة الأسبوع يلعب التنس مع زملائه الإنجليز، ويتابع بهوس مباريات الدوري الإنجليزي، لكنه يتحول في محرم إلى شخصية حسينية شعبية، ينغمس في الشعائر على نحو لا يفهمه زملاؤه، ولما تخرج إخوانه في المدرسة الصناعية، استطاع أن يوظفهم في الشركة، أما ابناه مسعود ومحمود، اللذان يناديها في البيت فرزان وفرشاد، فيذهبان إلى المدرسة البريطانية الخاصة، ويحلمان بالدراسة في بريطانيا، مثل أبيهما.

فضيلة قررت أن تكون ربة بيت، صارت تتقن الإنجليزية، وانغمست في مجتمع عوالي والسيدات الإنجليزيات، تنمق الأشجار في حديقة بيتها، وتشارك في المسابقة السنوية لأجمل حديقة، وتحضر جلسات شاي العصر، واجتماعات نادي الكتاب للسيدات، تعترف

لهن بأنها تبكي كلما بكى أحدهم في رواية ما، تتباهى بدموعها ولا تهتم كثيرًا لتعليقاتهن الساخرة.

***

نعت نساء الحي في يوم العاشر من محرم:

- نادوا سهراب ليشهد أن أمه سكّون ماتت مع الحسين!

- ماتت سكّون؟ كيف سيمر علينا محرم بدونها؟

- هل يكون حزننا على الحسين كافيًا بدونها؟

توفيت سكّون مثلما تمنت تمامًا، بلباس الحداد الأسود، وفي يوم الحسين العظيم، ماتت بعد الجهد الذي بذلته في عشرة أيام، ثبّتت أقمشة السواد على جدران مأتم النساء، وكنست السجاد، وصنعت الحساء في قدور كبيرة، ووزعتها على الجيران، كانت تتنفس بكثير من العناء، يتصبب العرق على جبينها، تبكي أمام المواكب، وبعد آخر موكب طاف بالمنامة سقطت مغشيًّا عليها، تصورت النساء أنه الإجهاد الذي يصيبها عادة في هذا اليوم، لكن روحها فارقت الحياة وعلى خديها خطوط بيضاء من ملح الدموع، ماتت سكّون من حرّة البكاء على الحسين، قالت الناس، والحقيقة أنها مضت إلى الموت بنفسها، اختارت شهر محرم بإصرار، وامتنعت عن تناول أقراص السكري منذ أول يوم في محرم.

ليس من أعراف الشيعة أن يقيموا لموتاهم مجالس عزاء في العشرة أيام الأولى من محرم، هي أيام مقررة للبكاء على شهداء

كربلاء، لا عزاء ينافس ذلك الحزن، وهكذا قضت سكّون الليلة الأولى من نومتها الأبدية في صقيع ثلاجة مشرحة المستشفى الحكومي، وفي اليوم التالي، تم تغسيل جثمانها وتكفينه، وانطلقت جنازتها من مأتم النساء إلى مقبرة الحورة، جابت شوارع ما تزل موشحة بسواد محرم، لكنها لم تطف بشارع موسى بن نصير، حيث مدرسة فاطمة الزهراء المبنية على أرض مغصوبة. كانت جنازة حاشدة تقدمها سهراب ممسكًا بأبنائه مسعود ومحمود، يبكي حتى تخضبت لحيته بالدموع. أكرم أهل الحي سكّون بقبر قريب من مسجد المقبرة، لتنال روحها المزيد من الترحم من زوار المقبرة في أيام الخميس، وأوصى لها سهراب بشاهد من رخام حفر عليه اسمها الذي غاب عن أهل الحي، سكينة بنت أختر، ولقبها خادمة الحسين، المشروع الذي أفنت فيه حياتها.

ارتبط مصير سكّون الأخروي بتاريخ الحسين إلى الأبد، ففي يوم أربعينيتها المصادف أربعينية الحسين، اجتمعت العائلة في بيت آل كاظم حول العمة زهراء التي اكتنزت شحمًا، تنتحب على الحسين وتهز رأسها مولولة في نسخة طبق الأصل من الجدة حسينية. أطفال العائلة يتسلون بكرة يسددونها بين النخلتين، وحين ينهكهم اللعب يركضون إلى العمة فاطمة التي شارفت على الستين ولم ينتفخ رحمها بولد، تلقنهم ما حدث في كربلاء، تعلمهم المعاني السامية للشعائر الحسينية، على وجهها ابتسامة مكسورة ونظرات حالمة، كأنها تبحث عن ابنها بين الأطفال. أما فضيلة فتترحم على روح سكّون، وتسكب

عيش الحسين في الأطباق، طعام تعهد سهراب بتكاليفه، وأشرف بنفسه على صنعه في البيت العتيق الذي كلم فيه فضيلة للمرة الأولى. كان الجميع يتابع على الهواتف المحمولة أخبار المسيرة الأربعينية الراجلة المتوجهة إلى كربلاء، يتبادلون توقعاتهم، يتمنون أن يصل عدد المشاركين إلى عشرين مليون، لكن أحدًا لم يجرؤ على التعليق على أحداث انتفاضة الشعب العراقي، هو أمر مربك للجميع، ما عدا الحاج عباس الذي تعب من الدنيا، وما تعب من الدين، ولأنه إخباري أصيل فإنه ينتقد الشيعة الذين انخرطوا في أمور الحكم، بدلًا من انتظارهم الإمام المهدي، قال:

- الشيعة ينتفضون على حكامهم الشيعة! في العراق يهتف الغاضبون: إيران بره بره.

الحاج جواد الذي أضناه الهرم ضرب بعكازه على الأرض بعصبية:

- حق يراد به باطل!

وطقطقت في فمه أسنان صناعية لم يتعود على الحديث بها بعد.

- من يتحمل وزر دماء الشهداء الذين سقطوا في احتجاجات العراق؟

مط الحاج جواد شفتيه:

- دماؤهم في ذمة من أخرجهم. ماذا يهم لو نقص العالم مئة أو مئتين من العملاء؟

- ماذا؟ عملاء؟ وحتمًا ستقول إنه لا يحق دفنهم في مقابر المسلمين!

- نعم.

أصدر الحاج جواد حكمه من دون أن يرف له جفن، ونهض يسنده ابنه باقر، وتبعه الحاج عباس، وتوادع الرجلان بتمتمات غير مفهومة، وحركات مبهمة بالأيدي، خرجا من البيت، ما تغيرا عمَّا كانا عليه في شبابهما قيد أنملة.

-٤-

جاء صوته في الهاتف غاصًّا بالفرح:

- صادق، فزنا على منتخب الكويت، والعراق، و...

قاطعته:

- نعم زاهر، وفزنا على السعودية اليوم، هزمناهم جميعًا، كانت تسديدة الرميحي خرافية!

بدت ضياء مذهولة، لا تفهم ما يجري، فقط رأت دموعي، وشاشة التلفزيون تعرض صور لاعبين يركضون بكأس ذهبية على البساط الأخضر، ولعلها أدركتْ سبب قيامي فجرًا لمشاهدة التلفزيون.

أعاد زاهر سيرته الكروية القديمة:

- قلبي حدثني بأننا سنفوز بكأس الخليج، لأنها الدورة رقم ٢٤، مضاعف العدد ١٢ المبروك، عدد أئمتنا الاثني عشر المعصومين.

ولما عرفت ضياء لاحقًا، رفضت تلك النظرية:

- لم تحل البركة من العدد ٢٤، إنما من ١٩ الذي جاء من عامنا ٢٠١٩، لأنه مجموع قيمة الحروف الأبجدية لاسم حضرة بهاء الله.

ولم يهمني من أين جاءت البركة، المهم أننا فزنا بالكأس، بلغت عقدي الخامس وأنا أنتظر هذا اليوم، بحرينيون يكبرونني سنًّا انتظروه ثمانية وأربعين عامًا، آخرون رحلوا عن الدنيا ولم يروه.

زاهر الذي لا يزال يشعر في أعماقه بأنه السبب في غربتي، أخذ على عاتقه مسؤولية أن يطلعني على أخبار العائلة، يقول إن روح أبي لم تحتمل المزيد، اضطربت ذاكرته يومًا بعد يوم، وظهرت عليه علامات نسيان انتابت أباه لما كان في مثل عمره، صار صموتًا، وإذا تحدث لا عبر في كلامه، وكئيبًا لا يطمح إلى شيء ولا يفرحه شيء. عمّر ما يكفي ليرى أحفاده، لكنه رآهم بعينيه فقط، من دون أن يدخلوا ذاكرته، ليست لهم قصص ولا ذكريات، ظلوا غرباء يعرّفون بأسمائهم كلما قبّلوا جبهته. لم يبقَ منه غير سمعه، لكنه سمع بلا ذكريات، الأصوات لا يعرفها، الكلمات لا تعني له شيئًا، والقصص غريبة عليه، كأنها حدثت في حياة أخرى. تزوره أخته الحاجة زهراء، وتقص عليه أخبار العائلة، تقول إن حفيده جواد، ابن باقر، صار شبهه، وأنه يستعد لدخول مدرسة أبو بكر الصديق. وتغالب دموعها لتخبره أن ابنه عمار يعمل في الكويت، لكن ملامحه ليس فيها ما يدل على تأثره بما يسمع.

باركتُ لزاهر إنجاب زوجته زينب توءمين، الجدة زهراء وضعتهما في حجرها، وصرحت أنها تكاد تسمع صوت أمها حسينية يعلن أن الاسمين، لا يمكن أن يكونا إلا حسن وحسين، زينب أحبت أن تكون كنيتها أم حسن، أو أم حسين، أو أم الحسنين، لكنها لم تستطِع إقناع زاهر الذي ثبتهما في شهادتي الميلاد باسمين ليسا شائعين لدى البحارنة: خالد وحامد، قائلًا:

- لا أريد لهما أن يغيّرا اسميهما بعد مماتي.

وظلت العمة زهراء، تنادي الطفلين حسن وحسين إرضاءً لروح أمها.

-٥-

كأني لم أنتبه إلى غربتي إلا حين وُلد ابني، أروي له قبل النوم:

- لو تدري يا حسين! في بلادي السفن مصنوعة من خشب، والبحر أزرق، ويصغر كلما كبرت المدينة، والسوق تملؤها رائحة البهار، والرجال يثرثرون كل عصر عند دكة الحي، والأطفال لا يتوقفون عن لعب الكرة في الأزقة.

- لو تدري يا حسين! اسمك تشهق به النساء، ويُبكي الناس كل حين.

- من هو الحسين؟

بحثت عن كلمات مناسبة يفهمها طفل صغير:

- إنه رجل لا يموت.

حسين كركر مستظرفًا الوصف، كأنه تخيل الحسين شخصية من أفلام الخيال العلمي. ولعل في إجابتي ما يشبه مبالغة بيبي لَمَّا قالت لي في طفولتي إن الحسين أعظم رجل في التاريخ.

سمع حسين حكايات لا عد لها، أثيره كل ليلة:

- لو تدري يا حسين! في حينا الجنازة لا تمر على أرض مغصوبة، والناس تنثر أزهار المشموم على قبور موتاها كل خميس.

- لو تدري، أهل الحي لا مثيل لهم، كان درويش موسوعة أغانٍ هندية، وأم جعفر الفاتنة تفيض قططها على بيوت الجيران، وابنها جعفر الكرة المثقوبة، عصي الدمع، لا يستطيع البكاء، ولا حتى من أجل الحسين، وأبو سعيد يحفظ الشعر أفضل من الملالي، وسيد بحرين لا يزال يعيش في الستينيات، وآخرون لن تنجب البشرية مثلهم ولا في أفلام ديزني.

وليست الغربة جميلة كلها، أروي فيها قصصًا كل يوم، ثمة أوقات تمر مملة، لكني أشعر أن ضياء نصف روحي، وأن حياتي معها متميزة، وتحمل معان جادة، يزعجني الحنين إلى الوطن أحيانًا، لكن بيتي يملؤه الحب، وحسين الذي تهب ضحكاته كالنسمة تداعب قلبي، فأستغني عن البشر وكثير من دنياهم، وأعيش علاقة خاصة معه، أشعر في حضرته بأن روحي تعود إلى طفولتها، وأهبه الانطباع أني طفل مثله، وأنه صاحب الكلمة العليا في علاقتنا، مهارات تعلمتها من جدي.

ورث حسين عاداتي، يضع على وجهه الصغير نظارتي، وينتعل نعلي البيتي، ويبحث عن الصور في رواياتي، ذات يوم نقّب في محفظتي القديمة التي تآكلت حوافها، وباغتني بصور في يده، عيناه تضيئان بألق السؤال:

- من هذه السيدة السمراء؟

- ولماذا هذه العجوز حزينة؟

- وعلام تضحك أمي هنا؟

كنت في مزاج صافٍ، حكيت قصة كل صورة، أمي أمل التي من أجلها اقتنيت المحفظة نفسها، وبيبي التي أقامت بلهجة العراقيين عزاءً دائمًا للحسين في المنامة، وضياء تضحك على مسرح جامعة إيست لندن. أعاد حسين الصور إلى المحفظة بفم فاغر، ثم رفع صورة قديمة.

التقطت أنفاسي:

- هذه المنامة، هناك، وفي محرم، يخرج البحارنة يحملون حزن العالم، ويسيرون به في الأزقة حدادًا على الحسين.

حكيت تلك القصص وسط ضحكاته الرقيقة وأسئلته الذكية، كأنني عشت تلك اللحظات مع جدي من قبل، ولعله من الصعب القول إني شعرت بالسعادة، لكنني شعرت بموجة لذيذة تسري في روحي، وأحسست بدفء منعش في داخلي، وبنداوة تترقرق في مقلتي، ووجدت في المشهد إلهامًا خاصًّا، وفكرت في أنه من الخير لي لو أبكي، مثلما فعلت في أجمل أيام حياتي، فخفضت رأسي ومسحت دموع.

- بابا، هل تبكي؟

رفعت رأسي، أردت أن أعلمه الشيء الأصيل في عائلتي، وأننا

قوم بكاؤون، جئنا إلى الدنيا لكي نسطر حياتنا بالدموع، لكنه لن يفهم ذلك، فقلت له ببساطة:

- نعم، أبكي، لا عليك، إنه أمر اعتيادي جدًّا، مثله مثل العطسة، ستفهم الأمر حين تكبر.

تمت

أمواج، البحرين، ٦ يناير ٢٠٢٣

telegram @
yasmeenbook

telegram @yasmeenbook

عقيل الموسوي: من مواليد المنامة، البحرين، في العام ١٩٦٦، يعمل استشـاريَّ علاج جذور الأسنان في عيادته الخاصة بالمنامة. له اهتمامات بالسفر والتصويـر، ويحتـرف جمـع الطوابـع والعمـلات الإسـلامية، صدرَ له: رواية «أريامهر نامه: سـيرة نور الآريـيـن» (٢٠١٧)، ورواية «دارا الزرادشـتي» (٢٠٢١).